
رجل المستحيل
روايات مصرية للجيب
الموت لا يأتى مرتين
د. نبيل فاروق
8
سلسلة الأعداد الخاصة
Looloo
www.dvd4arab.com

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

القسم الأول



الشبكة الاسكندنافية

١ - كتيبة الإعدام ..

انخفضت درجات الحرارة إلى حد رهيب ، يتجاوز المعدّلات الطبيعية لمنطقة قارصة البرودة ، مثل (سيبيريا) ، وأشار مقياس البرودة إلى خمسين درجة تحت الصفر ، وبدا جنود الحراسة الذين يحيطون بأسوار المعتقل الرهيب ، فى قلب تلك البقعة المخيفة ، أشبه بالدببة ، داخل معاطف الفراء السميكة ، التى يرتدونها ، والتى تخفى أجسادهم بأكملها ، حتى بداية أقدامهم ، التى غاصت داخل أحذية سميكة مبطّنة بثلاث طبقات من الفراء ، فى محاولة لاتقاء البرد الشديد ، والجليد الذى ينهمر بلا انقطاع ، منذ ثلاثة أيام ..

ووسط كل هذه الظروف ، وعلى الرغم من الحالة الرهيبة للطقس ، برز فريق من الجنود السوفييت فى ثكناتهم(*) ، وهم يحملون بنادقهم العتيقة ، ويجرّون فى قسوة رجلاً متين البنيان ، مفتول العضلات ، شبه فاقد الوعى ، تثير حالته المزرية ، وثيابه الخفيفة التى لا تتناسب قط مع ذلك الطقس ، الشفقة فى قلب أكثر وحوش العالم قسوة وضراوة ..

ومن خلف الجنود ، ظهر الضابط (أندريه فينوفيتشى) بملامحه القاسية الصارمة وقوامه الممشوق ، وتابع حركة الجنود وأسيرهم فى برود يعدّ من أبرز سماته ، قبل أن يقول :

- أوقفوه عند ذلك الجدار هناك .

جذب الجنود الرجل حتى الجدار ، وألصقوا ظهره به ، إلا أنه عجز تمامًا عن الوقوف وحده ، فقال (فينوفيتشى) فى صرامة :

(*) تدور أحداث هذه القصة ، قبل سقوط وانهيار الاتحاد السوفيتى .

- ثبّتوه إلى الجدار بأية وسيلة .

أسرع الجنود ينفذون الأمر دون مناقشة ، فأحاطوا وسط الرجل بحبل سميك ، وربطوا الحبل فى مسمار معدنى ضخم ، بدا وكأنه معدّ لهذا الغرض بالتحديد ، على ارتفاع ثلاثين سنتيمترًا من رأس الرجل ، الذى حاول أن يقول شيئًا ما ، إلا أن التهالك الشديد الذى أصابه ، مع تلك البرودة الشديدة ، التى تنخر عظامه ، منعاه من التفوّه بأكثر من غمغمة غير مفهومة ، فى حين انعقد حاجبا (فينوفيتشى) فى صرامة مخيفة ، وهو يقول للرجال :

- اتخذوا أماكنكم .

أسرع الجنود يصطفّون فى خط مستقيم ، على مسافة ستة أمتار من الرجل المقيّد ، فى حين رمقه (فينوفيتشى) بنظرة متشفية ، وهتف :

- استعد .

رفع الجنود فوّهات بنادقهم ، وصوّبوها إلى صدر الرجل ، فقال (فينوفيتشى) ، وهو يشير إلى جنديين ، يقفان أمام عنبر المعتقلين الرئيسى :

- هيّا .

استدار الجنديان يفتحان باب العنبر الضخم ، وراحا يسوقان المعتقلين أمامهما ، وهما يلوّحان بعصى رفيعة ، تدور فى الهواء تارة ، ثم تسقط على رأس أحد المعتقلين تارة أخرى ، حتى صنعا منهم قوسًا كبيرًا ، يواجه جنود كتيبة الإعدام ، والجدار الذى قيّدوا الرجل إليه .

كان المعتقلون يرتجفون فى شدة ، من فرط البرد والرهبة ،

ومن نظرات (فينوفيتشى) الصارمة المخيفة ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يقول بصوت جهورى ، يفيض بالقسوة والصرامة :

- ينبغى أن تعلموا جميعًا أنه لا أحد يمكنه مخالفة النظام والقواعد هنا ، ومن يفعل سيلقى مصيرًا أسوأ من أبشع كوابيسه .. هل تفهمون !

ران عليهم صمت رهيب ، وكلهم يتطلّعون إليه فى خوف ، وحلوقهم جافة من شدة التوتر ، فأدار عينيه فى وجوههم ثانية ثم تابع :

- وأمام عيونكم مثال لتاكيد ما قلته .. كلكم تعرفون ذلك المعتقل المصرى (أدهم صبرى) .. وتعرفون ما فعله ، وكيف حاول أن يبدأ تمردًا ، وأن يتصدى لأوامرنا وقواعدنا ويتحدّاها .

وانعقد حاجباه على نحو مخيف ، وهو يستطرد :

- وسيدفع الثمن غاليًا .

استدارت العيون فى حسرة إلى الرجل المقيّد ، والذى عقدوا آمالهم عليه ذات يوم ، فى أن يحمل إليهم لمحة الحرية ، أو شرارة الثورة ، أو حتى الأمل فى التصدّى للقسوة والدكتاتورية الرهيبة ، التى تعدّ سمة من سمات معتقل (سيبيريا) الشهير .

ومن بعض هذه العيون انهمرت دموع اليأس والقهر والمرارة ..

وتجمّدت تلك الدموع على خدود أصحابها ، وشاركت الدموع الأخرى ، التى تجمّدت فى أعماق الآخرين ، قبل حتى أن تولد ..

وفى مرارة ، تمتم أحدهم ، وهو يتطلّع إلى الرجل المقيّد :

- ياللخسارة يا (أدهم) .. ياللخسارة !

بلغت الكلمات أذن (فينوفيتشى) الحسّاسة ، على الرغم من خفوتها ، فالتقط نفسًا عميقًا من الهواء البارد ، وتألّقت عيناه فى ظفر ورضا ، ثم استدار إلى كتيبة الإعدام ، وقال فى صرامة ، وهو يرفع يده ويخفضها :

- الآن .

ولم تكد يده تنخفض ، حتى انطلقت رصاصات بنادق كتيبة الإعدام ..

وأصابت كلها الهدف ..

وبلا استثناء ..

وانتفض جسد الرجل فى عنف ، وتفجّرت بقع الدم من صدره وراسه وعنقه .. ثم تهاوت راسه على جسده ..

وران على الساحة صمت رهيب ..

رهيب ..

رهيب ..

ووسط كل هذا الصمت ، اتجه أحد الجنود إلى الرجل ، فى خطوات واسعة ، والتقط معصمه ، وتوقف لحظة لقياس نبضه ، ثم اعتدل فى وقفة عسكرية ، وقال فى حسم :

انتهى الأمر .

وتألّقت عينا (فينوفيتشى) ببريق قوى ظافر ، فى حين لم تحتمل عيون المعتقلين ، فتفجّرت منها الدموع الحبيسة ، وسالت مع اليأس والمرارة ، و ...

ولكن مهلاً ..

هذه ليست بداية الأحداث بالتأكيد ..

فالبداية لم تكن فى معتقل (سيبيريا)(*)
بل ولم تكن فى (الاتحاد السوفيتى) كله ..
لقد بدأت مهمة (أدهم) الفعلية فى (هلسنكى) عاصمة (فنلندا) ..
وهذا يثير بالطبع موجة من التساؤلات ..
لو أن المهمة الفعلية كانت فى (هلسنكى) ، فكيف وصل (أدهم) إلى (سيبيريا) ؟! ..
وإلى معتقلها بالتحديد ؟! ..
ولماذا تم اعتقاله ؟! ..
وكيف ؟! ..
ثم دعونا ننتقل مباشرة إلى السؤال الرئيسى ..
ما مصيره هناك ؟! ..
هل لقى مصرعه بالفعل ، أم ... ؟! ..
وللحصول على جواب لكل هذه التساؤلات ، يحتاج الأمر إلى العودة إلى ما قبل حتى أن تبدأ المهمة الفعلية ..
وإلى نقطة البداية ..
إلى (القاهرة) ..

* * *

(*) سيبيريا : الاسم الشائع للجزء الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، تحتل الثلث الشمالى من آسيا ، وتمتد من جبال (الأورال) حتى المحيط الهادى ، ومن المحيط القطبى حتى (منغوليا) و (منشوريا) ، وزراعة الحبوب بها عامل هام للغاية فى الاقتصاد السوفيتى (الروسى حاليًا) ، وبها مناجم غنية بالذهب والمعادن المختلفة .

أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة وست عشرة دقيقة بالتحديد ، فى صباح أحد أيام الشتاء الباردة ، عندما ارتفع رنين الهاتف الخاص ، المجاور لفراش (أدهم صبرى) ، فاستيقظ على الفور ، واستعاد عقله وذهنه نشاطهما فى تلك الثانية ، التى امتدَّت يده فيها ، ليلتقط سمَّاعة الهاتف ، ويقول فى صوت متزن صاف :
- هنا (أدهم صبرى) .. مَن المتحدِّث .
أتاه صوت مدير المخابرات العامة المصرية شخصيًا ، وهو يجيب :
- إنه أنا يا (أدهم) .. أعلم أن الوقت متأخِّر للغاية ، وانك عدت منذ خمس ساعات فحسب من (أثينا) ، وأن مهمتك هناك لم تكن بالهينة ، ولكننى أريدك فى مكتبى فى تمام الرابعة .. هل يمكنك هذا ؟
نهض (أدهم) من فراشه بالفعل ، وهو يجيب :
- بالتأكيد .. ستجدنى أمامك فى الرابعة بالضبط .
قالها ، وانهى الاتصال ، ثم بدأ فى إجراءاته الصباحية فى نشاط جمّ ، وكأنما نهض على الفور من نوم عميق ، استغرق عشر ساعات أو أكثر ..
وعندما دقت ساعة الحائط ، فى مكتب مدير المخابرات ، معلنة تمام الرابعة ، كان (أدهم) يدق باب مكتبه ثلاث دقات منتظمة ، بدت وكأنها صدى لبعض دقات الساعة ، حتى أن المدير ابتسم ، وهو يقول فى ثقة :
- ادخل يا (أدهم) .

دلف (أدهم) إلى الحجرة فى خفة ، وبدت ابتسامته يقظة متألقة ، وهو يقول :

- صباح الخير يا سيِّدى .

أشار إليه المدير بالجلوس ، مجيبًا :

- صباح الخير يا (ن - ١) .. اجلس ، واستمع إلىَّ جيدًا .

كانت بداية سريعة ، ولكن (أدهم) اعتاد استيعاب ذلك الإيقاع ببساطة ، منذ صباه ، عندما درّبه والده (رحمه الله) على هذا ، لذا فلم يبد أدنى انزعاج ، عندما دفع إليه المدير ملفًا ضخمًا ، وهو يقول :

- راجع هذه المعلومات فى سرعة .

فتح (أدهم) الملف ، وجرت عيناه فوق صفحاته بسرعة ، والتقط من بينها صورتين ، قائلاً :

- إنه ملف الشبكة الاسكندنافية .. هل استعادت نشاطها ثانية ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

- وبصورة مخيفة .

ثم أزاح الملف جانبًا ، مستطردًا :

- والمخيف هذه المرة هو أن الشبكة الجديدة تعمل تحت ستار قانونى تمامًا ، فلقد اجتمع الأربعة الذين تبقوا منها : السويدية (انجريد ديلمار) ، والدانماركى (هانز جوردان) ، والفنلنديان (بيير ثوردال) و (باتون هال) ، وأنشئوا شركة كبيرة لتصدير آلات التنقيب والمعدّات الثقيلة ، واتخذوا مقرًا لها مدينة (هلسنكى) عاصمة (فنلندا) ، وأصبحوا من رجال الأعمال المعروفين والمرموقين هناك ، يبرمون عقودهم بمنتهى

الشرف ، ويسددون ضرائبهم بكل أمانة ، ولكن لدينا شكوك قوية تشير إلى أن هذه الشركة تخفى وراءها نشاطًا غير مشروع ، يتعلّق بنشاطهم السابق ..

ومال نحو (أدهم) ، مضيفًا فى حسم :

- الجاسوسية .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- وهل تستند هذه الشكوك إلى دلائل قوية ؟

تراجع المدير ، وهو يلوِّح بيده ، قائلاً :

- بالتأكيد .

ثم شبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يتابع فى اهتمام :

- فى الآونة الأخيرة رصد جواسيسنا لقاءً خاصًا ، تمَّ فى سرية بالغة ، وإجراءات أمن مبالغ فيها ، بين (باتون هال) ، محامى الشبكة وثعلبها الأول ، وبين ضابط الموساد الكهل (مائير شالوم) .

رفع (أدهم حاجبيه) ، وخفضهما قائلاً :

- آه : (مائير شالوم) .. الذئب الأرقط ، كما يطلقون عليه فى (الموساد) ..

عجبًا !! .. هل قرّرت الشبكة الاسكندنافية (*) أن تمد جسور الصداقة بينها وبين (الموساد) ؟ .. بعدما ساءت علاقتها بالمخابرات السوفيتية (KGB) ؟!

أجابه المدير فى جدية :

- ربما .. وربما يحدث العكس .. أن (الموساد) هو الذى

(*) الاسكندنافية : مصطلح يطلق على مجموعة دول ، فى شمال (أوربا) مثل : (الدنمارك) ، و (النرويج) ، و (السويد) ، و (فنلندا) .

يسعى لإقامة روابط مع الشبكة الاسكندنافية .. وفى كل الأحوال ، ينبغى أن نشعر بالقلق ، فأى اتحاد بين اثنين من العقارب ، لا يمكن أن يعنى إلا المزيد والمزيد من السموم .

سأل (أدهم) فى اهتمام :

- وما دورى بالضبط فى هذه العملية ؟

انعقد حاجبا المدير فى اهتمام ، وهو يجيب :

- نريد أن نقتحم عالم الشبكة الاسكندنافية ، وأن نغوص فى أعماقها ، ونسبر أغوارها ، ونكشف كل ما يختفى وراء ذلك الستار الحديدى الأنيق ، وما يكمن خلف لقاء (هال) و (شالوم) .

وعاد يميل نحوه ، مستطردًا فى حزم :

- باختصار .. نريد أن نزرع عميلاً داخلها .

قال (أدهم) فى بطء :

- والمفترض أننى هذا العميل .. أليس كذلك ؟

عاد المدير إلى جلسته المعتادة ، وهو يجيب :

- بالتأكيد .. ومن سواك ؟! هؤلاء الجواسيس من أذكى وأبرع من عمل فى مجال الجاسوسية الحرة ، وسيمكنهم كشف أى جاسوس ، يحاول التسلل إلى صفوفهم ؛ لذا فهم يحتاجون إلى محترف من طراز خاص ، يمكنه أن يتألق ، عندما يعمل منفردًا ، ولديه موهبة ارتجال الخطط ، طبقًا لمقتضيات الموقف ، ولا يحتاج إلى إجراء أية اتصالات مع قيادته طوال الوقت ..

وصمت لحظة ، هزّ خلالها رأسه قبل أن يضيف :

- إنهم يحتاجون إلى رجل مثلك يا (ن - ١) .

أومأ (أدهم) برأسه ، وأشار بيده ، قائلاً :

- عظيم .. هذا شرف لى بالتأكيد يا سيّدى ، ولكننى أعتقد

أننا نغفل نقطة بسيطة ، فكل من الفنلندى (بيير ثوردال) ، والإسرائيلى (مائير شالوم) يعرفنى جيدًا ، وسبق له أن التقى بى فى صراع ما[*] ، وسيمكنهم تعرّفى من اللحظة الأولى .

ابتسم المدير ، وهو يقول :

- مستحيل ! .. عندما تتنكر ببراعتك المذهلة ، لا يمكن لأى شخص أن يتعرّفك .. لقد اختبرنا هذا بأنفسنا .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

- ليس من السهل أن يحافظ المرء على تنكر متقن طوال الوقت .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ، وهو يستطرد :

- ولكن الأمر لا يمكنه مقاومة إغراء التجربة .

اتسعت ابتسامة المدير ، الذى لم يشكّ لحظة واحدة فى قبول (أدهم) للمهمة ، وسمع هذا الأخير يسأل فى اهتمام :

- هل توجد خطة محدودة ، أم أنه علىّ أن أرتجل منذ البداية ؟

أجابه المدير ، وهو يلتقط بضع أوراق من درج مكتبه :

- دع الارتجال لوقته ، أما الآن فستتبع خطة بسيطة للغاية .. لقد أعلنت الشركة عن رغبتها فى التعاقد مع طيّار من الفئة الأولى ، لقيادة طائرة خاصة ، وغدًا موعد الاختبار ، فى الثالثة ظهرًا .

ارتفع حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- الثالثة ظهرًا ؟! هذا يعنى أنه ..

(*) لم يتم نشر هذه العمليات بعد .

قاطعه المدير فى هدوء ، مكملاً :

- انه عليك أن تسافر فى طائرة السادسة والنصف .. هذا صحيح .. ولهذا أيقظتك من نومك .. لقد أعددنا لك جواز سفر ، وأوراق هوية ألمانية ، باسم (أدولف زيلمان) .. طيّار سابق فى شركة (لوفتهانزا) ، وستجد حقيبتك فى انتظارك فى مطار (لندن) ، الذى ستصل إليه ، قبل أن تستقل الطائرة المتجهة إلى (هلسنكى) ، والتى ستصل إليها فى الواحدة ظهرًا .. وهذا يعنى أنه سيكون أمامك ساعتان ، لتستعد لاختبار الطيران .

وناوله الأوراق وجواز السفر ، وهو يبتسم ، مستطردًا :

- وهناك نقطة واحدة ينبغى أن تدركها جيدًا ، فالذى سيجرى الاختبار هو (هانز جوردان) بنفسه ، وهو طيار مقاتل سابق فى الجيش الدنمركى كما تعلم ، ومعنى هذا أنه لن يختار إلا أبرع الطيارين .

ابتسم (أدهم) فى ثقة تحمل لمحة من السخرية ، فاتسعت ابتسامة المدير بدوره ، وهو يكمل :

- ولهذا أيضًا ، وقع اختيارنا عليك .

ولم يتبادلا بعدها كلمة واحدة ..

فقط تصافحا فى قوة ، ثم حمل (أدهم) أوراق (أدولف زيلمان) ، وغادر مكتب المدير ، ومبنى المخابرات العامة كله ، متجهًا إلى المطار ..

فلقد بدأت مهمته ..

وبدأ الخطر .

* * *

٢- أجنحة الخطر ..

توقفت سيارة ألمانية أنيقة ، أمام مبنى فاخر ، فى قلب العاصمة الفنلندية (هلسنكى) ، وأسرع سائقها يسابق حارس البناية ، لفتح باب السيارة الخلفى ، وانحنى كلاهما فى احترام شديد أمام السيّدة الأنيقة ، والتى هبطت منها ، داخل معطف من الفراء السميك حاملة كلبًا صغيرًا ، من نوع يهواه الأثرياء ، أحيط عنقه بطوق من الماس الطبيعى ، يتألق ببريق يخطف الأبصار ، ويشفّ عن مدى ثراء صاحبته ، التى ناولت الكلب لحارس البناية فى تعال ، قائلة :

- اعتن به جيدًا .

أجابها الحارس فى احترام شديد :

- بالطبع ياسيّدتى .. بالطبع .

عبرت السيّدة باب البناية فى خطوات رشيقة سريعة ، واستقبلها داخلها حارسان مسلحان ، قاداها إلى المصعد ، الذى استقلّته إلى الطابق العاشر والأخير ، وهى تسوّى شعرها الأشقر المتناثر فى أناقة ، وتتطلّع عبر جداره الزجاجى إلى الحديقة الكبيرة فى مدخل المبنى ، والنافورة الرقيقة التى تتوسطها ، ورجال الأمن الذين يتابعون المصعد فى اهتمام ، وهم يبلغون زملاءهم بأعلى أن السيّدة فى الطريق ..

وعندما وصل المصعد إلى الطابق الأخير ، كان الزملاء قد استقبلوا الرسالة ، واستعدوا لاستقبال السيّدة ، فالتقط أحدهم معطف الفراء ، وهو يختلس النظر إلى ثوبها الضيق ، الذى يبرز مفاتنها ، وهى تتجه نحو ردهة واسعة ، قائلة فى صرامة

شـديدة ، لا تتناسب مع جـمـالـهـا الواضـح ، على الرغم من سنـوات عمـرها ، الذى تجاوز منتصف الأربعـينات بعـام أو عامين :

- هل وصل الباقون ؟!

أجابها أحد رجال الأمن ، وهو يتحرك خلفها فى خطوات واسعة :

- مسيو (بيير) هنا ، ومسيو هانز وصل منذ دقائق ، ويستعـد للذهاب إلى المطار ، لإجراء اختـبارات الطيـران للمتقدمين للوظيفة ، أما مسيو (هال) ، فلم يصل بعد .

مطّت شفتيها الجميلتين ، قائلة فى غضب :

- ولماذا لم يصل بعد ؟! .. لقد تجاوزنا الثانية بالفعل .

أجابها الرجل فى سرعة :

- لقد اتصـل هاتفيًا من سيارته ، وقال إنه فى الطـريق يا سيّدتى ، وسيصل بعد قليل .

عادت تمطُّ شفتـيهـا فى غضب ، وهى تتجـه إلى قـاعـة الاجتماعات ، قائلة :

- ذلك الوغد يعلم أننا لا نستطيع بدء الاجتماع بدونه .

خُيّل لرجل الأمن أنه لم يسمع جيدًا ، فسألها فى شىء من الدهشة :

- ماذا يا سيّدتى ؟!

التفتت إليه فى حركة حادة ، وقالت :

- ليس فى هذا من شأنك .. هيا .. اغرب عن وجـهى ، ولا تتبعنى هكذا كظلى .. أنا أكره هذا .

تراجع الرجل على الفور وهو يقول :

- كما تأمرين يا سيّدتى .

قبل أن تصل إلى القاعة فتح (بيير ثوردال) بابها ، وابتسم ابتسامة لا تحمل أدنى قدر من المودّة ، وهو يقول :

- صـبـاح الخـيـر يا أمـيرتى .. لماذا تبدئين صبـاحك ثائرة هكذا ؟

رمقته بنظرة صارمة ، وهى تجيب :

- لقد تجاوزت الثانية ظهرًا .

رفع حاجبيه بحركة مصطنعة ، وهو يقول :

- حقًّا ؟! .. يبدو أن شمس جمالك قد بهرت عينىّ ، حتى تصوّرت أننا فى الصباح الباكر .

مطّت شفتيها على نحو يوحى بأن عبارته لم ترق لها ، ثم تجاوزته ، مشيحة بوجهها عنه ، ولوّحت بأصابعها لـ (هانز) قائلة :

- كيف حالك ؟ .. أخبرونى أنك تستعد للانصراف .

أجابها (هانز) فى برود :

- اختبار الطيران يبدأ بعد أقلّ من ساعة .

جذبت مقعدًا ، وجلست فى بطء ، ووضعت إحدى ساقيها فـوق الأخـرى ، ثم تطلّعت إلى أظفارها الطويلة ، المطليـة فى عناية ، وقالت :

- لماذا تأخّر (هال) ؟

أجابها (ثوردال) ، وهو يغلق باب القاعة فى إحكام :

- اجتماعه مع الإسرائيلى استغرق وقتًا أكثر مما ينبغى ، ولكنه يقول : إنه حصل على صفقة جيدة .

أدارت عينيها إليه ، وقالت فى دهشة ساخرة :

- صفقة جيِّدة مع يهودى ؟
لوَّح (ثوردال) بيده قائلاً :
- انا لا اثق بالإسرائيليين قط ، ولو أن الصفقة رابحة ، فهى لصالحهم حتمًا :
قال (هانز) فى سرعة :
- دعونا لا نتعجَّل الأمور .. (هال) سيصل ما بين دقيقة وأخرى ، وسنعرف منه كل التفاصيل .
لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت (هال) من عند الباب ، هاتفًا :
- لقد وصل بالفعل .
التفتت العيون كلها إليه ، وهو يدلف إلى القاعة فى نشاط ، ويضع حقيبته على مائدة الاجتماعات ، وسألته (انجريد) :
- ماذا فعلت مع (شالوم) ؟!
ربَّت على الحقيبة ، قائلاً بابتسامة ظافرة :
- اقنعته ان يمنحها الملايين الخمسة ، التى تحتاج إليها .
ساله (ثوردال) بسرعة :
- مقابل ماذا ؟! .. الإسرائيليون لا يمنحون الملايين ، إلا لو كانت ستدرّ عليهم المليارات .
التفت إليه (هال) ، وهزَّ كتِفيه ، قائلاً :
- كل ما طلبه الرجل هو التعاون .. فقط التعاون مع (الموساد) .
انعقد حاجبا (أنجريد) فى شك ، وتمتم (هانز) فى حذر :
- التعاون ؟!
أجاب (هال) فى حماس :

- نعم .. كل ما طلبه الإسرائيليون هو التعاون ، ما بين جهاز مخابراتهم (الموساد) ، وشبكتنا الاسكندنافية .. وهذا مقابل خمسة ملايين عدًا ونقدًا .
سألته (انجريد) فى قلق :
- وما صورة التعاون التى اقترحوها ؟
أدار (هال) عينيه فى وجوههم ، ثم جذب مقعدًا ، وجلس بينهم قائلاً :
- كل ما يطلبونه هو أن نعاونهم على اختراق المخابرات السوفيتية .
اتسعت عيونهم فى مزيج من الذعر والذهول ، وبدا صوت (هانز) أشبه بصرخة فزع ، وهو يهتف :
- المخابرات السوفيتية ؟! .. هل جننت يا رجل ؟! .. هل تريد منا أن نتعاون مع الإسرائيليين ضد السوفييت ؟!
أشار (هال) بيديه قائلاً :
- رويدكم يا رفاق .. الأمر ليس بالصعوبة التى تتصوَّرونها .. عندما بدأت مفاوضاتى مع ذلك الإسرائيلى ، أدركت على الفور أنه يعلم أن اتصالاتنا بالمخابرات السوفيتية لم تنقطع تمامًا ، وأنه مازال لنا عميل فى قلبها ، وأن رؤساءه قد أرسلوه لإقناعنا باستغلال هذا العميل لحسابهم .
ثم تراجع فى مقعده ، وابتسم ، قائلاً :

- من الواضح أنهم لم ينسوا بعد عملية الدكتور (إسرائيل) ، وأنهم ينشدون الانتقام من السوفيت(*) .

انعقد حاجبًا (ثوردال) ، وهو يقول فى عصبية :

- تتحدَّث عن الأمر كما لو كان سهلاً بسيطًا .

هزَّ (هال) كتفيه ، قائلاً :

- إنه كذلك بالفعل .. كل ما يطلبه الإسرائيليون هو أن يحصلوا على بعض المعلومات ، عن المخابرات السوفيتية ، عن طريق عميلنا هناك .

لوَّح (ثوردال) بسبَّابته فى وجهه قائلاً فى صرامة :

- اسمع يا (هال) .. لدىَّ خبرة طويلة فى التعامل مع اليهود ، ولو أردت نصيحتى ، فلا تثق بإسرائيلى قط .. إنهم ، ومهما بدوا لك طيبين ودودين ، لا يعرفون إلا صالحهم فقط ، ويمكنهم أن يدوسوا أمهاتهم بأقدامهم ، فى سبيل هذا .

ابتسم (هال) ، وهو يقول :

- كل مخلوق فى الدنيا يسعى لصالحه يا عزيزى (بيير) ..

(*) (إسرائيل بيير) ضابط برتبة كولونيل ، وأستاذ فى جامعة (تل أبيب) ، ومستشار الأمن القومى فى الحكومة الإسرائيلية ، ومؤرخ عسكرى فى وزارة الدفاع الإسرائيلية ، ومحرِّر فى جريدة (هامشمار) ، ومعلق عسكرى لجريدة (ها ارتس) ، كشف الإسرائيليون فجاة أنه جاسوس سوفيتى ، وتمت محاكمته بهذه التهمة ، دون أن يدرك الإسرائيليون أن عشيقته (ريناتا) كانت تعمل لحساب المصريين ، وتنقل إليهم بانتظام كل المعلومات والوثائق ، التى يعدّها (إسرائيل) لإرسالها إلى السوفييت ، أى أنه كان يعمل لحسابنا دون أن يدرى .

وهم لم يعارضوا هذا قط .. سيحصلون على مايريدون ، ويمنحوننا ما نريد .

قالت (أنجريد) فى صرامة :

- ومن أدراك أنهم لا يسعون إلى العكس ، وأنهم لا يتعاونون مع السوفيت ضدنا ؟

هزَّ كتفِيه ، قائلاً :

- ولماذا يفعلون هذا ؟

أجابه (هانز) فى حزم :

- ليكشفوا عميلنا فى الـ (كى . جى . بى) .

مال (هال) إلى الأمام ، وقال بابتسامة واثقة :

- اطمئن .. لن يمكنهم هذا .

سأله (ثوردال) :

- كيف أيها العبقرى ؟ ألن يحصلوا على ما يريدونه من معلومات عن طريقه ؟

أشار (هال) بسبَّابته ، وحافظ على ابتسامته الواثقة ، وهو يقول :

- لن يحدث الأمر بهذه البساطة .. لقد درست الموضوع جيدًا ، قبل أن أوافق على عقد الصفقة .. إنهم لن يلتقوا بعميلنا قط ، ولن يعرفوا حتى اسمه .. كل ما سيحدث هو أنهم سيطلبون منا المعلومات ، ونطلبها نحن من عميلنا ، الذى يرسلها إلينا ، فنسلمها نحن للإسرائيليين ، ونحصل على الثمن .. باختصار .. سنكون سماسرة معلومات فحسب ، مقابل مبلغ ضخم من المال .

تبادل (هانز) نظرة قلقة مع (أنجريد) ، فى حين انعقد

حاجبا (ثوردال) فى شدة ، وهو يحاول استيعاب الموقف ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه ، متمتمًا :

- لا تثق أبدًا بإسرائيلى .

مطَّ (هال) شفتيه ، وتراجع فى مقعده ، وقلب كفيه ، قائلاً :

- اعتقد ان موقفكم متعنِّت بحق هذه المرة .

ثم عاد يعتدل ، مردفًا فى غضب :

- الا تثقون ببراعتى كمحام ؟!

عادوا يتبادلون تلك النظرة الحذرة القلقة ، ثم لم يلبث (هانز) أن نهض ، قائلاً :

- الا يمكن إرجاء مناقشة هذا الأمر ، حتى أعود من اختبارات الطيران ؟

قال (هال) فى عصبية :

- هذا الأمر أكثر أهمية من اختبارات الطيران .

أجابه (هانز) فى صرامة :

- لقد حدَّدت بنفسى موعد عقد الاختبارات ، ولن اتراجع عن قولى قط .

وافقته (انجريد) بإيماءة من رأسها ، قائلة :

- هذا افضل يا (هال) .. الأمر يحتاج إلى بعض التروِّى والتفكير ، قبل اتخاذ قرار حاسم ، فى أمر حيوى كهذا .

واندفع (ثوردال) قائلاً :

- وأنا اتفق تمامًا مع (انجريد) و (هانز) .

بدا الضيق والغضب على وجه (هال) ، وهو ينهض بدوره ، قائلاً :

- فليكن .. خذوا وقتكم ، ولنلتق هنا صباح الغد ، ونحسم

هذا الأمر .. فكروا جيدًا وحاولوا تخيل مدى ما سنحصل عليه من مزايا ، بتعاوننا مع جهاز مخابرات قوى مثل (الموساد) .

غمغمت (انجريد) ، وهى تلقى نظرة أخرى على أظفارها الجميلة :

- اطمئن .. سنفعل .

انفضَّ الاجتماع بعد هذه العبارة ، وانطلق (هانز) بسيارته ، للحاق باختبارات الطيران ، فى حين اتجه (ثوردال) و (انجريد) إلى مكتبيهما فى الطابق التاسع ، وبقى (هال) وحده ، صامتًا ساكنًا ، يتطلع عبر النافذة إلى العاصمة الفنلندية فى شرود ..

لقد كان أكثر من يهمه عقد مثل هذه الصفقة مع الإسرائيليين ..

ولديه أسبابه لهذا ..

وهى أسباب لا يمكن التصريح بها ..

لا يمكن أبدًا ..

* * *

استرخى (هانز جوردان) فى مقعده فى ضجر ، يراقب طائرة التدريب ، التى تحلِّق فى السماء ، وبداخلها أحد الطيارين الجدد ، الذين تقدَّموا للاختبار ، ومطَّ شفتيه ، وهو يزيح صورة الطيار جانبًا ، مغمغمًا :

- لا يصلح .

لم يكن الطيَّار ، الذى يقود الطائرة فاشلاً ، إلا أن عمل (هانز) السابق كطيار مقاتل ، كان يضفى على مزاجه سمة خاصة ، فهو لا يقبل بالجودة العادية قط ..

إنه يبحث عن طيَّار من طراز خاص ..

طيار يمكنه أن يقود طائرة خاصة ، بنفس المهارة التى يقود بها مقاتلة حربية ..

طيَّار قادر على المراوغة والمناورة ..

وليس من السهل أن يجيد طيار مدنىّ هذا ..

لذا فقد اختبر (هانز) أكثر من خمسة طيارين ، من الثالثة وحتى الرابعة بعد الظهر ، دون أن يروق له واحد منهم ..

وعندما هبط الطيَّار الحالى بطائرة التدريب ، قفز منها فى خفة ، واتجه إلى حيث يجلس (هانز) ، وساله فى لهفة :

ما رأيك ؟

تنهَّد (هانز) ، ومطَّ شفتيه مرة أخرى ، وهزَّ رأسه قائلاً فى برود :

- لا بأس .

شعر الطيَّار بالإحباط ، وقال مرتبكًا :

- لقد عملت بالطيران المدنى لمدة عامين ، ثم التحقت بمدرسة الـ ..

قاطعه (هانز) بإشارة من يده ، وكرَّر فى ضجر :

- لا بأس .. لا بأس .. اترك اسمك وعنوانك ، وسنتصل بك إذاً ما احتجنا إليك .

أومأ الطيَّار برأسه فى إحباط أكثر ، وأملى اسمه وعنوانه لمدرِّب الطيران ، الذى كتبهما فى لامبالاة واضحة ، وتنهَّد قائلاً :

- ألم يرق لك أيهم يا مسيو (هانز) ؟

هزَّ (هانز) رأسه نفيًا ، وقال :

- كلهم لا يصلحون .

ثم سأل فى شىء من الملل :

- أمازال هناك آخرون ؟

أجابه المدرِّب :

- نعم .. ثلاثة .. أحدهما ألمانى ، والآخران نرويجيَّان .

صمت (هانز) لحظة ، وهمَّ بصرف الطيارين الثلاثة ، ثم لم يلبث أن قال :

- فليكن .. دعنا نختبر الألمانى أوَّلاً .

اعتدل المدرِّب ، وهتف :

- تعال يا (زيلمان) .

تقدَّم (أدهم) نحو (هانز) ، الذى تطلَّع إليه لحظة ، وقارن وجهه بصورته المدوَّنة فى طلب الاختبار ، ثم راح يتطلَّع إليه بضع لحظات فى صمت ..

كان (أدهم) قد صبغ شعره بلون أشقر ذهبى يتناسب تمامًا مع لون الشارب واللحية الكثَّين ، اللذين أخفيا نصف وجهه ، وارتدى سترة جلدية سوداء تشبه تلك التى كان يرتديها الطيارون الألمان ، فى الحرب العالمية الثانية (*) ، وسروالاً أزرق من سراويل رعاة الأبقار الأمريكيين (بلوجينز) ، وحذاء مطاطيًا من أحذية الرياضيين ..

وكان فى مظهره هذا يختلف تمامًا عن الآخرين ، الذين

(*) الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥ م) : حرب اشتعلت بسبب السياسة العدوانية التى اتبعتها قوات المحور (ألمانيا) ، و (إيطاليا) ، و (اليابان) ، مما اضطر (انجلترا) ، و (فرنسا) للتدخُّل ، وسقطت (فرنسا) فى البداية ، ولكن (انجلترا) صمدت طويلاً ، أما (ألمانيا) فخاضت الحرب فى جبهات مختلفة ، حتى وصلت إلى (روسيا) ، ومن هناك بدأت الهزيمة ، التى امتدت حتى احتلال (برلين) عام ١٩٤٥م ، وانتحار (أدولف هتلر) .

تأنقوا بقدر إمكانهم لخلق انطباع جيد عند المختبر ، لذا فقد فحصه (هانز) من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، قبل أن يسأله :

- أين كنت تعمل من قبل ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء ، وبلغة ألمانية سليمة تمامًا :

- وما شأنك بهذا ؟

انعقد حاجبا (هانز) وهو يقول :

- أجب سؤالى .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

- قل لى يا رجل : أهذا اختبار طيران ، أم امتحان للالتحاق بالمدرسة الثانوية ؟!

بدا الغضب لحظة على وجه (هانز) ، إلا أنه لم يلبث أن استعاد بروده ، وهو يراجع طلب الاختبار ، قائلاً :

- اسمك الأول (أدولف) .. أأنت من المعجبين بالنازى السابق (أدولف هتلر)(*) .

أجابه (أدهم) :

- ليس هذا من شأنك .

بدت الدهشة على وجه مدرِّب الطيران ، من الأسلوب الذى يتحدَّث به (أدهم) ، وقال فى قلق :

- ألا تعرف إلى من تتحدَّث يا فتى ؟

(*) (أدولف هتلر) (١٨٨٩ - ١٩٤٥ م) : زعيم ألمانى ، قاد الحزب النازى ، وأسَّس الرايخ الثالث ، وأصبح رئيسًا للوزراء عام ١٩٣٣ م ، ثم رئيسًا للجمهورية عام ١٩٣٤ م ، وأدت سياسته إلى إشعال الحرب العالمية الثانية ، التى انتهت بهزيمة (ألمانيا) وانتحاره .

أجابه (أدهم) متحديًا :

لا يعنينى أن أعرفه .. أنا هنا لإجراء اختبار الطيران فحسب .. هل تنوون اختبارى أم أعود أدراجى ؟!

رمقه (هانز) بنظرة صارمة ، قبل أن يقول :

- هل تعتقد أنك تستطيع قيادة الطائرة بمهارة ، بهذا المزاج العصبى ؟

ألقى (أدهم) نظرة مستهترة على الطائرة الصغيرة ، قبل أن يجيب فى سخرية :

- أتقصد هذه الطائرة ؟! .. إننى أستطيع قيادتها فى أثناء نومى ، والهبوط بها فوق رصيف صغير ، تحيط به النيران من جانبيه ، قبل حتى أن أستيقظ .

ابتسم (هانز) فى سخرية ، قائلاً :

- ياللغرور !

انفعل مدرِّب الطيران ، وهو يقول :

- هذا الرجل لا يصلح يا سيد (هانز) ، دعه ينصرف ، و ...

قاطعه (هانز) فى صرامة :

- على العكس .

ثم مال نحو (أدهم) مستطردًا :

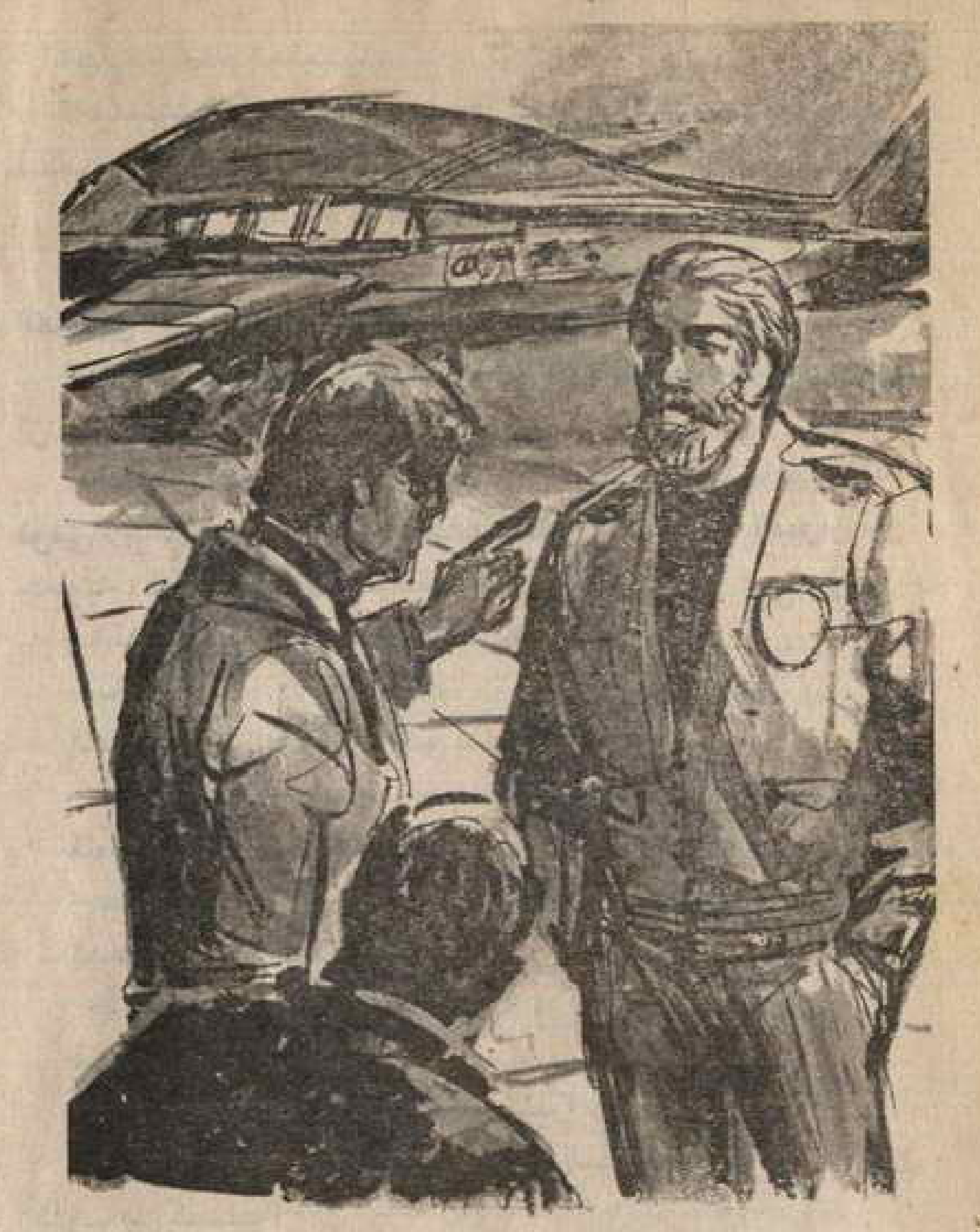
- هيا .. اعرض علينا مهارتك .

قال (أدهم) ساخرًا :

- فليكن ، ولكن حاول ألا تنبهر كثيرًا .

قالها ، واتجه مباشرة نحو طائرة التدريب الصغيرة ، فقال المدرِّب فى عصبية :

- كان ينبغى أن تطرده يا مسيو (هانز) .



ثم مال نحو (أدهم) مستطردًا :
- هيا .. اعرض علينا مهارتك .

هزَّ (هانز) رأسه نفيًا ، وقال :

- بل دعه يرينا مهارته ، ثم نحطِّم غروره بسخريتنا .

لم يهضم المدرِّب هذا المنطق ، ولكنه هزَّ رأسه مضطرًا ، وعاد يتابع (أدهم) الذى قفز داخل الطائرة ، وانطلق بها على ممر الإقلاع فى بساطة ، ثم غمغم :

- بدايته جيِّدة إلى حد ما .

غمغم (هانز) :

- لا تجعل هذا يخدعك .

ارتفعت الطائرة الصغيرة فى براعة حقيقية ، وواصلت انطلاقها فى خط مستقيم ، ثم لم تلبث أن ارتفعت بزاوية حادة ، فانعقد حاجبا المدرِّب فى قلق ، وهو يغمغم :

- ماذا يفعل هذا الأحمق .. طائرة التدريب لن تحتمل الارتفاعات الكبيرة .

أما (هانز) ، فلم ينبس ببنت شفة ، وهو يراقب الطائرة ، التى واصلت ارتفاعها طويلاً ، ثم دارت دورة رأسية ، و ...

وفجأة راحت تهوى ...

تمامًا كما لو أن قائدها قد فقد سيطرته عليها ، وتركها تسقط من حالق ..

وفى هلع ، قفز المدرِّب من مقعده ، هاتفًا :

- رباه ! .. إنه يسقط ..

أما (هانز) فانعقد حاجباه فى شدة ، وتمتم :

- مستحيل ! .. أمن الممكن أن ..

لم يكمل عبارته ، وإن بدا التوتر واضحًا على ملامحه ، وهو يتابع سقوط الطائرة ، التى بدا وكأنها ستواصل ذلك السقوط

العشوائى ، حتى ترتطم بالأرض ، فهتف المدرِّب مذعورًا :

– سيسقط .. سيسقط حتمًا .

ولكن فجأة ، استعادت الطائرة توازنها ، واعتدلت ، وراحت تنطلق بمحاذاة الأرض ، على ارتفاع منخفض ، متجهة نحو حظيرة طائرات مفتوحة ، فاتسعت عينا المدرِّب ، وغمغم :

– ما الذى يفعله بالضبط ؟

اعتدل (هانز) فى اهتمام شديد ، وهو يقول :

– يثبت مهارته .

التفت إليه المدرِّب فى دهشة ، قائلاً :

يثبت ماذا ؟!

أشار إليه (هانز) فى صرامة ، وهو يقول :

– اصمت .. دعنا نر هذا .

كان (ادهم) ينطلق بالطائرة نحو حظيرة الطائرات بالفعل ، ثم مال بجناحيها قليلاً ، واقتحم الحظيرة بزاوية مخيفة ، وعبر فراغها بسرعته ، قبل أن يبرز من الباب المواجه ، ويرتفع ثانية بالطائرة ..

وفى انبهار ، هتف المدرِّب :

– مستحيل !

تألَّقت عينا (هانز) ، وقال فى انفعال :

– إنه طيار حقيقى .. هذا هو الرجل الذى احتاج إليه بالضبط .

هرش المدرِّب راسه ، قائلاً فى حيرة :

– كيف تعلَّم كل هذا ؟!

كان (ادهم) ينطلق بالطائرة فى مدار حلزونى ، وهو

يرتفع بها ، ويرتفع ، ويرتفع ، ثم عاد ينخفض بزاوية مخيفة ، وكانه صاروخ يتجه نحو الأرض مباشرة ..

وفى توتر شديد ، غمغم المدرِّب :

– لابد وان يرتفع الآن .. لو تاخر قليلاً سيكون الارتفاع مستحيلاً ، و ..

وانحبست الكلمات فى حلقه لحظة ، قبل أن يتابع :

– مستحيل ! لقد فقد فرصة الارتفاع .. سيرتطم بالأرض حتمًا .

بلغ انفعال (هانز) ذروته ، حتى انه قبض على معصم المدرِّب فى قوة ، وهو يقول ، وكانه يتحدث مع (ادهم) مباشرة :

– هيا .. ارتفع يا رجل .. ارتفع .. ارتفع .

شهق المدرِّب ، متصورًا أن الطائرة سترتطم بالأرض لا محالة ، ولكنها اعتدلت فجأة ، وبزاوية شديدة الصعوبة ، وارتفعت مقدِّمتها فى مهارة ، فى حين انخفضت مؤخرتها ، واقتربت إطاراتها من الأرض ، قبل أن تلتقى بها فى نعومة مدهشة ، وتنزلق الطائرة على المهبط على نحو يثير الإعجاب ..

وعندما قفز (ادهم) خارج الطائرة بعد توقفها ، لم يتمالك المدرِّب نفسه ، وهتف فى انبهار :

– رائع .. اروع عرض طيران شاهدته فى حياتى .

ابتسم (ادهم) فى سخرية ، وهو يقول :

– لقد حذَّرتك من قبل .. لا تنبهر كثيرًا .

كان (هانز) يشعر بالانبهار ، من قمة راسه وحتى اخمص قدميه ، إلا انه اخفى انفعاله هذا فى اعماقه ، وهو يقول :

– مستواك لا باس به يا رجل .. ستفوز بالوظيفة .

نطقها فى نفس اللحظة ، التى اقترب فيها أحد الفنيين من المدرّب ، وهو يسأله :

– قل لى يا سيّدى : هل من الممكن أن ...

وبتر عبارته بغتة ، وهو يحدّق فى وجه (أدهم) ، قبل أن يصرخ فجأة :

– رباه ! .. أنا أعرف هذا الرجل .

وانعقد حاجبا (أدهم) فى توتر ملحوظ ..

وكانت مفاجأة .

* * *



٣ - العميل ..

خفض (هال) سرعة سيارته الأنيقة ، عندما بلغ تلك البقعة الخالية ، عند أطراف العاصمة ، وانحرف فى طريق جانبى قديم غير مطروق ، وتوقّف عند مبنى نصف متهدّم ، وغادر سيارته فى حذر ، وهو يتلفّت حوله ، حتى سمع صوتًا يقول :

– اطمئن .. لم يلمحك أحد .

التفت (هال) فى حدة إلى مصدر الصوت ، ثم زفر فى عصبية ، قائلاً :

– (شالوم) .. لقد أفزعتنى .

ظلّت ملامح الإسرائيلى خاوية من أية انفعالات ، وهو يقول :

– لا بأس .. أخبرنى .. هل نجحت فى إقناع رفاقك ؟

هزّ (هال) رأسه نفيًا ، وقال فى توتر :

– ليس بعد .. مازالوا يشعرون بالقلق ، ويفتقرون إلى الثقة بكم .

عقد (شالوم) حاجبيه ، وهو يقول :

– مهمتك أن تزيل قلقهم أو تمنحهم بعض الثقة .

أجابه (هال) فى عصبية :

– إننى أبذل قصارى جهدى .

رمقه (شالوم) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

– يمكنك أن تبذل جهدًا أقل لو أردت .

قال (هال) فى حدة :

– بأن أعطيك اسم عميلنا فى الـ (كى . جى . بى) .. أليس كذلك ؟!

قال (شالوم) :
- إنه ليس بالأمر العسير .
اجابه (هال) :
- بل هو أسخف شيء يمكن أن أفعله ، في ظل هذه الظروف .. لو انني أعطيتك اسم العميل ، فما الذي يمكن أن يفيدني ؟
قال (شالوم) :
- ستحصل وحدك على خمسة ملايين دولار .
أشار (هال) بسبَّابته ، قائلاً في حزم :
- خطا يا (شالوم) .. إنها ثمانية ملايين وليس خمسة .
ابتسم (شالوم) بشيء من السخرية ، وهو يقول :
- هذا لو انك حصلت على موافقة الجميع .. ستحصل معهم على خمسة ملايين من الناحية الواضحة ، وعلى ثلاثة ملايين وحدك بصورة سرية ، أما لو أخبرتنا اسم العميل ، فستحصل على الملايين الخمسة كلها وحدك ، ولن يعلم رفاقك عنها شيئًا .
ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (هال) وهو يقول :
- محاولة طريفة لإغرائي يا (شالوم) ، ولكنها محاولة فاشلة للأسف ، فطموحي يفوق عرضك بكثير .
انعقد حاجبا (شالوم) ، وهو يردِّد في حذر :
- طموحك ؟!
أشار (هال) بيده قائلاً :
- بالطبع هل تصوَّرت أنني ساكتفي بتلك الملايين المحدودة التي ساحصل عليها منكم ، مقابل إقناع رفاقي بالتعاون معكم ؟ .. خطا يا رجل .. إنني أعتبر تعاونكم معنا أشبه بمنجم

الذهب .. يظلّ يمنحنا إنتاجه ، ما دمنا نواصل التنقيب فيه .. عميلنا سيحمل إليكم الكثير والكثير من المعلومات ، وكلها عن طريقي وحدي .. وفي كل مرة ، أعطيكم فيها المعلومة ، ساحصل على مكافاة إضافية .. هذا هو طموحي الحقيقي .. منجم ذهب لا ينضب أبدًا .
انعقد حاجبا (شالوم) أكثر ، وهو يقول :
- حذار يا (هال) .. المناجم تنضب أحيانًا .. أو تنهار في أحيان أخرى .
قال (هال) في عصبية :
- أتهديد هذا ؟!
أجابه (شالوم) في سرعة :
- بل تحذير يا (هال) .. ما تتحدَّث عنه ليس طموحًا .. إنه الطمع والجشع .
أطلق (هال) ضحكة ساخرة عصبية ، وهتف :
- لقد تعلَّمته منكم يا أساتذة الطمع والجشع عبر التاريخ .. هل لك أن تخبرني كيف صنعتم إمبراطورياتكم المالية ؟! .. أليس بالطمع والجشع ؟!
قال (شالوم) في غضب :
- إننا ندير أعمالاً قانونية .
هتف (هال) :
- ولكنها غير محترمة .. إنكم أصحاب كل الشركات ، التي تتاجر بكل واحط غرائز البشر .. هل أذكر لك أسماءها ، أم ...
قاطعه (شالوم) في غضب صارم :
- هل تركت مهنة المحاماة ، وتحوَّلت إلى مصلح اجتماعي ؟

ارتفع حاجبا (هال) فى دهشة ، وهو يهتف :
- مصلح اجتماعى ؟ ! .. أنا ؟ !
ثم تفجَّرت فى حلقه ضحكة ساخرة مجلجلة ، قبل أن يميل نحو (شالوم) ، ويشير إلى نفسه ، قائلاً :
- لو أردت الحقيقة ، فأنا أكثر حقارة منكم يا رجل .. تعلمت على أيديكم الجشع والطمع والخيانة والغدر ، ثم تفوّقت عليكم .. أنا التلميذ الذى فاق أستاذه .
واعتدل فى حركة حادة ، مستطردًا فى صرامة :
- والذى سيربح معركته فى النهاية .
والتقط نفسًا عميقًا من الهواء ، قبل أن يضيف فى حزم :
- غدًا ستحصلون على موافقة رفاقى ، وأحصل أنا على الملايين الثمانية .
واتجه نحو سيارته ، وتوقَّف عندها ، ليلتفت إليه ، مستطردًا :
- وعلى مكافآتى المنتظمة .
قالها ، ودلف إلى سيارته ، وانطلق بها مبتعدًا ، وهو يطلق ضحكة ساخرة أخرى ، انعقد لها حاجبا (شالوم) بشدة ، وراح يتابع السيارة ببصره وهو يغمغم فى مقت :
- تظن نفسك أذكى الأذكياء أيها الدانمركى .. فليكن .. غدًا ستدرك أن أحدًا لا يمكنه خداعنا قط ، وأنه عندما تحين لحظة الحصاد ، نكون نحن الفائزين ..

والتقى حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :
- نحن وحدنا .
وعاد يتابع السيارة فى اهتمام ..
وفى غضب ..

* * *

أطلَّ مزيج من التوتر والفضول من عينى (هانز) ، وهو يتطلَّع إلى الفنّى الذى لوَّح بسبَّابته فى وجه (أدهم) ، وراح يهتف :
- لقد أطلق لحيته وشاربه ، ولكننى عرفته .
التفت إليه المدرِّب ، يسأله فى لهفة لم يحاول إخفاءها :
- من هو يا رجل ؟ ! .. من هو ؟
لوَّح الفنّى بسبَّابته فى وجه (أدهم) وكأنما غلبه الانفعال ، قبل أن يهتف :
- (أدولف زيلمان) .
بدا الإحباط وخيبة الأمل على وجه المدرِّب ، فى حين انعقد حاجبا (هانز) فى شدة ، وقد تصوَّر كلاهما أن الرجل سيكتفى بهذا الجواب ، الذى لا يضيف إليهما جديدًا ..
ولكن الفنى ازدرد لعابه ، ثم استطرد فى حماس :
- إنه أفضل طيار رأيته فى حياتى كلها .. أنا وهو كنا نعمل فى القاعدة الجوية السوفيتية ، فى (ألمانيا الشرقية) .
غمغم (هانز) فى دهشة :
- (ألمانيا الشرقية) ؟ !
وقال (أدهم) فى صرامة :
- كفى يا رجل .

ولكن الفنى تابع فى انفعال :
– ثم فرَّ ذات يوم إلى (سويسرا) فى أثناء زيارة رسمية ، ومنها إلى (ألمانيا الغربية) ، وهناك التحق بالعمل كطيَّار مدنى ، فى شركة (لوفتهانزا) ، التى التحقت بالعمل بها أنا أيضًا ، عندما نجحت فى الفرار إلى (برلين الغربية) .
التفت (هانز) إلى (أدهم) ، وانعقد حاجباه أكثر ، وهو يتمتم :
– طيار مدنى ؟!
بدا الغضب على وجه (أدهم) ، فى حين واصل الفنى حديثه بنفس الحماس :
– لم يحتمل هذا طويلاً ، وتشاجر ذات مرة مع رئيسه المباشر ، فلفق له اتهامًا بالسرقة ، وفصله من العمل .
قالها ، وهزَّ رأسه فى قوة ، قبل أن يبتسم ، هاتفًا فى حرارة :
– إنه لمن دواعى سعادتى أن ألتقى بك ثانية يا هر (زيلمان) .
كانت خدعة شديدة البراعة بالفعل ، من المخابرات المصرية ..
فظهور الفنى فى هذه اللحظة بالذات ، مع قصة متقنة ، يتظاهر (أدهم) بالغضب والحنق ، لأن الآخرين سمعوها ، كفيل بمنح شخصيته مصداقية مدهشة ، وإحاطته بثقة يصعب دحضها ..
وفى حدة ، هتف (أدهم) :

– أما أنا فيؤسفنى أن ألتقى بك يا رجل .. لماذا لم تسرد ما تبقى من قصة حياتى أيضًا .. ألم تصبح ملكًا للجميع ؟!
بدا الارتباك والحرج على وجه الفنى ، وهو يتمتم :
– هل أخطأت يا هر (زيلمان) ؟
التفت إليه (هانز) ، قائلاً فى سرعة :
– كلاً يا رجل .. لم تخطئ .. هيًا ، عد إلى موقعك ، واتركنا وحدنا .
ارتبك الفنى أكثر ، وغمغم :
– معذرة يا هر (زيلمان) .. معذرة .
وأسرع يبتعد فى سرعة ، فى حين التفت (هانز) إلى (أدهم) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :
– إذن فأنت طيَّار حربى .
قال (أدهم) فى حنق :
– لم أعد كذلك .. لقد انتهت تلك الحقبة .
هزَّ (هانز) رأسه ، وغمغم ، وهو يتأمَّل (أدهم) فى اهتمام :
– من يدرى ؟
التفت إليه (أدهم) بنظرة متسائلة ، فاتسعت ابتسامة (هانز) ومدَّ يده يصافحه ، وهو يقول فى حرارة :
– مرحبًا بك فى صفوفنا يا رجل .. الآن نلت وظيفتك بحق .. وبكل جدارة .
صافحه (أدهم) فى قوة ، وهو يبتسم ابتسامة حقيقية ، من أعمق أعماق نفسه .. فهذا القول يعنى أن خطة المخابرات المصرية قد نجحت فى هذه المرحلة ..

وبمنتهى البراعة ..
وربما يعنى أيضًا أن (أدهم) قد انتقل إلى مرحلة جديدة ..
مرحلة ترتفع فيها درجة الخطر إلى حد جديد ..
الحد الأقصى ..

* * *

« سيدتى .. إنها العاشرة .. »
همست الخادمة السويدية بتلك العبارة فى رقة ، فى أذن مخدومتها (أنجريد ديلمار) التى فتحت عينيها وتثاءبت فى تكاسل ، قبل أن تغمغم :
- العاشرة ؟!
أومأت الخادمة برأسها إيجابًا ، وابتسمت قائلة :
- طلبت منى أمس أن أوقظك فى هذا الموعد ، للحاق بالاجتماع فى الثانية عشرة .
هزَّت (أنجريد) رأسها موافقة ، وتثاءبت مرة أخرى قبل أن تنهض جالسة فى فراشها ..
لم تكن تشعر أبدًا أنها على ما يرام ، فى هذا الصباح ، فقد انتابها الأرق طويلاً فى الليلة السابقة ، وهى تفكِّر فى ذلك العرض ، الذى تحدَّث عنه (هال) أمس ..
ولم تشعر نحوه بالارتياح قط ..
(بيير) على حق بالتأكيد ..
لا ينبغى أبدًا أن تثق بالإسرائيليين ..
التاريخ كله يؤكِّد أنهم لا يتورعون عن سحق أقرب الناس إليهم ، إذا مالاحت لهم أدنى فائدة من وراء هذا .. ثم لماذا ترتبط شبكتهم بأى جهاز مخابرات ؟! ..

لقد أنشأوها خصيصًا كشبكة مستقلة ، تعمل على جمع المعلومات ، وبيعها لمن يدفع الثمن المناسب ..
أيًا كانت هويته ..
فلماذا يكسرون القاعدة هذه المرة ؟!
استغرقها التفكير ، حتى أحضرت لها خادمتها طعام الإفطار فى الفراش كالمعتاد ، وراحت ترتشف قدح القهوة فى شرود ، قبل أن تلتقط سماعة الهاتف ، وتتصل برفيقها (بيير توردال) ، ولم تكد تسمع صوته ، حتى قالت :
- صباح الخير يا (بيير) .. نعم .. أنا أستعد أيضًا لحضور الاجتماع ، ولكننى أردت التحدُّث معك قبلها .. (بيير) .. أنا أتفق معك تمامًا فى رفض التعامل مع الإسرائيليين .
كانت تتوقَّع منه التعبير عن ارتياحه لقرارها ، لذا فقد تفجَّرت الدهشة فى كل خلية من خلاياها ، عندما فوجئت به يقول :
- ولكننى لم أعد أتشبَّث بهذا الرأى يا عزيزتى .. (هال) زارنى أمس ، وقضى معى أربع ساعات كاملة حتى اقتنعت تمامًا بوجهة نظره .
هتفت ذاهلة :
- اقتنعت ؟! .. أنت ؟!
أجابها ، وصوته يحمل الكثير من الثقة والارتياح :
- نعم يا أميرتنا الفاتنة .. (هال) نجح فى إقناعى تمامًا .
ثم اكتسب صوته رنة حماس ، وهو يستطرد :
- هذا الرجل عبقرى بحق .. إنه يدرك تمامًا كل ما يمكن أن يفعله الإسرائيليون ، وكل ما يدور فى أذهانهم من خطط

لخداعنا ، ولمحاولة السيطرة على شبكتنا .. واستعد لكل هذا .. بل ودبَّر خطة عبقرية ، لنصبح نحن الرابحين فى النهاية .

هتفت مستنكرة :

- مع الإسرائيليين .

أجابها وحماسه يتزايد :

- إنهم أوغاد خبثاء ، رضعوا الدهاء مع لبن امهاتهم ، ولكنهم ليسوا آلهة .. وخطة (هال) مدهشة .. ستجعلهم يتصوَّرون انهم نجحوا فى خداعنا ، واننا لم ننتبه إلى هذا ، فى حين اننا نحن الذين نخدعهم .

سالته (انجريد) فى عصبية :

- (بيير) .. هل تعرف ما يسعى إليه الإسرائيليون بالضبط ؟

أجابها بسرعة :

- بالطبع .. التوصُّل إلى عميلنا فى المخابرات السوفيتية ، ودفعه للعمل لحسابهم ضد السوفيت .

قالت فى حدة :

- وربما ضدنا ايضًا .

أجابها (ثوردال) فى حماس :

- (هال) توقَّع هذا ، واتخذ كل ما يلزم لمنع حدوثه ، بحيث لن يتوصَّل الإسرائيليون لمعرفة عميلنا السوفيتى هذا قط ، ويظل اتصالهم به دائمًا من خلالنا وحدنا ، وهكذا نسيطر على مقاليد الامور باستمرار .

أدهشها قوله هذا بشدة ، فقالت محتدة :

- عجبًا ! .. لم تكن مقتنعًا أمس بالفكرة نفسها !

ضحك قائلاً :

- أمس يختلف عن اليوم يا أميرتى .

قالت فى حنق :

- هذا يبدو واضحًا .

وكادت تقطع شفتها السفلى بأسنانها فى غيظ ، وهى تستطرد :

- سانهض الآن لارتداء ثيابى ، وسنكمل مناقشة هذا الأمر فى الاجتماع .

أجابها فى شىء من المرح :

- بالتاكيد .. سانتظرك بشغف يا أميرتى ، فلا ريب عندى فى انك ستكونين فاتنة كالمعتاد ، فى مكان كهذا .

انعقد حاجباها ، وهى تسأله :

- ماذا تقصد بمكان كهذا ؟ ! .. ألن نلتقى فى الشركة كالمعتاد ؟ !

فوجئت بصوت هادئ يجيب من داخل الحجرة :

- كلا .. لن نلتقى فى الشركة .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تدير عينيها إلى مصدر الصوت ، وارتفع حاجباها فى دهشة مستنكرة ، وهى تحدِّق فى وجه (هال) ، الذى ارتكن إلى الجدار المجاور لباب حجرة نومها ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

- لقد اخترت مكانًا مبتكرًا هذه المرة .

أعادت سمَّاعة الهاتف إلى موضعها بحركة حادة ، وهى تهتف فى غضب :

- (هال) ؟ ! كيف تدخل حجرة نومى بلا استئذان ؟ !

غمز بعينه ، قائلاً :
- لم أستطع مقاومة رؤيتك دون زينة .. هل تعلمين أنك أكثر فتنة هكذا ؟
صرخت فى وجهه :
اخرج الآن .. الآن .
لوّح بيده ، وهو يغادر الحجرة ، قائلاً بنفس الابتسامة الكبيرة :
- سأنتظرك على شوق يا أميرتى .. لا تتأخرى طويلاً .
أغلق الباب خلفه ، وهى تصرخ فى غضب هادر :
- أيها الوغد .
تسللت السخرية إلى شفتيه ، وهو يتمتم :
- يا إلهى ! .. إنها تبدو بشعة بدون زينتها .
طال انتظاره لساعة كاملة ، فى حجرة الانتظار ، قبل أن تطلّ عليه (أنجريد) بكامل زينتها ، وهى تقول فى حدة :
- هل أتيت لإقناعى بالصفقة الإسرائيلية ؟
رفع حاجبيه بدهشة مصطنعة ، وهو يقول :
- إقناعك ؟ ! .. عجبًا ! .. ألم تقتنعى بعد يا عزيزتى ؟ ! .. لقد زرت (بيير) و (هانز) أمس ، واقتنعا تمامًا ، حتى أن الأخير اقترح أن نحتفل بتوقيع عقد الصفقة ، فاخترت أنا منزلى الجبلى للاجتماع والاحتفال معًا .
قالت فى عصبية :
- كيف يمكننا الوصول إلى منزلك الجبلى أيها العبقرى ؟! .. الجليد سيغلق كل الطرق الجبلية حتمًا :
لوّح بكفه ، قائلاً فى مرح :

- ومن يحتاج إلى الطرق الجبلية ؟
ثم غمز بعينه ، مستطردًا :
- (هانز) اختار طيّارًا جديدًا بالفعل ، ومازال مهبط الطائرات يجاور منزلى الجبلى . أم أنك نسيت هذا ؟
نطق عبارته الأخيرة فى خبث شديد ، فانعقد حاجباها فى غضب ، وقالت فى حدة :
- إياك أن تشير إلى هذا ثانية .
أحاط كتفها بذراعه هامسًا بصوت أشبه بفحيح الثعبان :
- ولكننى لا أنساه أبدًا يا عزيزتى .
ضربته بمرفقيها فى صدره بعنف ، فتأوّه بألم ، وهو يبتعد عنها ، وسمعها تقول فى عصبية :
- والآن ماذا لديك لتقوله ؟
سعل لحظة ، ثم أجاب :
- نفس ما قلته لـ (بيير) و (هانز) .
قالت فى صرامة :
- لن يفلح هذا معى .
ابتسم فى ثقة قائلاً :
- اسمعى ما لدىّ أولاً ..
ولنصف ساعة أخرى ، راح يلقى على مسامعها كل ما لديه .
والعجيب أنه أثبت براعته كمحام بحق ..
فعندما غادر منزلها معًا ، كانت (أنجريد ديلمار) قد اقتنعت بالصفقة الإسرائيلية الجديدة ..
اقتنعت تمامًا ..

* * *

بدت الدهشة على وجه مساعد الطيَّار ، داخل الطائرة الخاصة ، لزعماء الشبكة الاسكندنافية ، وهو يتابع (أدهم) ببصره قبل أن يغمغم :

- أعتقد أنك تبالغ قليلاً يا كابتن (زيلمان) ، فالتأكُد من سلامة المقاعد ووسائل الراحة ، ليس ضمن واجبات وظيفتنا .. مهمتنا هى قيادة الطائرة فحسب .

تجاهله (أدهم) بضع لحظات ، وهو يثبت قرص الاستماع جيدًا ، أسفل أحد مقاعد الطائرة ، قبل أن يعتدل قائلاً فى صرامة :

الطيَّار الحق يتأكَّد من صلاحية كل شبر من طائرته ، قبل أن يقلع بها للمرة الأولى .

تنهَّد مساعد الطيَّار ، وهو يتمتم :

- إذن فهذا يحدث فى المرة الأولى وحدها .. حمدًا لله .

عاد (أدهم) إلى مقعد القيادة ، وراح يراجع الآلات ، والمؤشرات أمامه ، ومساعده يراقبه فى اهتمام ، ثم لم يلبث أن قال مبتسمًا :

- يقولون إنك طيَّار حربى سابق .

مطَّ (أدهم) شفتيه قائلاً .

- هل يحتاج الأمر إلى كاتم للصوت ؛ لمنع تسرُّب الأسرار هنا ؟!

هزَّ مساعده كتفيه ، قائلاً :

- بعض الأمور لا يمكن إخفاؤها .

ثم مدَّ يده إليه ليصافحه ، مستطردًا :

- أصدقائى يخاطبوننى باسم (فريدى) .. وهذا اختصار (فريدريك) .

صافحه (أدهم) فى لامبالاة ، قائلاً فى شىء من الخشونة :

- أفضِّل اسم (فريدريك) .

بدت الدهشة على وجه الرجل ، وهمَّ بقول شىء ما ، عندما أشار (أدهم) إلى سيارة تقترب ، وقال بلهجة تغلب عليها السخرية :

- لقد وصل السادة .

التفت (فريدريك) إلى سيارة سوداء كبيرة ، قطعت ممر الإقلاع ، حتى توقَّفت أمام الطائرة ، وهبط منها الرجال الثلاثة مع (أنجريد) ، وبدءوا يصعدون إلى الطائرة ، وقال (هانز) مبتسمًا :

- كيف حالك يا (زيلمان) ؟ .. هل راقت لك الطائرة ؟

مطَّ (أدهم) شفتيه ، وهو يجيب :

- لا بأس بها .

هتفت (أنجريد) فى دهشة مستنكرة :

- لا بأس بها ؟! .. ماذا يقول هذا الوغد ؟!

ابتسم (هانز) ، قائلاً :

- إنه طيار حربى سابق ، ومن الطبيعى الا تروقه طائرة بسيطة كهذه .

قالت فى حدة ، وهى تربط حزام مقعدها :

- وما المطلوب منا ؟! .. أن نحاول استرضاءه ؟!

ضحك الثلاثة لقولها ، ثم ضغط (هانز) زرًا ، فبرز من قاع الطائرة حاجز من زجاج سميك ، فصل كابينة القيادة تمامًا عن منطقة الركَّاب ، واسترخى فى مقعده ، وهو يقول :

- الطقس رائع اليوم يا رفاق .. اعتقد أن هذه الرحلة القصيرة ستفيدنا كثيرًا .

اقلعت الطائرة فى نعومة مدهشة ، كشفَ عنها قائدها وحنكته ، فى نفس اللحظة التى علّق فيها (ثوردال) ، قائلاً :

- كان ينبغى أن يشاركنا (شالوم) إياها ، مادمنا قد اتفقنا جميعًا على قبول صفقته .

ابتسم (هال) .. وهو يقول :

- اطمئن .. سيلتقى بنا هناك .

هتفت (انجريد) فى دهشة :

- كيف ؟!

هزَّ (هال) كتفيه ، قائلاً :

- لست أدرى .. لقد ألقيت عليه السؤال ذاته ، فأجاب بأن لديه وسائله .

ابتسم (ثوردال) فى سخرية ، قائلاً :

- أراهنكم على أنه سيصل إلى المنزل بوسيلة تكفى لإبهارنا .. إنها وسيلتهم دائمًا لإثبات القوة .

غمغمت (انجريد) :

- هل تعتقد هذا ؟!

كانوا يتبادلون الحديث فى حرية ، حول الصفقة الإسرائيلية ، معتمدين على ذلك الحاجز السميك الذى يفصلهم عن كابينة القيادة ، دون أن يتخيَّل أحدهم لحظة أن سمَّاعات الأذن ، التى يضعها (أدهم) على أذنيه ، لم تكن تنقل إليه تعليمات برج المطار فحسب ، وإنما تنقل إليه أيضًا كل ما يدور بينهم ، من خلال قرص الاستماع ، الذى ثبته أسفل أحد المقاعد ..

وكان حديثهم بالغ الأهمية بالنسبة إليه بحق ..

لقد تأكد من خلاله من أنهم قد عادوا إلى نشاطهم السابق بالفعل ، فى عالم الجاسوسية ..

وأنهم يعقدون صفقة مع الإسرائيليين ، بشأن المخابرات السوفيتية ..

بل والأخطر أنه عرف أن لهم عميلاً فى صفوف المخابرات السوفيتية .

وأنه عميل قوى بالفعل ..

ومع تدفُّق المعلومات إلى أذنيه ، شعر (أدهم) بالأسف لأن الرحلة قصيرة للغاية ، ولن تستغرق أكثر من نصف الساعة ، مضت بسرعة البرق ، ولاح المنزل الجبلى ، الذى تحيط به أشجار السرو من كل جانب ، ويمتدّ على مسافة منه ممر هبوط ، معدّ خصيصًا للطائرة الخاصة ..

وكما ينبغى أن يفعل الطيَّار ، ضغط (أدهم) زرّ جهاز الاتصال الداخلى ، وقال فى لهجة جافة :

- وصلنا إلى وجهتنا .. سيتمّ الهبوط بعد دقائق معدودة .

قالها ، وهو يدور حول المكان ، ثم يبدأ فى الهبوط نحو الممر ، الذى تناثرت فوقه بعض قطع الجليد ، التى لم تنجح فى إخفائه تمامًا ، مما يوحى بأنه هناك من يتولَّى أمره بصفة منتظمة ..

وفى هدوء ، اقترب (أدهم) بالطائرة من ممر الهبوط ، و ...

وفجأة ، انطلقت تلك الرصاصة ..

رصاصة مجهولة ، أصابت الإطار الأمامى المنفرد للطائرة ، فانفجر بدوى عنيف ، وصرخت (انجريد) فى رعب :

- ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟ !

هتف (هال) فى ارتياع :

- إنه أحد الإطارات .. لقد انفجر .

تشبَّث (ثوردال) بمقعده فى رعب ، وصرخت (انجريد) ثانية ، فى حين انعقد حاجبا (هانز) فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

فبحكم خبراته السابقة كطيار ، كان يدرك جيدًا أنه فى هذا الارتفاع ، ومع حركة الطائرة ، لم يعد التراجع عن الهبوط ممكنًا ..

وأن انفجار أحد إطارات الطائرة ، فى تلك المرحلة بالتحديد ، لا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد ..

الارتطام بالممر فى عنف ، وفقدان الطائرة لتوازنها ، و ...

والموت ..

الموت بلا رحمة .

* * *

٤ - هبوط ..

لم يكن التراجع عن الهبوط ممكنًا بحق فى هذه المرحلة ..

لقد اقتربت الطائرة كثيرًا من ممر الهبوط ، وارتفعت مقدِّمتها بالفعل استعدادًا لتلامس إطاريها الخلفيين مع الأرض ..

ومن الواضح أن ذلك الذى أطلق النار ، وأصاب الإطار الأمامى ، يعرف الكثير عن مراحل هبوط الطائرات ..

وعن عواقب نسف الإطار ، فى هذه اللحظة بالتحديد ..

وبكل ذعر الدنيا ، صرخ (فريدريك) ، وهو يحدِّق فى الممرّ ، الذى يقترب فى سرعة مخيفة :

- لن نفلح .. لم يمكننا تفادى الارتطام .

ومع آخر حروف كلماته ، انطلقت الرصاصات مرة أخرى نحو جسم الطائرة ، واخترقته فى عدد من المواضع ، فصرخت (انجريد) ثانية ، وانثنى جسدها ، فى محاولة منها لدفن وجهها بين ركبتيها ، فى حين صاح (ثوردال) :

- إنه هجوم .. بعضهم يحاول التخلص منا .

امتقع وجه (هال) ، وهو يهتف فى ارتياع :

- ولكن لماذا .. لماذا ؟ !

أما (هانز) فعلى الرغم من دقة الموقف وخطورته ، انحصر تفكيره فى نقطة واحدة مثيرة ..

كيف يمكن أن يتصرَّف الطيَّار الجديد فى موقف هكذا ؟ ! ..

خبرته تؤكد أن النجاة من هذا الموقف أمر عسير للغاية ..

ولكنه ليس مستحيلاً ..

وفى نفس اللحظة ، التى دارت فيها هذه الفكرة فى رأسه ، انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وجذب إليه عجلة القيادة ، و (فريدريك) يواصل صراخه :

- مستحيل ! .. مستحيل .

ارتفعت مقدّمة الطائرة أكثر ، فاندفع إطاراها الخلفيان نحو ممر الهبوط ، واحتكّا به بالفعل ، ولكن (أدهم) زاد من سرعة الطائرة ، وقلب جناحيها ، وغيّر مقياس توازنها ، وكأنه يستعد للإقلاع وليس للهبوط ..

ولستة أمتار كاملة ، انطلقت الطائرة فوق الممر ، على إطاريها الخلفيين فحسب ، دون أن تنخفض مقدّمتها ، وصرخات (انجريد) لا تنقطع لحظة واحدة ، و (فريدريك) يصرخ مرتاعًا :

- ماذا تفعل ؟! .. ماذا تفعل بالله عليك ؟!

لم يجب (أدهم) السؤال قط ، وهو يدفع عجلة القيادة إلى الأمام فى بطء مدروس ، ويزيد السرعة أكثر وأكثر ..

وارتفع الإطاران الخلفيان ثانية عن الأرض ، وبدأت الطائرة تعلو ، وكأنها تُقلع بالفعل ..

وفى انبهار تام ، اتسعت عينا (فريدريك) ، وغمغم :

- مستحيل !

أما (هانز) فقد تألّقت عيناه فى إعجاب حقيقى ، والطائرة تقلع ثانية دون أن يلمس إطارها الأمامى الأرض لحظة واحدة ، وهتفت (أنجريد) :

- هل .. هل نجونا ؟!

اعتدل (ثوردال) ، وهو يغمغم مبهوتًا :

- أعتقد هذا ..

وفى حماس ولّده الانفعال ، لوّح (هال) بقبضته ، هاتفًا :

- هذا الطيّار الجديد رائع .

وضغط زرّ إزالة الحاجز ، الذى يفصلهم عن كابينة القيادة ، وهو يستطرد :

- سأمنحك مكافأة خاصة يا (زيلمان) عندما ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

- الزم مقعدك يا سيّد (هال) .. الخطر لم يزل بعد .

امتقع وجه (أنجريد) ثانية ، وهى تمتم مذعورة :

- لم يزل بعد .. لماذا ؟ .. دعنا نبتعد عن هنا بأقصى سرعة ، ولنعد أدراجنا إلى (هلسنكى) !

أجابها (أدهم) بلهجة جافة :

- لم يعد هذا ممكنًا .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وحبس الرعب الكلمات فى حلقها ، فى حين انعقد حاجبا (هانز) فى شدة ، وهو يسأل :

- لماذا ؟ .. هل أصيبت البوصلة (*) ؟

أجابه (أدهم) :

- بل أصيب خزان الوقود ، وخسرنا أكثر من نصفه حتى الآن .

صرخت (أنجريد) :

- نصفه ؟! .. رباه ! .. هل سنسقط وسط الجبال ؟

(*) البوصلة : جهاز عتيق ، يستخدم لتحديد الاتجاه ، وهى - من حيث المبدأ - إبرة مغناطيسية معلّقة ، تتحاذى مع المجال المغناطيسى المحيط بالكرة الأرضية ، أى أنها تشير إلى القطبين المغناطيسيين ، وهذان القطبان لا ينطبقان على القطبين الجغرافيين ..

اجابها (ادهم) فى صرامة ، وهو يدور بالطائرة :
- إننا نبذل قصارى جهدنا لتفادى هذا يا سيِّدتى ، ولكن لابد وان نجد مكانًا صالحًا للهبوط .
اتسعت عينا (ثوردال) ، وعاد يغوص فى مقعده ، ويتشبَّث به فى قوة ، فى حين اطلقت (انجريد) شهقة قوية ، وصرخت فى رعب :
- لا أريد أن أموت الآن .. لا أريد أن أموت الآن .
وامتقع وجه (هال) بشدة ، وهو يتمتم :
- لا .. مستحيل ! .. مستحيل !
وعقد (هانز) حاجبيه فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة كعادته ..
اما (فريدريك) ، فقد تعلَّقت عيناه بمقياس الوقود ، الذى يشير إلى انخفاض المخزون بسرعة مخيفة ، وسال (ادهم) فى شحوب :
- ماذا نفعل يا كابتن ؟! .. لا يوجد مكان واحد فى الجوار صالح للهبوط .. كلها منحدرات مغطاة بالجليد ، وساحات لممارسة رياضة التزلُّج .
التقى حاجبا (ادهم) اكثر ، وهو يفحص المنطقة كلها ببصره ، قبل أن ينحرف بالطائرة بغتة ، قائلاً فى حزم :
- فليكن .. القول المأثور يقول : إن لم تجد ما تحب ، فاحب ما تجد .
ساله (فريدريك) فى دهشة :
- ماذا تعنى ؟!
لم يجب (ادهم) هذه المرة أيضًا ، ولكنه بدأ مرحلة الهبوط

بالفعل ، متجهًا نحو المنحدرات المغطاة بالجليد ، فصرخت (انجريد) :
- ماذا يفعل هذا المجنون ؟! ماذا يفعل ؟!
وعلى الرغم من صراخها ، واصل (ادهم) هبوطه ، وعينا (فريدريك) تتسعان فى رعب اكثر و اكثر ، وهو يغمغم :
- لا يوجد شبر واحد مستقيم .. كلها منحدرات يا كابتن .. لا يوجد شبر واحد صالح للهبوط .
تجاهل (ادهم) كل ما يحدث حوله ، وواصل هبوطه نحو المنحدر الجليدى ، المعدّ لرياضة التزلُّج ، فاحتبست انفاس الجميع فى رعب هائل ، وتعلَّقت عيونهم بالنوافذ ، التى تنقل إليهم مشهد الجليد الأبيض الممتدّ إلى مالا نهاية ، والذى يقترب بسرعة مخيفة ، و ..
ولامس الإطاران الخلفيان الجليد ..
وواصلت الطائرة هبوطها ..
وانخفضت مقدِّمتها ..
انخفضت اكثر مما ينبغى ، لتلامس المنحدر ..
وصرخت (انجريد) فى عنف ، مع تلك الارتجاجة التى صاحبت لحظة التلامس ، ثم تحوَّلت صرختها إلى ما يشبه النواح ، عندما بدات الطائرة انزلاقها فوق المنحدر بسرعة كبيرة ..
وبكل الرعب فى أعماقه ، صرخ (ثوردال) :
- ماذا تفعل بنا أيها المجنون ؟
ومرة اخرى ، تجاهل (ادهم) ما حوله ، وركَّز تفكيره كله فى السيطرة على الطائرة ، التى واصلت انزلاقها السريع ، كما لو كانت زلاجة ضخمة ، و (فريدريك) يهتف مذعورًا :



ومرة أخرى تجاهل (أدهم) ما حوله
وركز تفكيره كله فى السيطرة على الطائرة .

- وماذا بعد ؟! .. ستواصل انطلاقها حتى ترتطم بالأشجار .

أجابه (أدهم) فى حزم :

- لن نصل إلى الأشجار .

سأله فى توتر شديد :

- كيف ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يمسك عجلة القيادة فى قوة :

- هذا المنحدر ينتهى ببحيرة كبيرة ، يتجمَّد سطحها فى المعتاد ، فى هذه الفترة من السنة ، وسنصل إليها قبل أن نبلغ منطقة الأشجار .

انتفض جسد (فريدريك) ، وهو يهتف :

- نصل إليها ؟! .. هل تعتقد أن هذا كاف لإنقاذنا ؟! .. أنت واهم يا رجل .. بالسرعة التى ننطلق بها ، سنرتطم بسطح البحيرة ، ونحطِّمه ، ونغوص فى أعماق المياه المثلجة ، حتى نلقى حتفنا .

قال (أدهم) فى صرامة :

- لن يحدث هذا .

هتف (فريدريك) :

- وكيف ؟! .. أنا واثق من أن ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة أكثر :

- اصمت يا رجل .. لا وقت لدىَّ لمحاورتك .. اصمت .

ابتلع (فريدريك) لسانه فى توتر ، وراقب الموقف فى ذعر ، والطائرة تواصل انزلاقها المخيف فوق الجليد ، حتى لاحت البحيرة من بعيد ، فحبس (فريدريك) أنفاسه ، وراح قلبه يخفق فى عنف شديد ، فى حين ازداد انعقاد حاجبى (أدهم) ،

وتمتمت شفتاه بهمسات غير مسموعة ، ويده تتجه نحو أحد الأزرار فى لوحة القيادة ، و ...

وفى اللحظة المناسبة بالضبط ، ضغط (أدهم) الزر ..

وانطلقت من مؤخرة الطائرة مظلات الطوارئ (*) ..

كلها ..

ومع انطلاقها ، نشأت مقاومة مباغتة للهواء ..

وانخفضت سرعة الطائرة ..

انخفضت فى نفس لحظة انتقالها ، من المنحدر الجليدى ، إلى سطح البحيرة المتجمِّد المستقيم ..

وارتجَّت الطائرة فى عنف ، عندما لامس إطارها الأمامى المنفجر سطح الجليد ، وتشقَّق جزء من السطح المتجمِّد أسفلها ، إلا أنه لم ينهر ، فواصلت طريقها بسرعتها الجديدة فوق البحيرة ، وأدار (أدهم) عجلة قيادتها فى بطء وحذر ، وهو يجذب فراملها فى رفق مدروس ..

واتسعت عينا (فريدريك) فى رعب ، وصرخت (انجريد) ثانية ، والطائرة تتخذ مسارًا منحنيًا ، منزلقة نحو نهاية البحيرة ، حيث منطقة الأشجار المرتفعة ، التى راحت تقترب ، وتقترب ، وتقترب .

ثم تجاوزت الطائرة سطح البحيرة ..

تجاوزته متجهة نحو الأشجار العالية المتقاربة ، وارتطم جناحاها بشجرتين متجاورتين ، وجسمها يعبر بينهما ، فتحطَّم

(*) فى بعض أنواع الطائرات ، يتم تزويد جهاز الطوارئ بعدد من المظلات التى تفتح عند الاحتياج إليها لتخفيف سرعة الطائرة على ممر الهبوط ، إذا ما دعت الحاجة لهذا ، وعلى الطيار أن يطلق العدد المناسب من هذه المظلات وفقًا لتقديره .

الجناحان فى عنف ، وتطايرت شظاياهما فى كل مكان ، فى حين مالت المقدِّمة ، وارتجَّت الطائرة فى قوة ، ثم مالت قليلاً ، و ...

وتوقَّفت ..

ولثوان ، ران على الطائرة كلها صمت رهيب ، قبل أن يقطعه (أدهم) وهو يقول فى هدوء تشوبه لكنة ساخرة :

- محطة الوصول أيها السادة .. نشكركم على ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين .

هتفت (انجريد) :

- هل .. هل نجونا ؟

صرخ (هال) :

- بالتأكيد .. الم اقل لكم إن هذا الطيَّار الجديد رائع ؟

غمغم (فريدريك) ، وهو يطلق زفرة متوترة :

- بل هى معجزة .

ارتسمت على شفتى (أدهم) ابتسامة ساخرة ، وهم يحيطون به ، ويهنئونه ببراعته فى الهبوط ، ويمتدحونه لإنقاذ حياتهم ، وعقله يحمل فكرة لا يمكن أن تخطر ببال أحدهم قط ..

فكرة تقول : إن هذه كانت أصعب مراحل الخطة ..

أصعبها على الإطلاق ..

* * *

تحرَّك مدير المخابرات المصرية فى مكتبه بتوتر شديد ، وهو يفرك كفيه فى عصبية ، ووقف يتطلَّع لحظة إلى فناء من افنية مبنى المخابرات ، فى (حدائق القبة) ، وعقله يحمل الف سؤال وسؤال ، حتى ارتفع صوت مدير مكتبه ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول :

- اخبار جديدة من (هلسنكى) يا سيِّدى .
اندفع المدير نحو جهاز الاتصال ، وضغط زره قائلاً :
- إلىَّ بها بسرعة يا رجل .
عبر الرجل الباب الذى يفصلهما ، وقدَّم له تقريرًا مطبوعًا ، وهو يقول بابتسامة ارتياح :
- عملية الهبوط تمت بسلام ، والجميع عادوا إلى الفيلا ، التى يقيم فيها (هال) ، ومنحوا سيادة العقيد (أدهم) مكافأة مالية ضخمة .
قرأ المدير التقرير فى لهفة ، ثم تنهَّد فى ارتياح ، قائلاً :
- حمدًا لله .. كانت أصعب جزء من الخطة .
قال الرجل :
- وتنطوى على مخاطرة كبيرة !
أومأ المدير برأسه موافقًا ، وعاد إلى خلف مكتبه ، وهو يقول :
- كل جزء من عملنا ينطوى على مخاطرة كبيرة .
قال مدير مكتبه مبهورًا :
- ولكن هذا العمل بالذات كان ينطوى على مخاطر شتى .. إطلاق النار على إطار الطائرة ، وخزان وقودها ، والاعتماد تمامًا على مهارة سيادة العقيد (أدهم) ، وقدرته على التعامل مع الطوارئ .. ألا يبدو هذا مبالغًا إلى حد ما ؟
ابتسم المدير قائلاً :
- هذا ما ينبغى أن يكون بالضبط .. خطتنا الرئيسية كانت تعتمد على فعل هذا فى مكان آخر ، ولكن (ن - ١) ، أبلغنا فى الصباح أنهم سيتجهون إلى منزل (هال) الجبلى ، وطلب

تعديل الخطة ، بحيث يحدث الهجوم الوهمى هناك ، فهذا كفيل بمحو أية ذرة من الشك فى أمره ، وإلقاء طن من الثقة به فى قلوبهم ، وخاصة بعد أن ينقذ حياتهم .
سأله الرجل :
- ماذا لو أنه فشل فى هذا ؟
تنهد المدير ، قائلاً :
- كانت ستصبح خسارة فادحة بحق .
ثم عاد يبتسم ، مستطردًا :
- ولكن مع رجل مثل (ن - ١) ترتفع احتمالات النجاح لتفوق كثيرًا احتمالات الفشل .. ثم إن أحدًا من رجال الشبكة الاسكندنافية ، أو حتى من الإسرائيليين ، لا يمكنه أن يشكَّ لحظة واحدة فى أمر (أدهم) ، أو فى أن ما حدث مجرَّد خطة مفتعلة ، فبالوسيلة التى تم بها الأمر ، لا يمكن إلا أن يجزموا بأن (أدهم) قد أنقذ حياتهم بالفعل ، وسيدينون له بالفضل لفترة طويلة .
علَّق الرجل ، قائلاً :
- لا أعتقد أنها ستكون طويلة ، مادام سيادة العقيد خلفهم .
تنهَّد المدير ، وشرد بصره قليلاً ، وهو يقول :
- أتعشم هذا يا رجل ، فاعتبارًا من هذه اللحظة تنقطع صلتنا عمليًا بـ (ن - ١) وتبدأ مرحلة الارتجال .
وصمت لحظة ، ثم أضاف فى قلق واضح :
- ومرحلة الخطر الحقيقى .
قالها وعاد يلتقط التقرير المطبوع ، والقلق فى أعماقه يتضاعف .. ويتضاعف .. ويتضاعف ..

* * *

انعقد حاجبا الإسرائيلى (مائير شالوم) بشدة ، وهو يستمع إلى (هال) ، الذى راح يروى له فى حماس حادث المنزل الريفى ، وكيف نجح الطيَّار الجديد فى الهبوط ، وفى إنقاذ حياتهم بمعجزة ، ولم يكد (هال) ينتهى من روايته ، حتى ساله (شالوم) فى اهتمام :

- كيف يبدو هذا الطيَّار الجديد ؟ .. ومن أين أتى ؟

أشار (هال) بذراعيه وهو يقول :

- إنه طويل ، عريض المنكبين .. أشقر الشعر .. كث اللحية والشارب ، له عينان زرقاوان ، وهو ألمانى الجنسية ، اسمه (أدولف زيلمان) ، كان يعمل فى السابق فى شركة (لوفتهانزا) ، ثم فصلوه من العمل .

كرَّر (شالوم) :

- (أدولف زيلمان) .. ألمانى .. شركة (لوفتهانزا) .. عظيم .

تطلَّع إليه (هال) لحظة فى دهشة ، قبل أن يساله :

- ماذا دهاك يا (شالوم) ؟ .. تشكّ فى هذا الرجل الذى أنقذ حياتنا ؟!

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (شالوم) وهو يقول :

- لقد أنقذ حياتكم ، ولم ينقذ حياتى أنا .

هزَّ (هال) رأسه فى بطء ، وهو يغمغم :

- يا لك من ذئب حذر !

أجابه (شالوم) :

- الحذر هو الذى أبقى على حياتى ، حتى بلغت هذا العمر يا رجل .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ولكن دعنا من طياركم الجديد هذا ، وبراعته المذهلة ، وأخبرنى .. هل انحسم أمر الصفقة .

أجابه (هال) فى حماس :

- بالطبع .. أخبرتك أننى قادر على إقناع الجميع .

ابتسم (شالوم) ابتسامة باردة ، وهو يقول :

- عظيم .. متى يمكننا بدء التعاون إذن ؟

أجابه بسرعة :

- فورًا لو أردت .

تراجع (شالوم) وأطلَّ من عينيه بريق أشبه بذئب حقيقى ، وهو يسال :

- أتعنى أنه بإمكاننا الاتصال بعميلكم السوفيتى على الفور ؟

قهقه (هال) قبل أن يلوِّح بيده قائلاً :

- ألا تملّ أبدًا يا (شالوم) ؟! .. أخبرتك من قبل أن الاتصال بعميلنا السوفيتى لن يتم إلا من خلالنا .

ومال نحوه مستطردًا :

- ثم إنكم لم تدفعوا المبلغ المتفق عليه بعد .

التقط (شالوم) نفسًا عميقًا ، ورمقه بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :

- لست أظنكم تتوقعون الحصول على المبلغ كله فورًا .

بدا الغضب على وجه (هال) ، وهو يقول :

- ماذا تعنى ! .. ألم نتفق على ...

قاطعه (شالوم) بسرعة :

- ستحصلون على المبلغ كاملاً فى النهاية بالطبع .. وأعنى الملايين الثمانية كلها ، ولكن ..

توقَّف عند هذا الحد ، وعاد يتطلَّع إلى وجه (هال) ، الذى ساله فى عصبية :

- ولكن ماذا ؟ !

ابتسم (شالوم) قائلاً :

- إننا يهود يا عزيزى (هال) ، وطبيعتنا تمنعنا من دفع سنت واحد ، قبل أن نتيقَّن من أنه سيتجه إلى هدفه .

قال (هال) بعصبية أكثر :

- هل لك أن توضِّح ما ترمى إليه ؟

أومأ (شالوم) برأسه مرتين ، قبل أن يتطلع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

- نريد عينة أولاً يا (هال) .. شىء يوضح أسلوب التعامل وفاعليته .

التقى حاجبا (هال) ، وهو يقول :

- مثل ماذا ؟ !

هزَّ كتفيه ، مجيبًا :

- بعض المعلومات من المخابرات السوفيتية مثلاً .

هتف به (هال) :

هل تمزح ، أم ماذا ؟

عاد (شالوم) يهزّ كتفيه ، قائلاً :

- مطلقًا .. هذا يحدث فى كل الصفقات ، فى العالم أجمع .. نريد أن نطَّلع أولاً على كفاءة وجودة ما لديكم ، ثم ندفع المطلوب دون مناقشة .

أشار إليه (هال) ، وهو يقول فى حدة :

- اسمع يا رجل .. لو تصوَّرتم أننا سنمنحكم بعض المعلومات المجانية ، فانتم ..

قاطعه (شالوم) بسرعة :

- ومن تحدَّث عن معلومات مجانية ؟ ! .. إننا سنمنحكم مليونى دولار فى البداية ، ثم تحصلون على الباقى بعد مراجعة المعلومات ، التى سيحضرها عميلكم السوفيتى .

تطلَّع إليه (هال) لحظة فى شك ، ثم ساله فى عصبية :

- مليونا دولار للشبكة ، أم ..

لم يتمّ عبارته ، ولكن (هال) فهم ما يرمى إليه ، فابتسم فى خبث ، وهو يجيب :

- سندفع ثلاثة ملايين بالطبع .. مليونين للشبكة ، والثالث سنودعه فى حسابك الخاص فى (سويسرا) .

هزَّ (هال) رأسه ، قبل أن يغمغم :

- آه .. هذا أفضل بالتأكيد ..

ثم عاد يشير إليه مستطردًا فى صرامة :

- ولكن عليكم أن تعلموا جيدًا أننا لن نقبل أية شروط أخرى .

ابتسم (شالوم) مغمغمًا :

- بالتأكيد .

ثم أشار بيده ، مضيفًا :

- هل تحصل على الشيكين الآن ؟

تألَّقت عينا (هال) ، وهو يجيب :

- بالطبع .. بالطبع .

استغرق الأمر نصف ساعة أخرى ، لحسم الأمور المالية ، ثم انصرف (هال) حاملاً الشيكين ، ومطَّ (شالوم) شفتيه ، متمتمًا :

- جشع .. جشع وغبى .

ثم لوَّح بيده على نحو خاص ، فبرز أحد رجاله من الحجرة المجاورة ، وقال له (شالوم) :

- ذلك الطيَّار الجديد (أدولف زيلمان) .. أريد منك أن تجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنه .

سأله الرجل فى اهتمام :

- هل تشكَّ فى أمره يا سيِّدى ؟

أومأ (شالوم) برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالتأكيد .. قلائل هم من يمتلكون مثل مهارته التى يتحدثون عنها ، ثم إنه ألمانى ، ونحن نشك فى كل ألمانى ، منذ (هتلر)(*) ، وظهوره المفاجئ فى عالم الشبكة الاسكندنافية يثير قلقى .

قال الرجل فى سرعة :

- إنه لم يظهر فجأة يا سيِّدى .. لقد أعلن السيِّد (هانز جوردان) عن اختبار للطيران وللطيارين الجدد ، و ...

قاطعه (شالوم) :

- أعلم هذا يا رجل .. أعلم أن كل شىء مناسب ومنطقى تمامًا ، ويسير على نسق لا يمكن أن يتطرَّق إليه الشك ، ولكننى كرجل

(*) عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ، اعتقل (أدولف هتلر) آلاف اليهود ، لاقتناعه بأن جشعهم واستغلالهم كان السبب الرئيسى لهزيمة (ألمانيا) ، فى الحرب العالمية الأولى .

مخابرات قديم ، اعتدت أن أشك فى أصابعى ، لو أنها انتظمت على نحو شديد الدقة ، فخبراتى علمتنى أن الحياة الطبيعية تحوى فى المعتاد بعض الأخطاء البشرية ، أو القصور الآدمى ، حتى أننى لم أتوقَّع منها العكس قط .

قالها ، وصمت لحظة ، ثم انعقد حاجباه ، وهو يتابع :

- ثم إن وقوع حادث عارض للطيَّار السابق ، وإصابته بكسر فى ساقه ، واضطرار (هانز) للبحث عن طيَّار آخر ، فى هذا التوقيت بالذات ، كلها بدأت تثير فى نفسى الشكوك .

وشرد لحظة ، ثم أضاف :

- وعندما تشتعل نيران الشك فى أعماقى ، لا توجد وسيلة لإطفائها سوى المعلومات .. المعلومات والحقيقة .. الحقيقة وحدها .

وعندما نطق عبارته الأخيرة ، كان بالفعل يشبه الذئب .. الذئب المفترس .

* * *

٥ - الخطوة التالية ..

مطَّ (ثوردال) شفتيه ، وهو يجلس حول مائدة الاجتماعات فى مبنى الشركة ، ولوَّح بيده ، قائلاً :

- كلاَّ يا (هانز) .. هذه الخطوة تبدو لى متسرِّعة للغاية .. لا يمكنك أن تعرض على ذلك الطيَّار الانضمام إلينا صراحة ، لمجرَّد أنه أنقذ حياتنا .. هذا أمر وذاك أمر آخر تمامًا .. إنه بارع فى قيادة الطائرة ، وكلنا نشهد له بهذا ، ولقد منحناه مكافأة مجزية ، ولكن ماذا لو أنه لا يميل لمجال الجاسوسية ، أو أنه يعمل بالفعل لحساب آخرين .

قال (هانز) فى صرامة :

- شكوكك لا مجال لها يا (بيير) .. الرجل يروق لى منذ البداية ، وأعتقد أنه يناسب ما نحتاج إليه بالضبط .. هل نسيت عملية طائرات (الفانتوم) الجديدة ؟ ! .. سنحتاج حتمًا إلى طيَّار بارع من أجلها ، وأنت تعلم أن هذا ما خططنا له ، عندما طلبنا طيارًا بمواصفات خاصة .

تدخَّل (هال) ، قائلاً :

- هذا صحيح يا (هانز) ، ولكن لا داعى للعجلة .. الرجل موجود ، والراتب الذى يتقاضاه لن يجعله يتخلَّى عنا بسهولة .. دعنا ندرسه أكثر ، ونختبره مرة ومرة ، قبل أن نكشف أمرنا أمامه هكذا .

انعقد حاجبا (هانز) ، وكأنما لا يروق له ما يسمعه ، ثم التفت إلى (انجريد) قائلاً :

- ما رأيك ؟

هزَّت كتفيها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عابثة ، وهى تجيب :

- إنه وسيم للغاية .

ثم انعقد حاجباها فى صرامة مباغتة ، وهى تضيف :

- ولكن انضمامه إلينا بهذه السرعة أمر آخر .

زفر (هانز) فى حنق ، وقال :

- فليكن .. من الواضح أننى لن أربح هذه المناقشة قط .. سننتظر بعض الوقت ، قبل أن نفاتح (زيلمان) بالأمر .

تراجع (هال) بمقعده ، وهو يقول :

- عظيم .. هذا يطرح مشكلة (زيلمان) جانبًا ، ويضعنا أمام النقطة التالية فى جدول الأعمال .. ما رأيكم فى المطلب الإسرائيلى ؟

عقد (ثوردال) حاجبيه ، وهو يقول :

- لقد تمادوا كثيرًا حقًّا .. لماذا يتعاملون معنا ، ماداموا غير واثقين من كفاءتنا .

واندفعت (انجريد) تقول فى حدة :

- لقد حذَّرتكم منذ البداية .

هبَّ (هال) يقول فى سرعة ، محاولاً تهدئة الموقف :

- إنهم لم يطالبوا بأمر شاذ يا رفاق .. هذا إجراء طبيعى ، بالنسبة لموقف كموقفنا .. المبلغ ضخم ، ولابد أن يتأكَّدوا من أنهم سيحصلون على المقابل المنشود .

بدا الغضب على وجوههم لحظة ، وسأل (هانز) :

- وما المطلوب منا بالضبط ؟ !

هزَّ (هال) كتفيه ، مجيبًا :

- بعض المعلومات ، عن المخابرات السوفيتية .

سأله (ثوردال) :

- أية معلومات ؟ !

أومأ (هال) برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. أية معلومات .. إنهم فقط يحاولون التأكُّد من فاعلية عميلنا هناك .

تبادلوا النظرات الصامتة لبضع لحظات ، ثم قالت (انجريد) :

- فليكن .. أعطهم آخر ما وصلنا من عميلنا السوفيتى .

هزَّ (هال) رأسه نفيًا ، وقال :

- هذا لا يصلح يا عزيزتى .. (شيمون) اتصل بى فى الصباح الباكر ، وطلب معلومات محدودة ، لتحديد مدى براعة العميل ، والفائدة المرجوة منه .

تبادلوا النظرات مرة أخرى ، وغمغمت (انجريد) :

- لست أشعر بالارتياح لهذا .

قال (هانز) :

- ولا يوجد مبرِّر للشك فيه أيضًا .. دعونا نطلب هذه المعلومات الجديدة من عميلنا السوفيتى ، وبأكبر قدر ممكن من الحذر .

قالت فى حدة :

- أخشى أن يراقبوا اتصالاتنا به ، ويمكنهم تحديد موقعه وهويته بالضبط .

أجابها (ثوردال) فى ثقة :

- هذا مستحيل يا أميرتى .. إننا نبث رسالتنا عن طريق الأقمار الصناعية ، من أقصى الاتحاد السوفيتى إلى أقصاه ، وأى شخص يمكنه التقاطها .

وأشار (هال) بسبَّابته ، مضيفًا :

- المهم أن يفهم ما تعنيه .

مطَّت شفتيها ، وهى تهزّ رأسها ، مغمغمة :

- لا بأس .. أنتم أكثر دراية منى بهذا .

أدار (هال) عينيه من وجوههم ؛ ليطمئن إلى أنه قد ربح جولته ، قبل أن يقول فى ارتياح تام :

- عظيم .. فلنطلب المعلومات فى عميلنا إذن .

قالها بكل الثقة ، دون أن يتصوَّر لحظة واحدة ، أنه ، وبكل ذكائه وحذره ، قد وقع فى الفخ الإسرائيلى ..

وقع فيه حتى النخاع ..

* * *

أطلق (فريدريك) من أعمق أعماق صدره زفرة حارة ، وتململ فى مجلسه ، وهو يقول فى ضجر :

- أعترف أنك قد أنقذت حياتنا فى براعة يا كابتن (زيلمان) ، ولكن تحطُّم الطائرة أمر يؤسف له بحق .

أجابه (أدهم) فى هدوء :

- التأمين سيتكفَّل بكل الخسائر .

ابتسم (فريدريك) وهو يقول :

- المشكلة ليست مشكلة تأمين .. إنها مشكلة وقت الفراغ ، الملل الناشئ عن عدم وجود عمل ما .. ألا تفتقد الطيران بالله عليك .

أجابه (أدهم) فى شىء من البرود :

- الطائرة تحطَّمت أمس فحسب .

هزَّ (فريدريك) كتفيه ، وقال :

- وعلى الرغم من هذا فأنا أفتقدها بشدة .

مطّ (أدهم) شفتيه ، ونهض قائلاً :
- مادام لا يوجد عمل ، فلا داعى للجلوس هنا .
سأله (فريدريك) فى دهشة :
- إلى أين ؟
أجابه (أدهم) وهو يغادر المكان :
- سأتجول قليلاً فى المدينة .
هتف (فريدريك) :
- ولكن السيّد (هانز) طلب منا ألا نغادر المكان .. وبالتحديد أنت .
تجاهل (أدهم) القول تمامًا ، وهو يصفق الباب خلفه فى خشونة ، ويبتعد فى خطوات سريعة ..
لم تكن شخصية المستهتر الفظ تشبه - من قريب أو بعيد - شخصيته الحقيقية ، إلا أنها كانت تناسب تمامًا الطيار الألمانى الهارب من (ألمانيا الشرقية) ، والذى لم يصادف نجاحًا فى عالمه الجديد ، على الرغم من براعته وقدراته ..
ثم إنها كانت ستارًا جيدًا لتحركاته الخلفية ..
ففى الوقت الذى تصوّر فيه (فريدريك) أن (أدهم) يخالف أوامر (هانز) فى استهتار ، كان بطلنا يستقل السيارة الصغيرة ، التى استأجرها بصورة علنية ، وينطلق وكأنه فى طريقه إلى قلب المدينة ، إلا أنه لم يلبث أن انحرف عن مساره بغتة ، واتجه مباشرة إلى حى الأثرياء ، على مشارف (هلسنكى) ..
لم يكن طراز السيارة الصغيرة يناسب ذلك الحى ، الذى بدت فيلاته الفاخرة أشبه بالقصور ، لذا فقد أوقفها خارج المكان ، فى منطقة منعزلة تمامًا ، وتلفّت حوله فى حذر ، حتى تأكّد من أن

أحدًا لا يراقبه ، ثم انتزع عن وجهه ذلك القناع الدقيق ، الذى يحمل وجه (أدولف زيلمان) ، وثبّت على وجهه قناعًا آخر بوجه مختلف ، قبل أن يغادر السيارة ، ويسير فى خطوات سريعة واسعة ، عبر الشوارع الواسعة الهادئة ، وكأنما يعرف هدفه بالتحديد ..
وبعد عشر دقائق من السير المتصل ، بلغ الهدف ..
الڤيلا التى يقيم فيها (باتون هال) .
كان الحديث الذى استمع إليه فى السيارة ، يؤكّد له أن (هال) هو العقل المدبّر للشبكة الاسكندنافية ، وأن المكان الوحيد ، الذى يمكن العثور فيه على أية معلومات إضافية هو منزله ، أو مكتبه فى الشركة ..
ولأنه درس خريطة المنزل ، وراجعها مرتين على الأقل ، وهو يستقل الطائرة ، من (القاهرة) إلى (لندن) ، فقد كان يعلم جيدًا أن الڤيلا تضم ثلاثة من الحراس ، ونظام إنذار متطورًا ، يجعل اقتحامها أمرًا صعبًا للغاية ..
بالنسبة لشخص عادى ..
أما بالنسبة لمحترف مثله ، فهناك دائمًا وسيلة ..
ومدخل لأى نظام أمنى ، مهما بلغ تعقيده ..
وفى هدوء ، ضغط (أدهم) جرس بوّابة الڤيلا ، ووقف ينتظر ، كما ينبغى أن يفعل أى زائر عادى ..
ولثوان ، بدا وكأن الڤيلا خالية تمامًا من البشر ، ثم لم يلبث رجل قصير بدين أن ظهر عند بابها ، وتطلّع إلى (أدهم) عبر الحديقة ، بنظرة مفعمة بالشك والقلق ، قبل أن يضغط زر جهاز اتصال داخلى ، ويقول :

- من أنت ؟ .. وماذا تريد ؟ !

أجابه (أدهم) فى بساطة ، وبلغة فرنسية سليمة :

- أنا هنا لإلقاء نظرة على الفيلا ، قبل أن أشتريها .

هتف الرجل فى دهشة ، وهو يجيبه بفرنسية ركيكة :

- تشتريها ؟ ! .. ومن قال إن الفيلا معروضة للبيع ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وقال :

- الإعلان .. ذلك الإعلان فى صحيفة الـ .. الـ .. لست أذكر اسمها فى الواقع ، ولكننى أذكر الإعلان .. فيلا للبيع .. السداد فورى .. الثمن مغر للغاية .. أليست هذه كلماتكم ؟

بدت الحيرة على وجه الرجل ، واستدار يهتف مناديًا زميله الذى أسرع إليه ، يسأله عما يريد ، فقال :

- هل تجيد الفرنسية ؟ ! .. هذا الرجل هناك يقول شيئًا عن الفيلا ، أظننى لا أجيد فهمه جيدًا .

انتقلت حيرته إلى زميله ، الذى أجاب فى خشونة :

- مادمت لا تفهم ، فاطرده على الفور .. هذه أوامر السيِّد (هال) .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وقال فى غضب ، وهو يمدّ يده ليقبض على أحد قضبان البوَّابة المعدنية :

- اسمع يا هذا .. إننى ..

صاح أحد الرجلين فى جزع :

- لا .. لا تفعل هذا .

وصرخ الثانى :

- احترس .

ولكن تحذيريهما وصلا بعد فوات الأوان ..

لقد قبض (أدهم) على البوَّابة المعدنية بالفعل ..

قبض بأصابعه على أحد قضبانها ، الذى يسرى فيه تيار كهربى قوته ثلاثة آلاف فولت(*) ..

وأمام عيون الرجلين ، جحظت عينا (أدهم) ، وانطلقت من حلقه شهقة قوية ، وراح جسده ينتفض فى عنف ..

وصرخ أحد الحارسين :

- رباه .. إنه لم ينتبه إلى التحذير .

ومع آخر حروف كلماته ، انهار جسد (أدهم) أمام البوَّابة المعدنية للفيلا ..

البوَّابة التى يسرى فيها تيار كهربى ..

وبقوة ثلاثة آلاف فولت ..

* * *

توقَّفت (انجريد) أمام المرآة الكبيرة فى حجرتها ، تتحسَّس شعرها فى عناية ، وتطمئن على دقة زينتها ، قبل أن ترفع أحد حاجبيها وتخفضه فى إعجاب نرجسىّ ، ثم تخرج إلى الردهة ، حيث يجلس (ثوردال) فى انتظارها ..

كانت تحمل على شفتيها ابتسامة كبيرة ، وهى تتوقَّع رد فعله ، عندما يراها فى ذلك الثوب الأنيق الجديد ، ولكن حاجبيها انعقدا فى ضيق ، ذهبت معه ابتسامتها ، عندما رأته

(*) الفولت = وحدة قياس القوة الدافعة الكهربية ، ويعرف الفولت الدولى بأنه القوة الدافعة الكهربية ، التى تولد تيارًا قدره (أمبير) دولى واحد ، إذا أثرت على موصل مقاومته (أوم) دولى واحد ، وتقاس القوة الدافعة الكهربية بواسطة جهاز خاص ، اسمه (الجلفانومتر) .

يقف شاردًا أمام النافذة ، يراقب الحديقة الكبيرة ، فاتجهت إليه ، وسألته فى توتر :

- فيم تفكّر ؟

التفت إليها فى بطء ، ورفع كأسه إلى شفتيه ، وارتشف منه رشفة ، قبل أن يجيب :

- هناك أمر يقلقنى بشدة .

قالت وقد ضايقها أن يحمل معه متاعب العمل إلى منزلها :

- أهو أمر الصفقة الإسرائيلية ؟

هزّ رأسه نفيًا ، ولوّح بكأسه ، قائلاً :

- كلاّ .. هذا الأمر لم يعد يقلقنى على الإطلاق .

أحنقها قوله بشدة ، وغمغمت :

- ماذا يقلقك إذن ؟

تنهّد فى قوة ، وشرد ببصره لحظة أخرى ، قبل أن يجيب :

- (أدولف زيلمان) .

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى شىء من العصبية :

- كنت أظننا حسمنا أمره بالفعل .

لوّح بسبّابته ، وارتشف رشفة أخرى من كأسه ، وقال :

- لست أتحدّث عن رغبة (هانز) فى ضمه إلينا ، وإنما عن الرجل نفسه .. هناك أمور تجعلنى قلقًا من ناحيته .

جذب حديثه اهتمامها وانتباهها ، فسألته :

- مثل ماذا ؟!

تنهّد مرة أخرى ، وقال :

- عندما كنا فى الطائرة ، ألقى عليه (هال) سؤالاً ، فأجابه مباشرة ، وخاطبه باسمه ، على الرغم من أنه لم يلتق به من قبل

قط ، والمفترض أنه لا يعرف منا سوى (هانز) خاصة وأن أحدنا لم يقدّم نفسه له أبدًا .

انتقل إليها قلقه وشكه ، فالتقى حاجباها ، وهى تتمتم :

- من المحتمل أنه سمع أحدنا يخاطب (هال) باسمه ، فى أثناء ركوبنا الطائرة .

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول فى توتر :

- ربما .. وإن كنت لا أذكر أن أحدنا قد خاطب الآخر باسمه قط ، حتى تم رفع الحاجز العازل للصوت .

وارتشف رشفة أخرى من الكأس ، مستطردًا :

- ثم إن هذه ليست نقطة الشك الوحيدة .

أمسكت كتفه فى انفعال ، وهى تسأل :

- ماذا هناك أيضًا ؟!

لوّح بيده ، مجيبًا :

- المفترض أن (زيلمان) هذا ألمانى الجنسية ، وأن هذه أوّل زيارة له إلى (فنلندا) ، وعلى الرغم من هذا فقد كان يعرف طريقه جيدًا ، وهو يقود الطائرة إلى المنحدر الجليدى ، ثم وهو يتجه بها إلى حيث البحيرة المتجمّدة .

تضاعفت الشكوك فى أعماقها ، وهى تقول :

- ربّما درس خرائط المنطقة ، متصوّرًا أن هذا سيكون جزءًا من الاختبار .

قال (ثوردال) :

- ربّما .

ثم انعقد حاجباه فى شدة مستطردًا :

- وربّما لا .

تطلّعت إليه لحظة فى ارتياع ، ثم تراجعت هاتفة :
- (بيير) .. إنك تثير خوفى .
أجابها فى حزم :
- هذا أفضل من تجاهل الشكوك يا أميرتى .. إننى أصرّ على أن (هانز) قد تعجّل كثيرًا فى تعيين ذلك الرجل ، وكان ينبغى أن نتحرّى أمره أولاً ، والا نكتفى بالأوراق التى قدّمها لنا .
التقى حاجباها أكثر وأكثر ، وسألته فى توتر :
- (بيير) .. ما الذى تتوقّع أن يكونه هذا الرجل بالضبط ؟
رمقها (ثوردال) بنظرة متوترة ، ثم ارتشف رشفة أخرى من كأسه ، قبل أن يجيب فى حزم واقتضاب :
- جاسوس .
وانتفض جسدها فى عنف ..

* * *

تألّقت عينا الذئب الإسرائيلى (شالوم) فى ظفر ، وهو يستمع إلى (هال) عبر الهاتف ، قبل أن يقول ، فى صوت بذل قصارى جهده ، ليزيل كل مابه من نبرات الفوز :
- إذن فقد أرسلتم تطلبون المعلومات فى عميلكم السوفيتى بالفعل .. عظيم يا (هال) .. هذا يثبت حسن نواياكم بالفعل .
ثم أنهى الاتصال ، وهو يستطرد فى سخرية :
- وغباءكم أيضًا :
سأله أحد رجاله :
- هل يمكننا الاستفادة من اتصالهم بعميلهم السوفيتى بالفعل ؟
أجابه (شالوم) فى ارتياح :

- بالطبع .
هزّ الرجل رأسه فى حيرة ، وهو يقول :
- ولكن كيف ؟! .. لقد قضيت ليلتى كلها أمس أقلّب الأمر فى رأسى على كل الوجوه ، ولكننى لم أجد وسيلة واحدة للاستفادة من هذا .. إنهم يستخدمون جهاز بث خاصًا ، يمكنه استغلال الأقمار الصناعية فى نقل الرسائل ، وهذا الأسلوب يبث الرسالة فى مساحة واسعة للغاية ، ومن المستحيل تحديد الشخص الذى سيستقبل هذا البث ، بل ومن المستحيل حتى تحديد فى أى نصف من نصفى الاتحاد السوفيتى سيتواجد عند استقباله للبث .
ابتسم (شالوم) وقال فى شىء من الزهو :
- لو أن الكل يفكرون بهذا الأسلوب ، فلا عجب فى أن يلقبوننى بالذئب ، وإن كنت أفضّل الثعلب .
أشار الرجل بسبّابته ، قائلاً :
- إذن فأنتم تعتمدون على إرسال العميل للمعلومات .. لو أن هذا صحيح ، فلست أظنه يصلح يا سيّدى ، إذ إن العميل سيتخذ حتمًا كل الحذر ، وهو يبث المعلومات ، مما سيصعب معه أيضًا تحديد موقعه .
استرخى (شالوم) فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول :
- إننا سنعتمد بالفعل على إرسال العميل للمعلومات ،التى سيحصل عليها ، ولكن ليس بالشكل الذى تتصوّره .
سأله الرجل فى شغف :
- كيف ؟

مال (شالوم) نحوه ، وهو يقول :

- بنوع المعلومات نفسها .

انعقد حاجبا الرجل ، وأطلّ التساؤل فى عينيه ، فتابع (شالوم) فى شىء من الجذل والزهو :

- المعلومات التى طلبنا من هؤلاء الحمقى الحصول عليها ، عن طريق عميلهم السوفيتى ، لم يتم تحديدها عشوائيًا ، وإنما عكف خبراؤنا على تنسيقها بمنتهى الدقة ، فعندما يرسلها العميل ، وبناء على ما نمتلكه منها بالفعل ، سيمكننا تحديد القطاع الذى يعمل فيه ، داخل المخابرات السوفيتية ، وعندئذ يعد الخبراء أسئلة جديدة ، ترشدنا أجوبتها إلى موقعه فى ذلك القطاع ، ثم يأتى دور المجموعة الأخيرة من الأسئلة ، التى لا يمكن أن يجيب عنها سوى شخص بعينه .

والتقط نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره كله ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، مستطردًا فى ظفر :

- وهكذا نكون قد توصّلنا إلى معرفة عميلهم السوفيتى بمنتهى الدقة ، دون أن ينتبهوا إلى هذا .

اتسعت عينا الرجل فى انبهار ، وهتف :

- يا للشيطان ! .. إنها خطة عبقرية بحق يا سيِّدى .

أشار (شالوم) بيده ، قائلاً :

- إنك لا تعمل فى جهاز مخابرات بسيط يا رجل .

وافقه الرجل بإيماءة من رأسه فى حماس ، ثم سأله فى اهتمام :

- قل لى يا سيِّدى .. ماذا ستفعل بهم ، بعد أن نتوصّل إلى معرفة عميلهم السوفيتى ؟

رمقه (شالوم) بنظرة جانبية ، قبل أن يهزّ كتفيه ، ويقول :

- لن تعود لنا حاجة بهم .

سأله الرجل فى فضول :

- أتعنى أننا سننهى صفقتنا معهم يا سيِّدى ؟

هزّ (شالوم) رأسه نفيًا ، وابتسم ابتسامة جذلة ، وهو يجيب :

- لن نترك منظمة منافسة تواصل عملها ضدنا يا رجل .

اتسعت عينا الرجل فى انبهار ، وهمّ بقول شىء ما ، لولا أن اندفع أحد الرجال داخل المكان ، وهو يقول :

- سيِّد (شالوم) .. لقد أحضرت كل المعلومات المطلوبة .

رفع (شالوم) عينيه إليه فى لهفة ، وهو يقول :

- أعطنى إياها .

اختطف الورقة بسرعة من يد الرجل ، وراح يقرؤها فى انفعال ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى توتر ، قائلاً :

- عجبًا ! .. لم أتوقّع هذا قط .

سأله الرجل الأوّل :

- هل أتت المعلومات بجديد يا سيِّدى ؟

أجابه (شالوم) فى ضيق :

- كلاّ .. (أدولف زيلمان) طيار حربى بالفعل ، فرّ من (ألمانيا الشرقية) والتحق بالعمل لفترة من الوقت فى شركة (لوفتهانزا) ، قبل أن يتمّ فصله لأسباب تتعلّق بالشرف والأمانة ، ثم انقطعت أخباره بعدها تمامًا .

ورفع عينيه عن الأوراق ، وهو يضيف فى توتر أكثر :

- عجبًا ! .. كيف أخطأت حاستى إلى هذا الحد هذه المرة ؟!

لم يكد يلقى تساؤله ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فاختطف سمّاعته فى لهفة ، وهو يقول :

- لعله (ماير) ، الذى أرسلته لمراقبة (زيلمان) هذا .

وضع السمّاعة على أذنه ، وهو يقول :

- (شالوم) .. من المتحدِّث ؟

أتاه صوت (ماير) مفعمًا بالانفعال ، وهو يقول :

- أدون (شالوم) .. لن يمكنك أن تتصوَّر قط ما وقعت عليه .

واتسعت عينا (شالوم) فى شدة ، وهو يستمع إليه ، وخفق قلبه فى قوة ، كما لو كانت داخله قنبلة موقوتة ..

هذا لأن المعلومات التى حملها (ماير) كانت خطيرة بحق .. خطيرة إلى أقصى حد .

* * *



٦ - الحقيقة ..

لم يكد (أدهم) يسقط أرضًا ، أمام البوّابة المكهربة ، حتى هتف أحد الحراس الثلاثة بزميليه :

- يا إلهى ! .. أسرعا بطلب سيارة إسعاف .. هذا الغبى أمسك البوّابة ، دون أن يقرأ التحذير عليها .

وضغط زر فتح البوّابة ، وهو يعدو نحوها بكل قوته ، فانفتحت فى بطء ، وتلاشى منها التيار الكهربى مؤقتًا ، فانحنى يفحص (أدهم) ، وهو يقول فى انزعاج :

- أتعشَّم ألا يكون قد لقى مصرعه ، وإلاَّ ..

بتر عبارته بغتة وهو يحدِّق فى ذلك القفاز المطاطى السميك ، الذى التصق بكف (أدهم) فى لون يصعب تمييزه عن جلده الحقيقى ، وقفزت إلى ذهنه فكرة ، جعلت جسده يرتجف ، وهو يتمتم :

- عجبًا ! .. مع هذا القفاز المطاطى ، من المستحيل أن يسرى التيار الكهربى فى جسده[*] .

لم يكد يتم عبارته ، حتى هبَّ (أدهم) واقفًا على قدميه ، وهو يقول فى سخرية :

- أهنئك يارجل .. ستحصل على درجات جيدة فى مادة الفيزياء[**]

ثم هوت قبضته على فك الرجل كالقنبلة ، مستطردًا :

(*) المطاط : مادة عازلة من التيار الكهربى .

(**) الفيزياء : هى دراسة ظواهر طبيعية محدودة ، لكشف القوانين العامة والخواص المشتركة لها ، ويمكن تقسيم هذه الدراسات بصفة عامة إلى ستة مجالات :

الضوء ، والصوت ، والحرارة ، والكهرباء ، والمغناطيسية ، والذرة ، وخواص المواد ، وهناك فرع آخر ، يعتمد على المجالات الكيميائية أيضًا ، ويعرف باسم (الفيزيوكيماويات) .



ثم هوت قبضته على فك الرجل كالقنبلة .

- وعلى صفر فى الإحساس الأمنى .

رأى الحارس الذى يقف عند الفيلا ما حدث ، فاتسعت عيناه ، وهتف :

- يا إلهى !.. إنها خدعة .

كانت يده تقفز نحو مسدسه ، الذى يبعد عنها ثلاثين سنتيمترًا فحسب ، إلا أنه فوجئ بـ (أدهم) يقطع الأمتار العشرين ، التى تفصله عنه ، عبر حديقة الفيلا ، فى وقت أقل مما قطعته يده لتقبض على مسدسه ، ووجده يمسك معصمه بغتة بأصابع من فولاذ ، وهو يقول ساخرًا :

- معذرة يا رجل .. هل أربكك وجودى ؟

شهق الرجل فى قوة ، عندما لوى (أدهم) معصمه بيسراه ، وأجبره على إفلات مسدسه ، فى نفس اللحظة التى غاصت فيها قبضته اليمنى فى معدته ، كما لو أنها مطرقة هائلة من الصلب ، جعلته ينثنى فى ألم ، فتحركت يد (أدهم) اليمنى فى سرعة ، لتلتقط المسدس ، قبل أن يسقط أرضًا ، ثم ارتفعت قبضته اليسرى ، بعد أن تخلَّت عن معصم الرجل ، وهوت على مؤخرة عنقه بضربة عنيفة ، أسقطته فاقد الوعى ، فى نفس الوقت الذى اندفع فيه الحارس الثالث خارج المنزل ، وهو يحمل مسدسه ، ولكنه فوجئ بمسدس (أدهم) يلتصق بعنقه ، وسمع هذا الأخير يقول فى هدوء مثير :

- دعنى أمنحك لغزًا طريفًا يا رجل .. ماذا ينبغى أن يفعل حارس أمن ، عندما يباغته هجوم ما ، ويجد زميليه أمامه فاقدى الوعى ، وفوهة مسدس ملتصقة بعنقه ؟ .. هل يصرُّ على المقاومة ، أم يفضِّل الاستسلام ؟!

ارتجف الرجل ، وألقى مسدسه فى سرعة ، وهو يجيب :

- اعـ .. اعتقد انه سيفضّل الاستسلام .
ابتسم (ادهم) قائلاً :
- عظيم .. إجابة صحيحة .. هيًا .. استدر لتواجهنى .
استعد الرجل يواجهه ، وهو يقول :
- هانذا .. ولكن لماذا ؟
هوى (أدهم) على فكه بلكمة كالقنبلة ، مجيبًا :
- لأننى أكره أن أضرب رجلاً فى ظهره .
سقط الحارس الثالث فاقد الوعى بدوره ، فهزّ (ادهم) كتفيه ، وغمغم :
- ينبغى ان يدقّق الأوغاد اكثر ، فى اختيار حراسهم .. هذا أمر يثير الشفقة بحق .
ثم جذب الحارسين إلى الداخل ، وكذلك فعل مع الحارس الثالث ، عند بوابة الفيلا ، قبل أن يبدأ عملية البحث ..
كان يتحرك فى سرعة وخفة ، ويفحص كل شىء تقريبًا ..
الجدران ، والأرضيات ، وقطع الأثاث ، وغيرها ..
كان واثقًا من وجود مكان ما ، يحتفظ فيه (هال) بكل أسراره ، وربما بكل أسرار الشبكة الاسكندنافية أيضًا ..
ومن أن هذا المكان ليس بعيدًا عن متناول يده ، ليمكنه الرجوع إليه وقتما يشاء ..
ولكن أين ؟! ..
أين هذا المكان ؟! ..
استغرق منه البحث نصف ساعة كاملة ، قبل أن يغمغم فى حيرة :
- عجبًا ! .. لا يمكننى أن أصدّق أبدًا أن ذلك الوغد يخالف

القواعد المعتادة لعالم الأوغاد .. سيدهشنى حقًا لو أنه يمتلك البراعة الكافية لإخفاء أسراره فى مكان آخر .
لم تكن فكرة وجود مكان آخر هذه تروق له كثيرًا ؛ فدراسته لشخصية (هال) تؤكّد له انه من الضرورى أن يخفى المحامى أسراره فى مكان يسهل الوصول إليه بسرعة وقت اللزوم ..
مكان يكون دائمًا فى متناول يده ..
ولكن منزله لا يحوى هذا المكان ..
وهذا قرار خبير ، لا يشقّ له غبار فى هذا المجال ..
فاين يمكن أن يكون ؟! ..
اين ؟!
قبل أن يتوصّل عقله إلى جواب شاف ، أو ينجح فى تفسير هذا التناقض ، التقطت اذناه بغتة صوتًا خافتًا ، ياتى من مسافة متر واحد ، خلفه مباشرة ..
وبكل سرعة ، استدار (أدهم) إلى مصدر الصوت ، فى نفس اللحظة التى تحرك فيها الحارس ، الذى استعاد وعيه مبكرًا ، ليصوّب إليه مسدسه ، و ..
ويطلق النار ..
وعلى الرغم من أن الحارس قد تحرك بخفة حقيقية ، وانتظر حتى أصبحت المسافة التى تفصله عن (أدهم) أقصر من أن يخطئ هدفه ، ومن أن عامل المفاجأة كان لصالحه مائة فى المائة ، إلا أن الرصاصة التى أطلقها ، من مسافة متر واحد ، لم تنجح فى إصابة الهدف ..

فعندما استدار (أدهم) ، ورأى الحارس أمامه ، يصوّب إليه مسدسه ، انطلق عقله يعمل بسرعة البرق ، متجاوزًا عامل المفاجأة ، وتألّقت سرعة استجابته المدهشة ، فانخفض برأسه ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الرصاصة ، وشعر بها تتجاوزه بسنتيمترات قليلة ، وقدمه ترتفع لتغوص فى معدة الحارس ، الذى تأوّه فى ألم ، ولكن قدم (أدهم) الثانية أخرست تأوهاته بركلة محكمة ، أصابت أرنبة أنفه مباشرة ، ودفعته ثلاثة أمتار إلى الخلف ، ليرتطم بالجدار فى قوة ، ويسقط عائدًا إلى حالة فقدان الوعى ..

ولكن الرصاصة انطلقت بالفعل ، ولا ريب فى أنها ستدوى كالقنبلة ، فى هذا الحى الهادئ الصامت ..

وهذا يعنى أنه لم يعد هناك مجال للبقاء ..

حتى ولو لم يحل بعد لغز مخزن الأسرار ..

لذا ، فقد غادر (أدهم) الفيلا بأقصى سرعة ، من بابها الخلفى ، وتحرّك فى خطوات واسعة ، عائدًا إلى سيارته الصغيرة ، وهناك انتزع قناعه ، واستعاد قناع (زيلمان) ، وأحكم وضعه على وجهه جيدًا ، ثم انطلق بالسيارة عائدًا إلى المطار فى هدوء ..

ومن بعيد ..

من مسافة تزيد على الكيلو متر ، كانت هناك عينانِ تتابعانه ، عبر منظار مقرّب شديد القوة ..

وعندما خفض صاحب العينين منظاره ، كان قلبه يخفق فى انفعال ، وهو يتمتم :

- لن يصدّق أدون (شالوم) هذا .. لن يصدّقه أبدًا .

والتقط سمّاعة هاتف سيارته ، ليجرى محادثة هاتفية بالغة الأهمية ..

محادثة مع (شالوم) ..

الذئب الإسرائيلى الأرقط ..

* * *

اتسعت عينا (شالوم) فى شدة ، حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، وهو يستمع إلى (ماير) ، قبل أن يغمغم :

- مستحيل ! .. مستحيل !

ثم أنهى المحادثة ، والذهول يملأ كل ذرة من ملامحه ، فسأله الرجل الذى يقف أمامه فى قلق :

- ماذا حدث يا سيّدى ؟

التفت إليه (شالوم) ، وحدّق فى وجهه لحظة ، قبل أن يجيب :

- (زيلمان) زائف .

كان جوابًا مقتضبًا للغاية ، إلا أنه جعل الرجل يهتف منزعجًا :

- زائف ؟!

لوّح (شالوم) بكفه فى الهواء ، وانفرجت شفتاه ، وكأنما يهمّ بقول شىء ما ، إلا أن الكلمات انحبست فى حلقه بعض الوقت ، قبل أن تندفع من شفتيه فى عنف ، وكأنما تحرّرت من عقالها عنوة ، وهو يهتف :

- ليت الأمر يقتصر على هذا .

التقى حاجبا الرجل فى توتر شديد ، وهو يسأل :

- ماذا هناك أيضًا ؟

أشار (شالوم) بسبابته ، وهو يجيب فى انفعال :

-الرجل الذى ينتحل شخصية (أدولف زيلمان) ليس شخصًا عاديًا .

بدا القلق على وجه الرجل ، وهو يسأل :

- من هو يا سيِّدى ؟!

هزَّ (شالوم) رأسه فى شىء من الذهول ، وكأنما لا يستطيع الخروج من صدمته ، ثم تطلَّع إلى الرجل بنظرة شاردة ، وقال وكأنه يتحدَّث مع نفسه :

- (ماير) لم ير وجهه .. ولكنه شرح لى كيف أبدل هيئته ببراعة مذهلة ، وكيف تغلَّب على حرّاس الفيلا بسرعة البرق .. وطوال عملى فى (الموساد) ، لم أر سوى رجل واحد ، يمكن أن ينطبق عليه هذا .

وارتجف صوته مع جسده ، وهو يستطرد :

- (أدهم صبرى) .

قفز الرجل من مكانه ، وانتفض جسده فى عنف ، وكأنما لدغه ثعبان سام ، وكاد يلتصق بالجدار ، وهو يهتف مرتاعًا :

- أد .. (أدهم صبرى) .. وما شأنه بنا ؟

انعقد حاجبا (شالوم) بشدة ، مع ذلك الانفعال المبالغ ، وصاح فى الرجل غاضبًا :

- ماذا أصابك يا رجل ؟! .. هل جننت ؟! .. لماذا يخيفك (أدهم صبرى) إلى هذا الحد ؟! .. إنه مجرَّد رجل واحد .

هتف الرجل مستنكرًا :

- مجرَّد رجل واحد ؟! .. كلاً يا سيِّدى .. إنه (أدهم صبرى) .. الرجل الذى حطَّم كل رموزنا ، وكل عمالقة المخابرات ، فى العالم

أجمع تقريبًا .. إنه رجل المخابرات الوحيد ، الذى لا يمكن أن يوصف بأنه (مجرَّد) رجل واحد .

تضاعف غضب (شالوم) مع هذا الجواب المستفز ، وصرخ :

- قلت لك : إنه مجرَّد رجل واحد .

ثم تراجع مستطردًا فى مقت :

- رجل يمكن أن يلقى مصرعه ، مثل أى رجل آخر .

هز الرجل رأسه ، متمتمًا :

- ليس بهذه البساطة .

التفت إليه (شالوم) بحركة حادة ، وهمَّ بقول شىء ما ، إلا أنه أحجم عن هذا فى اللحظة الأخيرة ، وارتسمت على ملامحه علامات التفكير العميق ، قبل أن يتمتم :

- بالتأكيد .. ليس بهذه البساطة .. رجل مثله يحتاج إلى خطة محكمة ، تضمن أن يلقى مصرعه ، دون أن يثير مئات المشكلات من حوله .

قالها ، وغرق لحظات فى تفكير عميق ، ثم التقط سمَّاعة الهاتف وطلب رقمًا ما ، ولم يكد يسمع صوت محدِّثه حتى قال :

- (هال) .. إنه أنا .. (شالوم) .. أعلم أنك أقنعت رفاقك بشأن العميل السوفيتى ، ولكننى لم أتصل بك لهذا ، وإنما أردت أن أخبرك أن فيلتك قد تعرَّضت للاقتحام عنوة منذ قليل ..

جحظت عينا (هال) ، عندما سمع هذه العبارة ، وصرخ :

- فيلتى أنا ؟! .. أية فيلا ؟! .. أعنى .. كيف لم يبلغنى رجالى ؟!

أجابه (شالوم) فى صرامة :

- رجالك لم يخبروك ؛ لأنهم جميعًا فقدوا وعيهم .

شحب وجه (هال) ، وهو يقول :
- فقدوا وعيهم أم .. أم لقوا حتفهم !
أجاب (شالوم) :
- بل فقدوا وعيهم فحسب .. الرجل الذى اقتحم فيلتك ليس من الطراز الذى يقتل لمجرد القتل .
سأله (هال) فى توتر شديد :
- هل تعرفه ؟ ! .. هل تعرف الرجل الذى اقتحم فيلتى ؟ ! .. اسمع يا (شالوم) .. لو أنك المسئول عن هذا فسوف ..
قاطعه (شالوم) فى غضب :
- كف عن سخافاتك هذه يا رجل ، واستمع إلىّ جيدًا .. الرجل الذى اقتحم فيلتك جاسوس مصرى ، نجح فى التسلل إليكم .. بل وفاز بإعجابكم وثقتكم أيضًا .
احتبست الكلمات فى حلق (هال) لحظة ، قبل أن تخرج فى صعوبة ، مختنقة متحشرجة ، وهو يغمغم فى انفعال :
- من هو يا (شالوم) ؟ .. من هو ؟ !
أجابه (شالوم) من صرامة :
- (زيلمان) .. طياركم الجديد (أدولف زيلمان) .
جحظت عينا (هال) من فرط الذهول والانفعال ، وكادت أصابعه تعتصر سماعة الهاتف ، وهو يكرّر :
- (زيلمان) .. ياللشيطان ! .. أأنت واثق يا رجل ؟
أجابه (شالوم) فى حزم :
- تمام الثقة .
احتقن وجه (هال) فى شدة ، وهو يهتف :

- اللعنة ! .. (هانز) الغبى .. أقحم علينا جاسوسًا .. اللعنة ! .. اللعنة !
ثم اكتسى صوته بغضب ومقت شديدين ، وهو يستطرد :
- ولكن هذا الأمر لن يستمر طويلاً .. سأقتل ذلك الجاسوس .. الآن .
صاح به (شالوم) فى حدة :
- كلاً .. إياك أن تفعل .
هتف (هال) فى دهشة :
- ماذا ؟ ! .. أى قول هذا يا (شالوم) .. هل تحاول منعى من التخلُّص من ذلك الجاسوس ؟ !
أجابه (شالوم) فى حزم :
- مطلقًا .. إنما أحاول منعك من ارتكاب حماقة سخيفة ، ستجعل الرجل يدرك أننا كشفنا أمره ، دون أن تنجح فى التخلُّص منه .. إننى أحاول قتله بوسيلة مضمونة يا رجل .. هل تفهم ؟
سأله (هال) فى عصبية :
- (شالوم) .. ألديك خطة محدودة ؟
أجابه (شالوم) فى سرعة :
- بالطبع ..
ثم استدرك فى شىء من الحزم :
- ولكن هذه الخطة تحتاج إلى الكثير من الدقة والحكمة ، وهذا يستلزم أن نناقشها جميعًا .
سأله (هال) فى توتر :
- ما الذى تقصده بكلمة (جميعًا) هذه ؟

اجابه (شالوم) :

- اقصد كلكم يا (هال) .. لابد أن اجتمع بكم جميعًا ، لأعرض عليكم الخطة الوحيدة المضمونة ، للتخلص من رجل مثله ..

والتقى حاجباه مرة اخرى ، وسال المقت من كلماته ، وهو يضيف :

- رجل مثل (ادهم صبرى) .

ومع تلك اللهجة العنيفة ، ادرك (هال) أن أمر هذا الجاسوس بالتحديد ليس بسيطًا او هينًا ..

ليس كذلك ابدًا ..

* * *

امتقع وجه (انجريد) فى شدة وانتفض جسدها فى عنف ، وهى تحدِّق فى وجه (شالوم) ، داخل تلك الفيلا المنعزلة ، التى اختارها للاجتماع ، وهتفت بصوت خرج فى صعوبة من بين شفتيها :

- (جاسوس) ؟! .. (ادولف) جاسوس ؟!

ادار (شالوم) عينيه فى الوجوه الذاهلة المذعورة ، قبل أن يقول :

- نعم يا سيِّدتى .. جاسوس .. (ادولف زيلمان) الذى يعمل لديكم ، ليس هو (ادولف زيلمان) الحقيقى .. إنه ضابط مخابرات مصرى .

قال (هانز) فى توتر شديد :

- ضابط مخابرات مصرى ؟!

أوما (شالوم) براسه إيجابًا ، وهو يقول فى صرامة :

- نعم .. ضابط مخابرات مصرى .. وليس مجرَّد ضابط مخابرات عادى .. بل هو ضابط مخابرات فذ ، من طراز نادر فريد ، لا يمكن أن يتوافر مثله فى كل عشرة اجيال .. ضابط مخابرات يحمل اسم (ادهم صبرى) .

لم يكد ينطق الاسم ، حتى انتفض (ثوردال) فى عنف ، وارتدَّ بمقعده إلى الخلف ، كما لو أن الاسم قد اصابه فى صدره كالرصاصة ، حتى أن المقعد سقط به ارضًا ، واشترك دويه مع صرخته ، وهو يهتف :

- (ادهم صبرى) ؟!

التفت إليه زملاؤه فى دهشة ، فى حين قال (شالوم) فى صرامة :

- اخفض صوتك يا رجل .. الجدران لها آذان كما يقولون .

وارتجف صوت (انجريد) ، وهى تسال (ثوردال) فى دهشة قلقة :

- هل تعرف هذا الرجل يا (بيير) ؟

نهض (ثوردال) فى عصبية وهو يقول :

- اعرفه ؟! .. إننى اعرفه خير المعرفة يا (انجى) .. لقد احتككت به مرة واحدة ، كدت القى مصرعى خلالها .. إنه ليس رجل مخابرات عادى بالفعل .. إنه شيطان .

ثم التفت إلى (شالوم) ، وارتجف صوته ، وهو يستطرد :

- كيف يمكن القضاء على رجل كهذا يا (شالوم) ؟

وقبل أن يجيب الإسرائيلى ، قال (هانز) فى غضب :

- انت واثق من قولك هذا يا (شالوم) ؟! .. لقد اختبرت

(زيلمان) بنفسى ، ومن العسير أن أصدِّق أنه ليس طيارًا محترفًا .

قال (شالوم) فى حزم :

- (أدهم صبرى) شخص يمكن أن تصفه بالمحترف ، فى كل المجالات تقريبًا ، فهو يجيد قيادة الطائرات بأنواعها ، والمركبات ، وحتى الدبابات .. قلت لكم : إنه ليس رجلاً عاديًا .

لوَّح (هانز) بسبَّابته فى وجهه ، قائلاً :

- كلامك هذا لا يبدو منطقيًا يا رجل .. كيف يتفوَّق شخص واحد فى كل هذه المجالات ، فى هذه السن الصغيرة .

مال (شالوم) إلى الأمام ، وقال فى حدة غاضبة :

- اسمع يا سيِّد (هانز) .. الأمر أعقد من أن ننشغل عنه بصراعات داخلية .. إننا أمام خطر يواجهكم ويواجهنا ، ولابد لنا من أن نحسم أمره بسرعة ، قبل أن ينسفنا جميعًا ، ومواجهته لن تكون أبدًا مواجهة تقليدية ؛ فخصمنا قادر على التصدِّى لجيش كامل ، لو منحته الفرصة ليستعد لهذا .. وخبرتى معه تقول إنه من العسير مباغتته بقتال مباشر .

تمتم (ثوردال) فى توتر :

- بل من المستحيل ! .

تنهَّد (شالوم) ، وقال :

- إذن فمن المحتَّم أن نجد وسيلة مبتكرة للتخلُّص منه ، وإلا فلن نظفر به قط .

سألته (انجريد) متوترة :

- مثل ماذا ؟

صمت (شالوم) طويلاً ، وهو يتطلَّع إلى وجوههم ، ثم قال :

- الخطة التى توصلت إليها جديدة ، وتتناسب مع الشخصية التى ينتحلها (أدهم صبرى) ، ولكنها ستتكلَّف مبلغًا باهظًا ، يربو على الثلاثة ملايين دولار .

هتف (هال) مذعورًا :

- ثلاثة ملايين ؟! .. ولماذا ندفع كل هذا المبلغ ؟! .. لماذا لا نطلق النار على رأسه مباشرة ؟! .

أجابه (شالوم) فى صرامة :

- لو أنك تجد فى نفسك القدرة على إطلاق النار على رأسه مباشرة ، فاذهب وافعل .

انعقد حاجبا (هال) فى شدة ، وهو يقول :

- ليس من الضرورى أن أطلق النار عليه بنفسى .. يمكننى أن أستأجر قاتلاً محترفًا ليفعل هذا ، مقابل أقل من عُشر هذا المبلغ .

أشار إليه (شالوم) ، قائلاً :

- لو أن المال هو كل ما يقلقك ، فلا داعى للقلق ، إذ إنكم لن تدفعوا سنتًا واحدًا من هذا المبلغ ، بل ستدفعه حكومتى كله ، ودون أية شروط .

قال (هانز) فى دهشة :

- حكومتك ستدفع ثلاثة ملايين دولار ، للتخلُّص من رجل مخابرات واحد ؟!

هز (شالوم) رأسه ، مجيبًا :

- كلاَّ يا سيِّد (هانز) .. ليس للتخلُّص من رجل واحد ، وإنما لوضع الحكومة المصرية كلها فى مأزق حرج ، يسىء إليها عالميًا ومحليًا .. فقد أبلغت (تل أبيب) بالموقف ، وعكف

خبراؤنا على دراسته ، طوال الساعات الماضية ، ثم توصلوا إلى خطة مدهشة .

ثم تألقت عيناه فى شىء من الزهو ، وهو يستطرد :

– واعترف بأن الفكرة فكرتى منذ البداية ، ولكن الخبراء طوروها إلى حد كبير .

سأله (ثوردال) :

– ومادامت الخطة خطتكم ، وأنتم الذين ستمولونها ، فما حاجتكم لنا إذن ؟

ابتسم (شالوم) وهو يجيب :

– الخطة لا يمكن تنفيذها بدونكم .

سألته (أنجريد) فى حيرة :

– ولماذا ؟!

اتسعت ابتسامته ، حتى برزت أنياب الذئب فى فكه ، وهو يجيب :

– لأن حجر الأساس فى هذه الخطة هو الطائرة الجديدة ، التى ستصلكم غدًا من شركة التأمين ، بدلاً من الطائرة التى تحطمت على الجليد .

تبادل أربعتهم نظرة متوترة ، ثم قال (هانز) فى عصبية :

– (شالوم) .. إنك لم تجب سؤالى فى صراحة .. أأنت واثق من أن (زيلمان) جاسوس ؟ .. ألديك دليل على هذا ؟

رمقه (شالوم) بنظرة صارحة ، قبل أن يجيب فى حزم واقتضاب :

– بالتأكيد .

ثم استند بكفيه إلى منضدة الاجتماعات ، ومال إلى الأمام ، وهو يستطرد :

– عندما أخبرنى جاسوس بأمر (زيلمان) وتأكدت من عنف الهجوم ، الذى قام به رجل واحد ، على فيلتك يا (هال) ، أرسلت أحد رجالى لفحص وتفتيش جسم الطائرة ، التى تحطمت فى الجبال ، ولقد بذل الرجل جهدًا حقيقيًا ، قبل أن يعثر على هذا .

قالها ، والتقط من جيبه قرصًا صغيرًا ، فى حجم عملة معدنية بسيطة ، ورفعه أمامهم بين سبابته وإبهامه ، مضيفًا :

– تطلعوا إليه جيدًا ايها السادة .. إنه جهاز تصنت صغير ، نطلق عليه فى عملنا اسم (المشاغب) ، هذا لأنه ، وعلى الرغم من صغر حجمه ، يمتلك قدرة مدهشة على نقل كل الأصوات ، وتمييز بعضها عن بعض فى وضوح تام .. باختصار .. إنه جهاز التصنت المثالى ، بالنسبة لرجل يرغب فى سماع ما يدور فى اجتماع كبير .. وهذا (المشاغب) عثرنا عليه تحت المقعد ، الذى كنت تجلس عليه يا (ثوردال) .

شحب وجه (ثوردال) وهو يقول :

– ياللشيطان ! .. إذن فقد استمع إلى كل ما رددناه حول الصفقة !

أجابه (شالوم) فى حزم :

– بالضبط .. (أدهم صبرى) أصبح يعرف الكثير .. وربما أكثر مما ينبغى ، وهذا يعنى أن القضاء عليه أصبح حتميًا .

وصمت لحظة ، قبل أن يستطرد :

– هل تعلمون لماذا التقيت بكم لأول مرة الآن فحسب ؟ .. لأنه فيما مضى كنت أخشى أن تنتبه أجهزة المخابرات الأخرى إلى لقائنا ، وبالذات جهاز المخابرات المصرى .. أما الآن ، وبعد أن

تأكدت من أن تعاوننا صار أمرًا علنيًا ، بالنسبة للمصريين بالذات ، فلم يعد يعنينى كتمان اجتماعاتنا كثيرًا .

قال (هال) فى عصبية :

- هل تعنى أن (أدهم) قد أبلغ مالديه لرؤسائه بالفعل ؟

هز (ثوردال) رأسه نفيًا ، وهو يسبق (شالوم) إلى الجواب ، قائلا :

- ليس كل مالديه .. ربما أبلغهم بأمر وجود تعاون بيننا وبين الإسرائيليين ، ولكنه لا يستطيع سرد كل التفاصيل فى برقية شفرية .. إنه يدخرها فى المعتاد لتقريره النهائى .. وهذا يعنى أن التخلُّص منه الآن يخفى هذه التفاصيل إلى الأبد .

ابتسم (شالوم) ، وهو يقول :

- منطق رائع يا عزيزى (ثوردال) ، إلا أنه يؤسفنى أن أخبرك أن خطتنا لا تعتمد على القضاء على (أدهم صبرى) ، وإنما تعتمد على المحافظة على حياته ، حتى يصل إلى أولئك الذين سيتولون أمر التخلُّص منه .

بدت عبارته الأخيرة غامضة للغاية ، حتى أن الدهشة ارتسمت على كل الوجوه ، وبالذات وجه (انجريد) ، التى سألت فى حيرة :

- ما الذى يعنيه هذا التناقض ؟

التقط (شالوم) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

- سأشرح لك يا سيِّدتى .

نطق عبارته ، واعتدل ، وراح يشرح لهم خطته ..

والواقع أنها كانت بالفعل خطة مبتكرة وجديدة ..

بل ورهيبة ..

رهيبة إلى أقصى حد .

* * *

٧ - خطة الذئب ..

على الرغم من أن (أدهم) قد استلقى فى فراشه منذ العاشرة مساء ، إلا أن النوم لم يتسلَّل إلى جفنيه إلا فى الرابعة وبضع دقائق صباحًا ..

لقد قضى ليلته ساهرًا مسهدًا ، يفكِّر فى أمر (هال) ، والشبكة الاسكندنافية ..

إنه واثق من أن (هال) يحتفظ بكل أسرار الشبكة ..

وفى مكان قريب منه للغاية ..

ولكن فيلته نظيفة تمامًا ..

لا توجد خزائن سرية ، أو أرضيات مزدوجة ، أو حجرات خفية ..

أو حتى جدران متحركة ..

وهذا يعنى أن (هال) يحتفظ بأسراره فى مكان آخر ..

ولكن أين ؟! ..

أين ذلك المكان القريب والبعيد فى آن واحد ؟! ..

أين ؟! ..

ظلَّت الفكرة تؤرقه ، وأبت أن تفارقه ، وهو يعيد دراسة الموقف مرات ومرات ، حتى غلبه النوم ..

وحتى فى نومه ، لم تفارقه الفكرة قط ..

لقد رأى نفسه يتسلَّل مرة ثانية إلى الفيلا ، التى بدت خالية تمامًا ، من (هال) والحراس ..

وحتى من الأثاث ..

وعندما أبدى دهشته من هذا ، فوجئ بمدير المخابرات إلى جواره ، يقول :

- لن تعثر على اى شىء هنا يا (ن - ١) .

ولأن الأحلام لا تخضع بالضرورة للمنطق ..

ولأن النائم لا يدرك هذا أبدًا فى حينه ..

فقد بدا وجود المدير منطقيًا تمامًا ، فسأله (أدهم) فى اهتمام :

- لماذا يا سيّدى ؟

أجابه المدير فى هدوء :

- لأن (هال) محام ، وهو أذكى من أن يحتفظ بما يدينه فى فيلته .

قال (أدهم) فى حيرة :

- أين يحتفظ بالأسرار إذن ؟

أشار المدير بيده ، قائلاً :

- ربما هناك .

التفت (أدهم) إلى حيث يشير المدير ، ورأى أمامه مرآة ضخمة ، تغطى جدارًا كاملاً من جدران الفيلا ، وتنعكس فوقها صورتها كلها ..

وكان هناك فارق جوهرى بين الفيلا وصورتها المنعكسة ..

فالفيلا كانت خالية تمامًا من الأثاث ، فى حين كانت الصورة المنعكسة كاملة الأثاث ..

ولأنه حلم ، لم يبد هذا أيضًا غير منطقىّ ، ولكن (أدهم) تساءل : كيف لم ير هذا الجدار الزجاجى من قبل ؟ ..

وعندما التفت ليلقى السؤال على المدير ، لم يجده إلى جواره ..

بل ولم يجده فى الفيلا كلها ..

وفى دهشة ، هتف :

- أين أنت يا سيّدى ؟

انبعث فجأة صوت يقول :

- أنت نائم .. هيا .. استيقظ .. هيا ؟

لوهلة ، بدا الصوت وكأنه جزء من الحلم ، ثم استيقظت حواس (أدهم) بغتة ، وأدركت أن الصوت يأتى من عالم الواقع ، ممتزجًا بدقات على باب حجرته ، فهبَّ جالسًا على طرف فراشه ، وألقى نظرة سريعة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الرابعة والنصف صباحًا ، ثم قال باللغة الألمانية :

- من بالباب ؟

أتاه صوت (هانز جوردان) ، وهو يقول :

- إنه أنا يا (زيلمان) .

قال (أدهم) متصنعًا الغضب والخشونة ، وهو يرتدى قناع (زيلمان) فى إحكام :

- هل تعرف كم الساعة الآن يا سيِّد (هانز) ؟

أجابه (هانز) :

- نعم .. أعرف .. ولكننى أريدك الآن لأمر هام .

التقط (أدهم) مسدسه ، ودسَّه فى حزامه ، وهو يقول :

- انتظر لحظة إذن .

ثم ارتدى قميصه فى سرعة ، وفتح الباب ، وهو يتثاءب متعمدًا ، ويقول :

- أتعشَّم أن يكون أمرًا هامًا بحق يا سيِّد (هانز) .

ألقى (هانز) نظرة سريعة على الحجرة ، ثم قال :

- إنه كذلك يا (زيلمان) .. إنه كذلك .

وتقدَّم بضع خطوات داخل الحجرة ، قبل أن يجلس على المقعد الوحيد بها ، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، مستطردًا :

- الطائرة الجديدة ستصل فى السادسة ، ومن الضرورى أن تستعد لاستقبالها .

هتف (ادهم) فى دهشة :

- فى السادسة صباحًا ؟! .. ياله من موعد !

هزَّ (هانز) رأسه نفيًا فى بطء ، ثم تطلَّع إلى عينى (ادهم) مباشرة ، وقال :

- بل ستصل فى السادسة مساءً .

انعقد حاجبا (ادهم) فى غضب ، وهو يقول :

- فى السادسة مساءً ؟! .. اتوقظنى فى الرابعة والنصف صباحًا لتخبرنى أن الطائرة ستصل بعد اكثر من اثنتى عشرة ساعة ؟!

اجابه (هانز) فى صرامة :

- قلت ايضًا : إنه من الضرورى أن تستعد لاستقبالها .

قال (ادهم) فى عصبية تناسب شخصية (زيلمان) :

- وهل يحتاج هذا الاستعداد لنصف يوم كامل ؟

اجابه (هانز) فى صرامة :

- ربما يحتاج إلى ما هو اكثر من هذا .

مطَّ (ادهم) شفتيه معترضًا ، وجلس على طرف الفراش ، قائلاً :

- هل لك أن تخبرنى كيف ؟

صمت (هانز) طويلاً ، وهو يتطلَّع إليه ، قبل أن يميل نحوه فجاة ، قائلاً :

- (زيلمان) .. لقد رشحتك للعمل معنا .

تظاهر (ادهم) بالدهشة ، وهو يقول :

- ولكننى أعمل معكم بالفعل يا سيِّد (هانز) .

هزَّ (هانز) رأسه ، وقال :

- انت تعمل رسميًا مع الشركة ، وليس معنا يا (زيلمان) .

ساله (ادهم) :

- وما الفارق ؟

ابتسم (هانز) ابتسامة كبيرة ، وهو يجيب :

- الفارق ضخم للغاية يا (زيلمان) .

ثم نهض ، مستطردًا :

- هيا بنا .. ساشرح لك كل شىء فى الطريق .

ساله (ادهم) فى حذر حقيقى :

- فى الطريق إلى اين ؟

تنهَّد (هانز) مجيبًا :

- ستعرف بعد قليل .. لا تتعجَّل الأمور .

لم تمضى ربع الساعة ، حتى ضمَّتهما سيارة (هانز) ، التى انطلق بها فى الطريق الذى يتجه إلى الحدود السويدية ، فساله (ادهم) :

- إلى اين نذهب بالضبط ؟

اجابه (هانز) :

- إلى مخزننا الخاص يا (زيلمان) .

ساله (ادهم) متظاهرًا بالبساطة :

- مخزن الشركة ؟!

هزَّ (هانز) رأسه نفيًا ، قبل أن يجيب :

- بل مخزننا الخاص يا (زيلمان) .
ثم رمقه بنظرة خاصة ، مستطردًا :
- مخزن الشبكة الاسكندنافية .
شعر (أدهم) بدهشة حقيقية ؛ لأن (هانز) صارحه بالأمر على هذا النحو ، وبعد أيام معدودة من عمله معه ، وبدت دهشته واضحة فى صوته ، وهو يكرِّر :
- الشبكة الاسكندنافية ؟!
قال (هانز) فى اهتمام :
- نعم يا (زيلمان) .. الشبكة الاسكندنافية .. أعلم أن المصطلح جديد على مسامعك ، ولكننى سأشرحه لك جيدًا ..
وطوال ربع ساعة كاملة ، راح (هانز) يشرح له أمر شبكة التجسّس فى صراحة تامة ، أدهشت (أدهم) كثيرًا ، فلم يحاول إخفاء دهشته هذه ، حتى لا يثير شكوك (هانز) ، وإنما سأله :
- قل لى يا سيِّد (هانز) : لماذا تكشف لى كل هذه الأمور الخطيرة ؟ .. ألا تخشى أن أبلغ الشرطة مثلاً ؟
ابتسم (هانز) ، وهو يقول :
- يمكنك أن تقول إن لى نظرة ثاقبة للأمور ، ويمكننى بسهولة تحديد الشخص الذى أمنحه ثقتى .
كتم (أدهم) ابتسامته الساخرة ، وهو يقول :
- هكذا ؟!
أجابه (هانز) :
- بالتأكيد يا (زيلمان) .. أنت طيار مثلى ، وكلانا يمكن فهم الآخر جيدًا ، وأنا أعلم أن عمل الطيار المدنى لطائرة خاصة هذا لا يناسبك قط ..

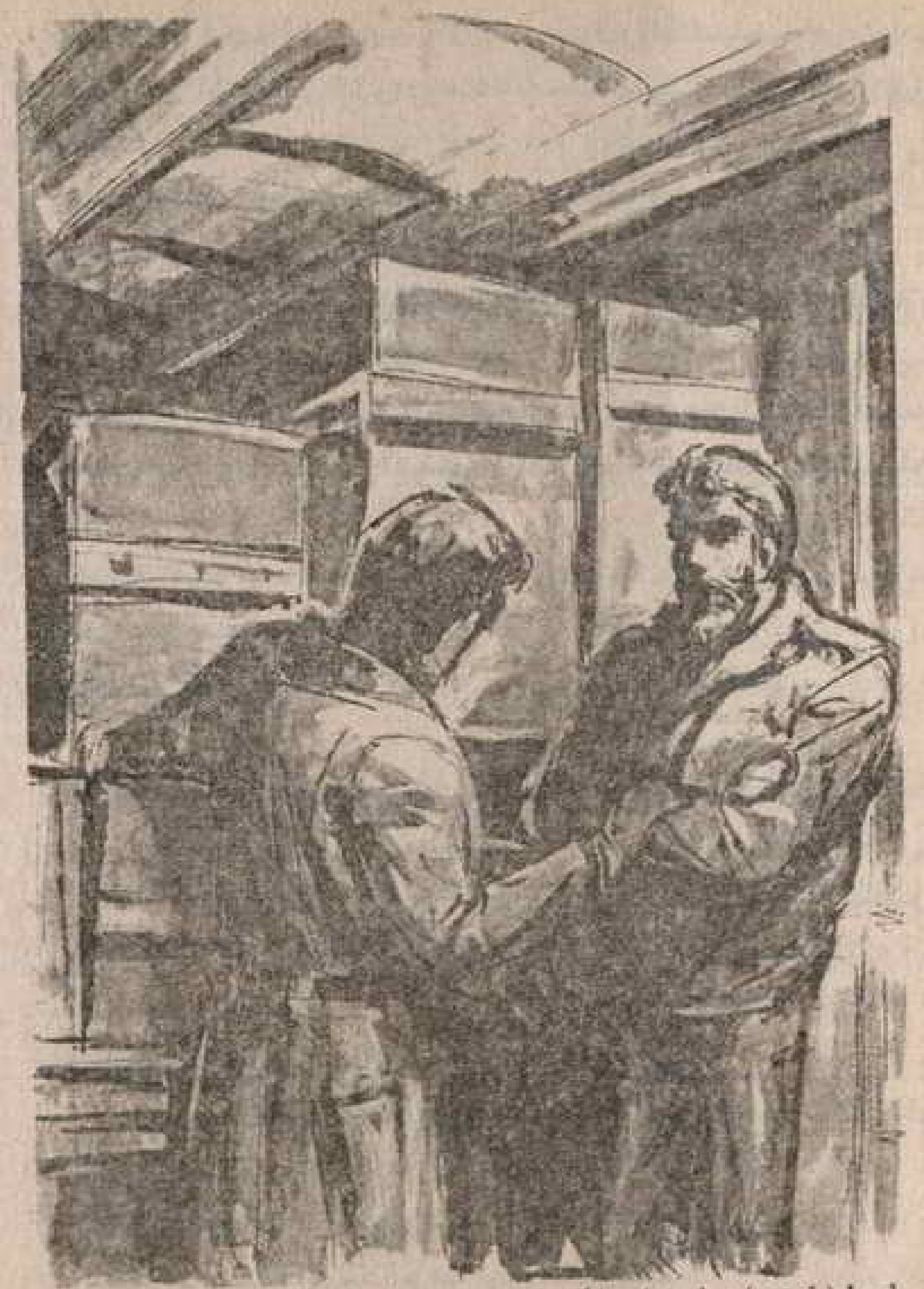
ثم التفت إليه ، مستطردًا بلهجة خاصة :
- ولكن العمل الجديد سيناسب مواهبك حتمًا .
قالها ، وهو ينحرف عن الطريق الرئيسى ، ويتجه نحو مخزن كبير ، فسأله (أدهم) :
- أهذا هو مخزنكم السرى ؟!
ضحك (هانز) ، قائلاً :
- ما تراه أمامك هو مخزن الشركة الرسمى ، أما مخزننا السرى ، فهو تحته مباشرة .
توقَّفت السيارة عند المخزن ، وقاده (هانز) إلى الداخل ، ثم إلى قبو يختفى بابه خلف عدد من الصناديق ، وأشار إلى مجموعة من صناديق الذخيرة ، قائلاً :
- ها هى ذى بضاعتنا الحقيقية .
لم يستطع (أدهم) إخفاء دهشته الحقيقية ، وهو يقول :
- الذخيرة !! هل تتاجرون فى الأسلحة والذخيرة ؟!
أجابه (هانز) فى حماس :
- بالطبع يا (زيلمان) .. إنها تجارة رابحة للغاية ، وتدرّ علينا الملايين .
ثم وضع يده على كتف (أدهم) ، مستطردًا :
- وستدر عليك أرباحًا خيالية أيضًا يا رجل .
عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول فى حذر :
- هل تطلب منى العمل لحسابكم فى تجارة الأسلحة يا سيِّد (هانز) ؟
هزَّ (هانز) رأسه نفيًا ، وقال :

- بل اطلب منك أن تتعاون معنا كشريك كامل يا (زيلمان) ، وأن تبدأ هذا التعاون الليلة بالتحديد .
سأله (أدهم) فى حذر :
- الليلة ؟ !
أومأ (هانز) برأسه إيجابًا ، وقال :
- نعم يا (زيلمان) .. الليلة ستنقل أول شحنة من الأسلحة إلى زبائننا .. هل تقبل هذا العمل ، مقابل مائة ألف دولار ؟ !
لم يشعر (أدهم) بالارتياح ، إزاء هذا العرض ، واستيقظ فى أعماقه شعور قوى بالقلق والحذر ، وبأن (هانز) وأفراد شبكته الاسكندنافية يخفون أمرًا ما ، خلف هذا العرض السخى ، إلا أن رفض موقف كهذا لم يكن يتناسب قط مع شخصية (زيلمان) ، لذا فقد سأل فى اهتمام واضح :
- وأين هؤلاء الزبائن ؟
أجابه (هانز) بسرعة :
- سينتظرونك فى يخت خاص ، بالقرب من (ستوكهولم) ، فى البحر البلطى .
قال (أدهم) ساخرًا :
- عظيم .. وهل تتوقع منى الهبوط على سطح الماء ؟
أجابه (هانز) فى هدوء :
- بالطبع .. الطائرة الجديدة مزوَّدة بألواح إضافية عند إطاراتها ، تسمح لها بالهبوط فوق سطح الماء .
ثم وضع يده على كتفه ، مستطردًا فى حماس :
- صدقنى يا (زيلمان) .. إنها صفقة العمر بالنسبة لك يا رجل .

صمت (أدهم) قليلاً ، وقد تضاعف قلقه وحذره مرات ومرات ، إلا أن الدور الذى يلعبه جعله يبتسم ، ويقول فى اهتمام :
- ومن يمكنه رفض مثلها يا سيِّد (هانز) ؟
امتلأ وجه (هانز) كله بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :
- عظيم .. عظيم يا (زيلمان) .. دعنا إذن نعدَّ البضائع ، فهذا يحتاج إلى عدة ساعات .
أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، أما فى أعماقه ، فقد تصاعد القلق ، حتى بلغ ذورته ..
هناك شىء ما حتمًا وراء هذا العرض ..
شىء قد يحمل له الخطر ، أو ...
أو حتى الموت ..

* * *

بدت الدهشة على وجه (فريدريك) ، وهو يحدِّق فى وجه (أدهم) ، قبل أن يقول فى حيرة :
- ماذا تعنى بأنك ستقود الطائرة وحدك الليلة يا كابتن (زيلمان) ؟ ! المفترض دائمًا ، طبقًا لقوانين الطيران ، أن يصحبك مساعدك .
أجابه (أدهم) فى حزم :
- إنها ليست رحلة رسمية يا (فريدريك) ، بل مجرَّد اختبار للطائرة الجديدة .
قال (فريدريك) فى ضيق :
- وكيف يمكنك أن تختبرها دون طيار مساعد ؟ !



أوما (أدهم) براسه إيجابًا ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ..

اعتدل (أدهم) ، وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يجيب :

- سل السيِّد (هانز) .. إنها أوامره .

صمت (فريدريك) لحظة ، وهو يراقبه فى توتر ، ثم قال فى عصبية :

- وهل تحتم أوامره أيضًا فحص الطائرة الجديدة بهذه الدقة ؟! إنك تعكف على فحصها منذ أكثر من نصف الساعة ، حتى أنك راجعت المحرك بنفسك ، وفحصت جسمها من الخارج مرتين ، وقلبت مقاعدها ، وحتى أجهزة الاتصال بها ، ماذا هناك بالضبط ؟!

أجابه (أدهم) فى خشونة :

- أخبرتك أننى لا أستقل طائرة جديدة ، قبل أن أفحص كل شبر منها .

قال (فريدريك) فى عصبية :

- أأنت واثق من أن هذا هو السبب الحقيقى ؟

رمقه (أدهم) بنظرة صارمة ، قبل أن يجيب فى خشونة :

- ليس هذا من شأنك .

لم يكن بإمكانه حقًا أن يروى له السبب الحقيقى ، الذى يدفعه إلى كل هذا الحرص ..

إنه واثق تمام الثقة ، على الرغم من عدم وجود أدلة قاطعة ، على أن (هانز) ورفاقه يضمرون أمرًا ما من هذه الرحلة الليلية ..

ولقد وضع فى ذهنه كل الاحتمالات ..

ربما وضعوا قنبلة ما فى الطائرة ! ..

ولكنه فحص كل شبر منها بالفعل ، ولم يعثر على أدنى أثر لأية قنابل ..

حتى شحنة الأسلحة ، التى سيحملها إلى أولئك الزبائن ، بالقرب من (ستوكهولم)(*) ، فحصها بنفسه بمنتهى الدقة ، ولم يجد فيها ما يخيف ، أو حتى يثير الشك ..

ما الذى أعدُّوه إذن ؟ ! ..

هل سيبلغون الشرطة بأمره ، عندما يقلع حاملاً شحنة من الأسلحة غير القانونية ؟ !

ولكن بم يمكن أن يفيدهم هذا ؟ ! ..

كل ما سيحدث هو أن الشرطة ستلقى القبض عليه ، بتهمة محاولة التهريب ، وهو يقود طائرتهم الخاصة ، وهذا يضعهم أيضًا فى موضع الشبهات ! ! ..

أم أنهم يختبرونه بهذه الرحلة ؟ ! ..

ربما كانوا كذلك بالفعل ، ولكن لماذا يشعر فى أعماقه بذلك القلق المبهم ، الذى ينبعث دائمًا من غريزته ، عندما يواجه أمرًا لا يروق له ، حتى ولو توافق مع العقل والمنطق السليم ؟ ! ..

لماذا ؟ ! ..

لماذا ؟ ! ..

« ماذا تفعل هنا ؟ ! » ..

انطلق السؤال من بين شفتى (هانز) فى صرامة ، فانتفض جسد (فريدريك) فى توتر ، وهو يقول :

- لا شىء يا سيِّد (هانز) .. لا شىء .. فقد أتيت لألقى التحية على كابتن (زيلمان) ، قبل أن ينطلق فى رحلته المنفردة هذه .

(*) ستوكهولم = عاصمة (السويد) .. تقع على منفذ بحر (مالاران) إلى البحر البلطى ، لها ميناء كبير ، ومركز لبناء السفن ، وصناعة الآلات والمنسوجات والكيمائيات والمطاط ، وهى مقر لجامعة دولية ، ومركز ثقافى وفنى .

قالها ، وهو يضغط حروف كلمة (المنفردة) فى قوة ، وكأنما يكرِّر عدم اقتناعه بما يحدث ، ولكن (هانز) أجابه فى صرامة :

- لا شأن لك بالقواعد التى نتبعها فى الطيران ، فمهما بلغت خبرتك ، لن تتفوَّق علينا قط ، أنا و (أدولف) ..

غمغم (فريدريك) :

- أعترف بهذا دون مناقشة .

أشار إليه (هانز) إشارة صارمة ، وهو يقول :

- هيا .. عد إلى برج المراقبة ، فسأتبادل حديثًا قصيرًا مع كابتن (زيلمان) ، قبل أن يُقلع .

أومأ (فريدريك) برأسه ، مغمغمًا فى ضيق :

- كما تأمر يا سيِّد (هانز) .. كما تأمر .

وألقى نظرة سريعة على (أدهم) ، قبل أن يغادر الطائرة فى سرعة ، ويبتعد عن المكان كله فى خطوات سريعة ، راقبه خلالها (هانز) بعض الوقت ، ثم أخرج من جيبه مظروفًا ، وناوله لـ (أدهم) قائلاً :

- خذ يا (زيلمان) .. خمسون ألف دولار كمقدَّم ، والباقى ستحصل عليه عند العودة ، وبعد أن يبلغنا زبائننا بتسلُّم الشحنة .

التقط (أدهم) المظروف ، ودسَّه فى جيبه ، قائلاً :

- أعتقد أنه ينبغى أن أقلع على الفور ، حتى أصل فى الوقت المحدود .

مدَّ (هانز) يده يصافحه ، وهو يقول :

- بالتأكيد .. اذهب الآن يا (زيلمان) وانتبه جيدًا .. لا نريد أية متاعب .

قال (أدهم) فى حزم :
- اطمئن .
وعلى بعد عشرين مترًا ، وقف (هانز) يراقب إقلاع (أدهم) بالطائرة فى صمت ، وراقبها ببصره ، حتى اختفت فى الأفق ، وسط ظلام الليل ، وفى هدوء ، برز (شـالوم) من مـدخل برج المراقبة ، وسار عبر ممر الإقلاع ، حتى توقف إلى جوار (هانز) ، الذى قال فى شىء من الارتياح :
- هل اديت دورى جيدًا يا سيد (شالوم) ؟
أوما الذئب براسه ، مجيبًا :
- بالتأكيد يا سيِّد (هانز) .. بالتأكيد .
تنهَّد (هانز) ، قبل أن يسأل فى اهتمام :
- هل تعتقد أنه شكَّ فى أمرى ؟
أجابه (شالوم) مبتسمًا :
- بالتأكيد .. رجل مثله لا يمكن أن يمر عليه موقف كهذا فى بساطة ، ولكنه سيعتصر عقله بحثًا عما يؤيِّد شكوكه ، وسيبذل قصارى جهده لفحص كل شىء فى الطائرة .
ثم اتسعت ابتسامته ، وامتلأت زهوًا وشماتة ، مع استطرادته :
- ولكنه لن يتوقَّع ما ينتظره قط .
وانطلقت من بين شفتيه ضحكة جذلة قصيرة ، قبل أن يضيف :
- الشىء الوحيد الذى يؤسفنى ، هو أننى لن أكون هناك ، لأرى ما سيرتسم على وجهه ، عندما يكشف خدعتنا .
ابتسم (هانز) وقال :

- ولكن عزاءنا الوحيد هو أنه لن يكشف الخدعة ، إلا بعد فوات الأوان ، وعندما يصبح التراجع مستحيلاً .
قالها ، واشترك الاثنان فى ضحكة طويلة .. وشريرة ..

* * *

لاذ (أدهم) بالصمت تمامًا ، وهو ينطلق بالطائرة الجديدة طويلاً فوق البحر ، وعقله مازال يبحث عن تفسير للقلق الذى يعتريه ..
ومن الناحية المنطقية ، لم يكن هناك دليل واحد يؤيِّد قلقه وشكوكه ..
لقد بذل جهدًا حقيقيًا لإنقاذ أفراد الشبكة الاسكندنافية ، وأثبت لهم إخلاصه ، ومهارته فى الطيران ، ومن المؤكَّد أن هذا قد ترك أثرًا قويًا فى أعماقهم ، دفعهم إلى اتخاذ قرار سريع بضمه إليهم ..
وهذه الرحلة مجرَّد اختبار لقدراته ..
ولإخلاصه ..
هذا هو التفسير المنطقى الوحيد ..
ولكن من قال : إن كل فى شىء هذا العالم يخضع للمنطق ؟! ..
فبالنسبة لرجل مثل (أدهم صبرى) ، خاض أهوالاً يشيب لها الولدان ، وواجه الخطر عشرات المرات ، واقترب من الموت حتى كاد يشتمّ رائحته ، يكون هناك دائمًا أمر يفوق أى منطق فى الكون ..
إنه الغريزة .. غريزة الشعور بالخطر ..
تلك الغريزة التى يمتلكها كل مخلوق حىّ ، والتى تنمو

وتقوى اكثر فى اعماق كل مقاتل ، والتى بلغت ذروتها تقريبًا ، عند الرجل الذى يحمل لقبًا فريدًا ، لا ينافسه فيه اى رجل مخابرات ، فى العالم أجمع ..

لقب (رجل المستحيل) ..

وفى أعماقه ، كانت تلك الغريزة تصرخ وتئن ، معلنة وجود خطر قريب ..

قريب للغاية ..

ولكن أين ؟! ..

أين ؟! ..

واصل انطلاقه بالطائرة لنصف ساعة أخرى ، وعيناه تراقبان كل المؤشرات فى لوحة القيادة فى حذر ، وعقله يواصل البحث عن تفسير لقلقه ، و ...

وفجاة ، انتبه إلى أمر ما ..

إلى مجموعات النجوم فى السماء ..

فطبقًا لخبرته السابقة فى الملاحة البحرية ، ولما لقَّنه إياه والده فى صباه ، لا ينبغى أن تكون تلك المجموعة النجمية فى مواجهته ، عندما يتجه إلى (ستوكهولم) ..

كان ينبغى أن تكون عندئذ إلى يساره ، وليس أمامه مباشرة ..

ووجودها فى هذا الموضع ، يعنى انه يتجه نحو الجنوب مباشرة ، وليس إلى الجنوب الغربى كما ينبغى ..

وفى دهشة متوترة ، تعلَّقت عيناه بالبوصلة ، فى لوحة القيادة ، والتى تشير إلى انه يتجه بالفعل نحو الجنوب الغربى وليس نحو الجنوب ..

ولكن كيف ؟! ..

كيف ؟! ..

وقبل أن يتمّ تساؤله ، أو يتوصّل إلى تفسير هذا الخلل فى البوصلة ، ارتفع من جهاز اللاسلكى فى الطائرة صوت صارم يقول :

- أنت داخل مجال جوى محظور .. حدِّد هويتك ، أو نتخذ الإجراءات الدفاعية مباشرة .. أكرِّر ..

وانعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يستمع إلى النداء ، الذى راح يتكرَّر بلا انقطاع ، وبلغة أكَّدت الشكوك التى تفجَّرت فى أعماقه منذ البداية ..

باللغة الروسية ..

وكان هذا يعنى أنه لم يكن يتجه أبدًا نحو (ستوكهولم) ، وإنما نحو آخر مكان يرغب فى الذهاب إليه ، فى قلب شتاء قارص كهذا ..

إلى الاتحاد السوفيتى ..

وفى غضب ، غمغم (أدهم) :

- يا للأوغاد !! .. لقد أحسنوا لعبتهم بحق .

ثم التقط بوق جهاز اللاسلكى ، وقال بالروسية :

– دخول المجال لم يكن مقصودًا .. خلل فى البوصلة أدى إلى ..

وبتر عبارته بغتة ، وهو يحدِّق فى الجهاز ..

فطبقًا لحركة مؤشره ، كان من الواضح انه لا يصلح للبث ..

لقد أفسدوه بحيث يعمل كجهاز استقبال فحسب ..

ومعنى هذا أن السوفيت لن يستقبلوا تفسيره لاختراق مجالهم الجوى قط ..

وأنهم سيتعاملون معه باعتباره دخيلاً يعتدى على مجالهم الجوى وحدودهم الآمنة ..

وسيستخدمون معه كل وسائل الدفاع الجوى ..

وبلا استثناء ..

ولا توجد وسيلة لتفادى هذا ..

إلا إذا ...

قفزت الفكرة إلى رأسه بغتة ، فاستدار بالطائرة بحركة حادة واعتصر ذهنه لتعديل الاتجاهات ، طبقًا لمعامل الخلل ، الذى أصاب البوصلة ، والذى قاده إلى الاتحاد السوفيتى ، ثم انطلق محاولاً العودة من حيث أتى ..

وفى غياب البوصلة ، ومع الطيران الليلى ، لم يكن من الممكن أبدًا أن يدرك كم توغَّل فى المجال الجوى للاتحاد السوفيتى ، ولكنه انطلق بأقصى سرعة ، تسمح بها محركات طائرة مدنية خاصة صغيرة ..

ومن اللاسلكى ، ارتفع ذلك الصوت السوفيتى الصارم ، يقول :

– حدِّد هويتك ، ولا تحاول الفرار .. إننا نحذِّرك .. حدِّد هويتك .

تجاهل (أدهم) النداء ، وهو ينطلق بأقصى سرعة للطائرة ، فى خط مستقيم ، و ...

ولكن فجأة ، أدرك أن محاولته لن يكتب لها النجاح أبدًا ..

ولم يكن هذا القرار يحتاج إلى خبرة فى عالم الطيران ..

فأمامه مباشرة ..

وعلى يمينه ويساره ..

وحتى من خلفه ..

ظهر سرب من الطائرات المقاتلة ، يحاصره بصواريخه القاتلة ..

سرب من الطائرات السوفيتية .

* * *



٨ - الحصار السوفيتى ..

انطلقت ضحكة (انجريد) عالية مجلجلة ، وهى ترفع كاسها عاليًا ، وتهتف فى حماس شديد :

- نخب الذئب العجوز .. أبرع إسرائيلى عرفته ، فى حياتى كلها .

وجرعت كاسها دفعة واحدة ، والجميع يتبادلون النخب ، ثم سعلت ووجهها يحتقن ، ويزداد احمرارًا ، قبل أن تسأل :

- قل لى يا (شالوم) : كيف فعلت بالرجل هذا ؟ ! .

وضحك (ثوردال) ، هاتفًا :

- نعم .. أخبرنا أيها الذئب الأرقط ، كيف جعلته يخترق المجال الجوى للسوفيت ، دون أن يدرى ؟ !

ابتسم (شالوم) فى زهو واثق ، وهو يقول :

- لم يكن الأمر بهذه الصعوبة يا سادة .. لقد زوَّد خبراؤنا بوصلة الطائرة الجديدة بجهاز خاص ، به مغناطيس قوى ، يبدأ عمله فور إقلاع الطائرة ، فيتحرك فى بطء نحو الشمال الغربى ، بحيث تنحرف نحوه بوصلة الطائرة ، حتى تثبت فى ذلك الاتجاه ، ومع القيادة الليلية ، واعتماد الطيار اعتمادًا رئيسيًا على البوصلة لتحديد اتجاهه ، كان من الطبيعى أن يتجه (أدهم صبرى) بطائرته نحو الجنوب ، فى اتجاه الاتحاد السوفيتى مباشرة ، وهو يتصوَّر أنه يتجه إلى الجنوب الغربى ، نحو (ستوكهولم) .

قال (هانز) فى إعجاب :

- يا للبساطة !

هتف (هال) فى حماس :

- بل قل يا للعبقرية !

ثم رفع كاسه ثانية ، مستطردًا :

- نخب السيِّد (شالوم) .. أذكى رجل (موساد) فى العالم .

جرع الجميع كئوسهم ، بعد أن ردَّدوا النخب خلفه ، وسألت (انجريد) (شالوم) فى اهتمام :

- لماذا لم تقرب كاسك يا (شالوم) ؟

ابتسم (شالوم) ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

- إننى لا أشرب الخمر أبدًا يا سيِّدتى .

هتفت فى دهشة :

- حقًا ؟ ! .. هل أقلعت عنها ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- بل لم أقربها فى حياتى قط .

ارتفع حاجباها فى دهشة حقيقية هذه المرة ، ثم لم تلبث أن انفجرت ضاحكة وهى تقول :

- ياللطرافة ! .. هذا يشبه أفلام السينما القديمة ، التى لم يعد يشاهدها أحد .. البطل المثالى ، الذى لا يشرب ولا يدخِّن .. قل لى يا عزيزى (شالوم) : هل تفعل هذا عن اقتناع .

ابتسم (شالوم) دون أن يجيب ، ثم أدار عينيه عنها وهو يقول بصوت مرتفع :

- أخشى أن أصدم مشاعركم أيها السادة ، ولكن على الرغم من أن مراقبينا قد أكدُّوا لنا أن طائرة (أدهم صبرى) قد عبرت المجال الجوى السوفيتى بالفعل ، منذ ما يقرب من نصف الساعة ، إلا أن هذا لا يعنى أن خطتنا قد نجحت .

هوت عبارته على رءوسهم كالصاعقة ، وحدّقوا فى وجهه بدهشة ، تمتزج بشىء من التوتر والخوف ، قبل أن يقول (هال) بصوت مبحوح :

- ماذا تعنى يا (شالوم) ؟

اجاب (شالوم) بصوت قوى :

- سبق ان اشرت إلى أن (ادهم صبرى) هذا ليس رجل مخابرات عادى ، وانه يمتلك عددًا لا باس به من المهارات المختلفة ، وهذا يعنى ان مجرّد اختراقه للمجال الجوى السوفيتى ، لا يعنى بالضرورة ، وقوعه فى قبضتهم .

قال (هانز) فى ضيق :

- لماذا تضفى على هذا الرجل صفات أسطورية يا سيّد (شالوم) ؟ .. ! كلنا نعترف بانه بارع بحق ، ولكنه ليس (سوبر مان)(*) .. هل تعلم ما الذى يفعله السوفيت ، مع طائرة تخترق مجالهم الجوى ، وترفض الاستجابة لنداءاتهم ؟ !

اوما (شالوم) براسه إيجابًا ، وهو يقول :

- نعم .. إنهم يرسلون مقاتلاتهم لإجباره على الهبوط .

قال (هانز) :

- عظيم .. هل تعتقد أن (ادهم) هذا يستطيع عندئذ رفض الانصياع لأوامرهم ، فلا يهبط حيث يقودونه ؟

عقد (شالوم) حاجبيه ، قائلاً :

(*) سوبر مان = شخصية ابتكرها (جوشاستر) و (جيرى سيجال) عام ١٩٣٧ م ، وهى لرجل جاء من كوكب اخر (كريبتون) ، واكتسب قوة خارقة على الأرض ، استخدمها لعمل الخير وتحقيق العدالة .

- لا يمكن التنبؤ أبدًا بما سيفعله (أدهم صبرى) ، فى أى موقف .

قال (هانز) فى حدة :

- إنه لن يتصدّى للمقاتلات السوفيتية بطائرة مدنية على الأقل .

صمت (شالوم) لحظة ، قبل أن يجيب فى بطء :

- لا .. لست اظنه يفعل هذا .

اندفع (ثوردال) يقول :

- وحتى لو فعل ، ونجح فى خداعهم ، وفرّ من مقاتلاتهم ، سينتقلون مباشرة إلى الخطوة التالية .

أشار (هال) بسبّابته ، قائلاً :

- صواريخ (سام - ٩)(*)

ضحكت (انجريد) ، وقالت :

- لا تقل لنا : إنه سيفلت من الصواريخ أيضًا !

صمت (شالوم) تمامًا ، واكتست ملامحه بقناع جامد ، وتركهم يواصلون ضحكهم وسخريتهم بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

- دعونا نفترض انه سينجح فى الإفلات من كل هذا .

التفتوا إليه فى دهشة واستنكار ، فتابع فى حدة :

- هذا أفضل من أن نفغر أفواهنا ذهولاً وارتياعًا ، إذا ما حدث هذا بالفعل .

(*) (سام - ٩) = صواريخ دفاعية (ارض - جو) ، من ابتكار السوفيت ، يمكنها إصابة اهدافها بدقة كبيرة ، ولقد استخدمنا احد اجيالها السابقة (سام - ٦) ، فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ م ، وكانت مفاجاة مذهلة للإسرائيليين .

انتقل الصمت إليهم جميعًا ، وتبادلوا نظرة تفيض بالقلق ، قبل أن تسأل (انجريد) :
- ماذا لو فعل حقًا ؟!
وهتف (هال) :
- هل سيعود لينتقم منا ؟!
مطَّ (شالوم) شفتيه ، وقال :
- كلاً .. لست أظن براعته - مهما بلغت - تتيح له العودة إلى هنا .. إنها فقط قد تساعده فى مراوغة السوفيت بعض الوقت ، قبل أن يقع فى قبضتهم .
ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :
- وعندئذ يحين دور عميلكم .
بدا القلق عليهم ، وتمتم (هانز) فى حذر :
- عميلنا ؟!
أومأ (شالوم) برأسه فى صرامة ، وهو يقول :
- نعم أيها السادة .. عميلكم السوفيتى .. عندما يصبح (ادهم) فى قبضته ، فعليه أن يتولَّى بنفسه عملية القضاء عليه .
ساد الصمت لثوان ، ثم ارتفع صوت (هانز) ، وهو يقول :
- ما لم ينسفه السوفيت مع طائرته أولاً .
هتف (شالوم) فى حدة :
- كلاً .. ليس الطائرة .
ثم التقى حاجباه ثانية ، وهو يضيف :
- الطائرة تحمل الجزء الأكبر من خطتنا ، وأكثر ما يهمنا هو أن يعثر عليها السوفيت سليمة .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ذئب مفترس ، مع استطرادته :
- بهذا فقط يتحقق الهدف كاملاً .
وتطلَّع الجميع إلى ابتسامته المخيفة فى قلق ، وقد انتابهم فى أن واحد شعور مقلق بالشفقة على (ادهم صبرى) ..
وعلى أنفسهم ..

* * *

حاصرت المقاتلات السوفيتية طائرة (ادهم) من أربعة اتجاهات ، وانبعث من جهاز اللاسلكى أمامه صوت خشن ، يقول باللغة الإنجليزية :
- إننا نتحدَّث إليك بالإنجليزية ، فى حالة عدم فهمك للروسية .. حدِّد هويتك فورًا ، واتبعنا إلى حيث نقودك ، وإلا فسنضطر لإطلاق صواريخنا عليك بلا تردُّد .
شعر (ادهم) بالحنق ، لأن جهاز اللاسلكى عاجز عن الإرسال ، وحاول أن يلوِّح بيده لقائد إحدى الطائرات السوفيتية ، إلا أن الظلام حال دون أن ينتبه السوفيت إلى إشاراته ، فتحرك إلى حيث تقوده المقاتلات ، وهو يتمتم :
- يا للأوغاد ! .. لقد أفسدوا جهاز اللاسلكى عمدًا ، حتى يضعونى فى هذا المأزق الحرج .
قالها ، وقبض على عجلة القيادة فى قوة بيديه ، ثم راح يحلّ جهاز اللاسلكى بيمناه ، فى محاولة لإصلاح الخلل فيه ، وإبلاغ السوفيت بموقفه ..
ولم يكن هذا سهلاً ..
كانت الطائرات السوفيتية التى تحاصره تنحرف إلى اليمين ،

فى طريقها إلى أحد المطارات الحربية على الأرجح ، وهو مضطر للانصياع لها ، واللاسلكى مثبت بلوحة القيادة جيدًا ..

ولكنه استجاب أخيرًا ..

وفى سرعة ، جذب (أدهم) اللاسلكى خارجًا ، وبحث باصابعه عن أسلاكه ، و ..

وفجأة ، تجمدت مشاعره كلها ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدق فى الأسلاك التى تتصل بمؤخرة جهاز اللاسلكى ، وفى ذلك الجسم الراقد فى قاع التجويف الخاص به ، فى لوحة القيادة ..

وفى هذه اللحظة فقط ، أدرك (أدهم) ما فعله به (هانز) ورفاقه ..

فذلك الجهاز ، أمام عينيه مباشرة ، لم يكن أبدًا أحد مكونات أى جهاز اتصال لاسلكى تقليدى ..

بل كان جهازًا خاصًا بالتجسس الجوى ..

جهاز تنحصر مهمته فى التصوير الليلى ، والتصنت على الإشارات والموجات العسكرية ..

ودون أن يفحصه ، كان (أدهم) واثقًا من أن الجهاز سيحوى حتمًا عددًا من الأفلام ، لكل المناطق التى مرت بها طائرته ، مع تسجيل لكل ما التقطته من إشارات ..

وبالنسبة للسوفيت ، كان هذا يكفى تمامًا لاتهامه بالتجسس ..

وربما لإعدامه ..

وتصاعد فى أعماق (أدهم) مزيج من الغضب والحنق ، والثورة ..

وبدأ عقله يدرس الموقف من اتجاه أخر ..

وبصورة جديدة تمامًا ..

ففى البداية ، وعندما أحاطت به المقاتلات السوفيتية ، كان يفكر فى محاولة إقناع السوفيت بحسن نواياه ، مستعينًا بالخلل الواضح فى البوصلة ..

وكان احتمال نجاحه فى هذا لا يتجاوز الثلاثين فى المائة ..

أما الآن ، فالاحتمال ينخفض إلى الصفر ..

وربما إلى ما هو أقل من هذا ..

وهذا يعنى أنه ، وعلى الرغم من المقاتلات التى تحاصره ، لا ينبغى له أن يستسلم قط ..

ومهما كان الثمن ..

ولكن محاولة الفرار من هذا الحصار ، بطائرة مدنية صغيرة ، يشبه السعى للانتحار المباشر ..

وفى أعماقه ، هتف (أدهم) :

- وما الفارق ؟! ..

وكان على حق فى هتافه هذا ؛ فلو تبع المقاتلات إلى أى مطار حربى ، سيتم إلقاء القبض عليه ، وفحص طائرته جيدًا ، طبقًا للإجراءات السوفيتية المعتادة ..

وسينكشف أمر جهاز الرصد والتجسس ..

هذا لو أنه الجهاز الوحيد ، الذى يختفى خلف لوحة القيادة ..

والسوفيت لا يحاكمون الجواسيس طويلاً ..

وأحيانًا لا يحاكمونهم إطلاقًا ..

فإما الإعدام فورًا ، أو الاعتقال مدى الحياة فى (سيبيريا) ..

وبالنسبة للعديدين ، يعدّ الحل الأوّل أكثر رحمة ..
ومن هذا المنطلق ، اتخذ (أدهم) قراره بالمقاومة ..
ووضعه موضع التنفيذ على الفور ..

وفى نفس اللحظة ، التى انحرف فيها سرب المقاتلات السوفيتى إلى اليمين ، استعدادًا للهبوط فى المطار الحربى ، انخفض (أدهم) بطائرته بغتة ، ثم أمال مقدِّمتها إلى أسفل ، وتركها تهوى على نحو عشوائى ، كما فعل بطائرة التدريب ، فى أثناء اختبارات (هانز) ..

وكانت مفاجأة حقيقية للمقاتلات السوفيتية التى هتف قائدها فى غضب :

- اللعنة ! .. إنه يحاول الفرار .

عدلّت المقاتلات اتجاهها ، وانطلقت خلف طائرة (أدهم) الصغيرة ، التى واصلت هبوطها العشوائى لمسافة طويلة ، جعلت قائد السرب السوفيتى يغمغم فى دهشة متوترة :

- ماذا يفعل هذا المجنون .. لو واصل الانحدار على هذا النحو ، سيرتطم بقمم الأشجار حتمًا .

ولكن (أدهم) استعاد سيطرته على الطائرة بغتة ، على مسافة أمتار قليلة من قمم الأشجار ، وأعاد إليها توازنها ، ثم انطلق بمحاذاة الأرض ، وبأقصى سرعة تمتلكها الطائرة ..

وهتف أحد السوفيت مبهورًا :

- هذا الرجل بارع بحق .. أرأيتم ما فعله ؟

انعقد حاجبا قائد السرب فى غضب ، وقال فى صرامة :

- كفّ عن الإعجاب به ، واستخدم صواريخك يا هذا .

انقسمت مقاتلات السرب إلى مجموعتين ، واصلت الأولى

طريقها إلى الأمام لتتجاوز طائرة (أدهم) ، ثم تدور لمواجهتها ، فى حين انقضّت عليه المجموعة الثانية ، وانطلقت ثلاث صواريخ نحوه فى آن واحد ..

وفى حزم ، هتف (أدهم) وهو يميل بالطائرة إلى اليسار فى عنف :

- تُرى هى يمكنك الصمود ؟ !

جاءت انحرافته فى اللحظة المناسبة تمامًا ، فتجاوزه الصاروخ الأوّل ، وواصل طريقه لينفجر وسط المستنقعات ، فى حين ارتطم الثانى بقمة إحدى الأشجار ، وانفجر على مسافة عشر أمتار فحسب ، فمال (أدهم) بسرعة إلى اليمين ، وانخفض جناح الطائرة على نحو مخيف ، ليتجاوزها الصاروخ الثالث بسرعة هائلة ، ويغوص فى مياه المستنقع ، قبل أن ينفجر ..

وفى إحدى مقاتلات المجموعة الثانية ، هتف سوفيتى :

- رائع .. هذا الرجل رائع .. لقد تصرّف ببراعة لا نظير لها .. أنا لم أر شيئًا كهذا فى حياتى قط .

قال زميل له فى انبهار :

- ولكن لماذا لم يقفز بمظلة الهبوط ، ويتخلّص من الطائرة كلها ؟ ! .. إنه يعلم أننا سنظفر بها حتمًا .. لن يمكنه أبدًا التفوّق على سرب كامل من المقاتلات الحديثة !!

لم يكن الطيار السوفيتى يدرك أن (أدهم) ليس باستطاعته أبدًا أن يتخلّى عن الطائرة ، ويقفز بمظلة الهبوط ..

هذا لأنه لم تكن هناك مظلة هبوط إطلاقًا ..

فتلك الحقيبة ، التى يفترض أن تحوى مظلة الهبوط

الاحتياطية ، لم تكن تضمّ سوى كومة من الخرق البالية ، التى لا تصلح حتى لهبوط فار صغير من طائرة ورقية ، على ارتفاع ستة أمتار عن الأرض ..

لقد أحسن الأوغاد تدبير خدعتهم بحق ..

وعلى الرغم من براعــة (أدهم) المدهشــة ، التى بهـرت الطيارين السوفيت ، إلا أنه لم يكد يتجاوز الصواريخ الثلاثة الأولى ، وينجو منها بمعجزة ، حتى فوجئ بمقاتلات المجموعة الأولى أمامه مباشرة ، وبصاروخين من صواريخها ينطلقان نحو طائرته ..

وانخفض (أدهم) بسرعة هذه المرة ، و ...

وارتطمت طائرته بقمم الأشجار ..

ومع هذا الارتطام ، تحطُم الجناح الأيسر للطائرة ، فمالت إلى اليمين فى عنف ، وارتطم ذيلهـا بجذع شجـرة أخـرى ، وتحطُم بدوى مخيف ..

ثم وجد (أدهم) نفسه يهوى بين الأشجار ، التى ارتطمت بهـا الطائرة مرات ومـرات ، فى طريقهـا إلى الأرض بسرعـة مخيفة ..

ولم يعد هناك مفرّ من السقوط هذه المرة ..

وبسرعة تفوق سرعة البرق ، تحرك عقل (أدهم) ، وأدرك أنه هالك لا محالة ، فجذب حزام الطوارئ ، وهو يهتف :

- ليس بعد أيها الأوغاد .

وانتزع نفسه من مقعده ، وانطلق يعدو نحو باب الطائرة ، الذى تحطُم تمامًا .

وترك خلفه فجوة كبيرة ، والطائرة تواصل اندفاعها نحو الأرض .

ثم حدث الارتطام ..

ارتطم باطن الطائرة بالأرض الطينية فى عنف ، ودارت حول نفسها على نحو مخيف ، وهى تنزلق نحو المستنقع ، وترتطم بكل مـا يعترض طريقها ، ومن خلفها تدوى ثلاثة انفجارات عنيفة ، قبل أن تتوقف عند حافة المستنقع ، وقد شملها صمت وسكون رهيبين ، لا يوحيان إلا بأمر واحد ..

أنه لم يعد بها أثر للحياة ..

أدنى أثر ..

وعبر جهاز اللاسلكى ، قال قائد السرب فى حزم :

- الطائرة المعتدية سقطت فى منطقة المستنقعات .. انتهت مهمة السرب ، وسيعود إلى القاعدة .

وعادت المجموعتان تتحدان فى سرب واحد ، انطلق مبتعدًا عن المكان بسرعة كبيرة ..

ومن موقعه ، راقب (أدهم) ابتعاد السرب فى اهتمام ..

كانت سرعة استجابته المدهشة قد أنقذت حياته هذه المرة أيضًـا ، عندمـا وثب خـارج الطائرة ، وتعلق بأحـد أغـصـان الأشجار ، قبل ارتطام الطائرة بالأرض مباشرة ..

ولكنه كان يعلم أن هذا لا يعنى أبدًا أنه قد نجا ..

فالسوفيت لا يهدءون أبدًا ، عندمـا يتسلَل شخص مـا عبر حدودهم ، أو يخترق مجالهم الجوى ..

وخـاصـة عندمـا يحصلون على أدلة تثبت أنه فعل هذا لأغراض التجسُس ..

وما من قـوة فى الأرض ، يمكن أن تقنعـهم بالتـوقُّف عن البحث عنه ، قبل العثور عليه ، أو على جثته ..

وهو يعلم أن الأوامر قد صدرت بالفعل حتمًا ، لإرسال فرقة للبحث عنه ، وعن حطام الطائرة ؛ فهذا هو الأمر الوحيد ، الذى يتحرك فيه السوفيت بالسرعة المطلوبة ..

وتلك الأضواء التى يلمحها وسط الأشجار ، تشير إلى أن عملية البحث قد بدأت بالفعل ..

وهذا يعنى أنه قد سقط بالقرب من منطقة عسكرية ..

وأن القتال قد انتقل فقط من الجو إلى الأرض ..

الأرض التى لا تحمل ذرة واحدة من الشفقة أو الرحمة ، مع أى دخيل ..

الأرض السوفيتية .

* * *

نهاية القسم الأول



٩ - المطاردة ..

اندفع (يورى جلجانوف) ، رجل المخابرات السوفيتى ، مع زميلته (هيلجا مارونسكى) ، نحو هليوكوبتر حربية ، تدور مراوحها بهدير قوى ، استعدادًا للإقلاع ، ووثب الاثنان داخلها ، فارتفعت على الفور ، و (هيلجا) تسأل :

– لماذا تفترض أن تلك الطائرة ، التى سقطت بالقرب من (تالين) ، طائرة تجسُّس يا (يورى) .. لماذا لا تكون مجرَّد طائرة تجارية ضلَّت طريقها إلى هناك ؟

ابتسم (جلجانوف) فى سخرية ، وهو يقول :

– وهل تتصوَّرين أن طائرة التجسُّس ستخترق مجالنا الجوىَ ، وهى تحمل على جانبها كلمة (تجسُّس) بحروف كبيرة ، أم أنهم سيضعون على نوافذها الأمامية منظارًا أسود للتعمية ؟!

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى غضب :

– لا داعى للسخرية .. أجب فحسب .

رمقها بنظرة جانبية ، والهليوكوبتر تشقَّ طريقها نحو الشمال ، وقال :

– اختراق هذه الطائرة لمجالنا الجوى لم يكن مباغتًا .. كانت لدينا معلومات مسبقة بأن هذا سيحدث ، حتى أننا نبهنا كل قواعدنا على الحدود الشمالية ، وأعلنا فيها الطوارئ القصوى .

هتفت فى دهشة :

– لديكم معلومات مسبقة ؟! .. لماذا تتحدَّث وكأننى لست أنتمى إليكم ؟! .. ثم من أين حصلتم على هذه المعلومات ؟ وكيف ؟!

ابتسم فى خبث مزهو ، وغمغم :

– لدى مصادرى .

ثم استطرد بسرعة ، قبل أن يمنحها فرصة للتعليق :

– المهم أننا كنا نتوقَّع ظهور طائرة تجسُّس ، الليلة بالتحديد ، ولهذا طلبت إعداد الهليوكوبتر ، وأمرت قائدها بأن يتأهَّب للإقلاع فى أية لحظة .

أدركت من أسلوبه أنها لن تحصل على الكثير ، فانعقد حاجباها الكثَّان فى غضب ، وتراجعت فى مقعدها ، ولاذت بالصمت بضع لحظات ، ثم لم يلبث فضولها الأنثوى أن غلب غضبها ، فسألت فى اهتمام :

– أهى طائرة تجسُّس أمريكية ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، قبل أن يجيب فى اقتضاب صارم :

– بل مصرية .

أدهشها الجواب بشدة ، فاعتدلت بحركة حادة ، هاتفة :

– مصرية ؟! .. ومنذ متى يفعل المصريون هذا ؟

أجاب فى صرامة :

– لكل شىء بداية .

هزَّت رأسها فى قوة ؛ لتعلن عدم اقتناعها ، قبل أن تقول :

– هناك شىء لا يبدو لى منطقيًا ، فى هذا الأمر .

قال (جلجانوف) فى صرامة أكثر :

– معلوماتنا مؤكَّدة فى هذا الشأن .

مطَّت شفتيها ، دون أن تجيب ، فتابع فى حزم :

– إننا حتى نعرف اسم الجاسوس الذى يقود الطائرة .

جذب قوله اهتمامها فى شدة ، فسألت :

- من هو ؟

التقط نفسًا عميقًا ، ورمقها بنظرة جانبية ، قبل أن يجيب :

- (أدهم صبرى) ؟

التقى حاجباها الكثّان فى شدة ، وهى تقول فى دهشة عارمة :

- (أدهم صبرى) ؟! .. أتقصد ذلك الرجل ، الذى ...

قاطعها فى حزم :

- نعم .. أقصد ذلك الرجل ، الذى يثير جنون رؤسائنا ، والذى لم يشتبك معه جهاز مخابرات ، فى معركة ما ، إلا وانهزم أمامه ، كما لو أنه يواجه جيشًا جرارًا .. إنه نفس الرجل يا عزيزتى (هيلجا) .. (أدهم صبرى) .

بدا مزيج من الدهشة والانبهار على وجهها ، قبل أن تقول :

- (أدهم صبرى) يقود طائرة تجسُّس ؟! .. عجبًا ! .. ولماذا يقدم رجل فذّ مثله على عمل تقليدى كهذا .

مطّ شفتيه ، وهزّ كتفيه ، قائلاً :

- ربما كانت للمصريين أسبابهم .

ثم استطرد فى صرامة :

- ولكننا سنلقنهم درسًا قاسيًا ، لا ينسونه أبدًا ، ونكبّدهم خسارة فادحة ، عندما نسحق رجلهم المفضّل على أرضنا .

قالت فى توتر :

- لو أن خصمنا هو بالفعل (أدهم صبرى) ، فلن يكون من السهل أبدًا أن نظفر به ، فما بالك بسحقه !!

هتف فى حدة :

- لقد سقطت طائرته فى منطقة المستنقعات على أرضنا .

أجابته فى صرامة :

- ولو .. ما درسناه عن (أدهم صبرى) هذا يؤكّد أنه قادر على القتال كالليث ، أيًا كان موقعه ، ومهما اختلفت طبيعة أرض الصراع .

زمجر (جلجانوف) ، قائلاً :

- إلا الأرض السوفيتية .. إنها تلتهم كل من يقترب منها .. ألا تعرفين ما الذى فعلته فى (بونابرت) و (هتلر)[*] .. ثم إننا قد اتخذنا كل الإجراءات اللازمة للسيطرة على الموقف ، فور سقوط الطائرة ، فحاصرنا المنطقة كلها بثلاث فرق من الجنود ، وفرقة من الكوماندوز ، وسنحوّل المستنقعات كلها إلى شعلة من الضوء ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة وحشية شرسة ، قبل أن يستطرد :

- لقد انتهى أمر (أدهم صبرى) هذه المرة .. انتهى كما انتهى أمر كل الغزاة السابقين ، الذين سالت دماؤهم على الثلوج .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

- الثلوج السوفيتية .

واتسعت ابتسامته أكثر ..

* * *

(*) على الرغم من انتصاراته الساحقة ، لم ينجح (نابليون بونابرت) فى احتلال (روسيا) ، بسبب الطقس الشديد البرودة ، الذى لم يعتده جنوده ، فاضطر للانسحاب منها ، فى مشهد مأسوى ، نقلته إلينا الروايات الأدبية باقتدار ، أما (أدولف هتلر) فقد بدأ جيشه النازى مرحلة النهاية ، بعد هزيمته على مشارف (موسكو) ، واضطراره للانسحاب أيضًا ، بسبب البرودة القارصة ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن الثلوج هى درع (روسيا) الحقيقى ..

شعر (أدهم) بدهشة حقيقية ، عندما لمح أضواء مصابيح الجنود السوفيت ، وهى تقترب منه ، على الرغم من أنه لم تمض دقائق بعد على سقوط طائرته ، وغمغم فى شىء من السخرية العصبية :

- عجبًا ! .. وكأنما كانوا ينتظرون قدومى على أحرّ من الجمر .

كانت الأضواء تنبعث من كل جانب ، على نحو يوحى بأنهم يحاصرونه بخطة محكمة ، تم وضعها والاستعداد لها من قبل ، وعلى الرغم من هذا ، فلم يسمح للخوف أو الغضب بالسيطرة على أعصابه ، وهو يفكّر فى سرعة ، بحثًا عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الحرج ..

وفى خفة ، قفز من الغصن الذى يتعلّق به إلى الأرض ، وذهنه يرتب الأمور على نحو منطقى ..

وكان هدفه الأول هو الطائرة ..

فالشىء الوحيد الذى سيثير جنون السوفيت حتمًا ، هو وجود أجهزة الرصد والتجسّس داخل الطائرة ، وسيدفعهم هذا إلى الاستماتة فى مطاردته ، وسيجبرهم على مواصلة البحث عنه دون توقّف ، مهما كانت الأسباب ..

لذا ، فالخطوة المنطقية الأولى هى التخلّص من دليل الإدانة .. من الطائرة ..

وفى سرعة ، اتجه نحو الحطام ، وانتزع غطاء خزان الوقود ، وتمتم :

- وداعًا أيتها الطائرة الجديدة .

وبضربة سريعة مدروسة ، أصاب جسم الخزّان بالغطاء المعدنى ، فانبعثت شرارة صغيرة ، و ..

واشتعل الوقود ..

وبكل سرعته ، انطلق (أدهم) يعدو مبتعدًا ..

ومن خلفه ، دوى الانفجار ..

ومع موجة التضاغط العنيفة ، التى ولّدها الانفجار ، اندفع جسد (أدهم) إلى الأمام ، وسقط على وجهه فوق الجليد ، الذى يغطى مساحات واسعة من الأرض المحيطة بالمستنقعات ، وزحف جسده لمتر أو أقل قليلاً ، قبل أن يتوقّف ، وينهض واقفًا على قدميه ، ويتطلّع إلى الطائرة ، التى اشتعلت فيها النيران ..

وكان له هدف مزدوج من فعل هذا ..

أولاً : سيتخلّص إلى حد ما من دليل إدانته ، الذى يكمن فى أجهزة التجسس ، المخفاة خلف لوحة قيادة الطائرة ..

وثانيًا : سيضع فى رءوس مطارديه احتمالاً ، ولو ضئيلاً ، بأنه قد لقى مصرعه مع هذا الانفجار ، فتخلو عملية البحث عنه من الحماس الشديد على الأقل ..

وهكذا لا يتبقّى أمامه سوى سؤال واحد ..

أين يمكن أن يختبئ ؟! ..

كانت الأضواء تقترب أكثر وأكثر ، من البقعة التى اندلعت فيها نيران الطائرة المحترقة ، وعيناه تدوران فيما حوله ، بحثًا عن مكان يصلح للاختباء ..

وكان هذا أمرًا محيرًا بحق ..

فالمكان كله عبارة عن أرض طينية ، غطى الجليد معظم أجزائها ، وتناثرت فيها أشجار عالية ، على نحو عشوائى ،

تفصل بين كل منها والأخرى مساحة واضحة ، لا تصلح للاختباء ، كما أن جذوعها ليست بالضخامة الكافية لإخفائه ..

أما المستنقع القريب ، وهو واحد من عدد كبير من المستنقعات ، تنتشر فى المنطقة ، فقد غطت قطع الجليد أجزاء كبيرة من سطحه ، ولم تترك سوى بقع صغيرة ، لا تكفى للغوص ..

وحتى لو أنها تكفى ، فمن يمكنه احتمال مياه بلغت درجة برودتها هذا الحد ؟! ..

وكان المأزق شديدًا بالفعل ..

والحصار يضيق أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومن بعيد ، بدأت أصوات الجنود تتناهى إلى مسامعه ، وهم يتحدثون بالروسية ، وضباطهم يلقون أوامرهم فى صرامة ، ويطالبونهم ببذل قصارى جهدهم ، لإلقاء القبض على الجاسوس ، الذى أسقطت طائرته ، ويهددونهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، لو أنهم فشلوا فى هذا ..

وبعد دراسة سريعة ، لم يجد (أدهم) أمامه سوى سبيل واحد ..

وفى سرعة وخفة ، راح يتسلق إحدى الأشجار العالية ، حتى بلغ قمتها ، فاختفى بين أغصانها المتشابكة ، وكتم أنفاسه ، وجلس ينتظر ..

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى ظهر الجنود السوفيت ..

ومنذ اللحظة الأولى ، أدرك (أدهم) أن الخروج من هذا المأزق لن يكون سهلاً أبدًا ..

فعدد الجنود كان أضخم مما توقَّع بكثير ، حتى أنهم يضيقون دائرة الحصار فى بطء ، وعلى نحو أشبه بسوار محكم ، بحيث لا يمكنه أن يهاجم أحدهم ، دون أن يلمحه اثنان آخران على الأقل ..

ثم إنهم لا يتحركون جميعًا فى اتجاه مركز دائرة الحصار .

لقد رتبهم قادتهم فى حلقات متتالية ، يقل نصف قطر كل واحدة عن سابقتها ، بحيث يكون الخروج من الدائرة عملاً أشبه بالمستحيل ..

بل هو المستحيل ذاته ! ..

ولم يكن أمام (أدهم) ، والحال هكذا ، سوى أن يقبع فى مكانه ..

وينتظر ..

ومن مكمنه ، رأى الضباط والجنود يقتربون من الحطام المشتعل ، وسمع أحد الضباط يأمر الجنود بإطفاء النيران ، فأسرع فريق منهم إلى المكان ، حاملين أسطوانات إطفاء محدودة ، وكأنهم استعدوا لهذا الموقف بالذات ، وراحوا يطفئون النيران فى سرعة ومهارة ، حتى خمدت تمامًا ، والضابط يقول بصرامته السوفيتية التقليدية :

- أسرعوا .. لابد أن ننقذ ما يمكن إنقاذه ، طبقًا للأوامر ، فالمعلومات تؤكِّد أنها طائرة تجسُّس .. أسرعوا .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يستمع إلى العبارة الأخيرة ..

إذن فقد كانت هناك معلومات مسبقة عن وصول طائرة تجسُّس ! ..

يالّلأوغاد ! ..

الأمر كله كان خدعة مدبَّرة إذن ! .

حديث (هانز) ، والعرض السخى ، وعملية تهريب الأسلحة ، وتغيير البوصلة ، والطائرة الجديدة ..

كل شىء ..

وهو سقط فى الفخ كالغرّ الساذج ..

على الرغم من حذره ، وخبرته ، ومهارته ، لم يستطع تصوّر الموقف كما ينبغى ..

وها هو ذا فى موقف لا يُحسد عليه أبدًا ..

وفى أرض قد لا يكتب له الخروج منها قط ..

وفى أعماقه ، تولّد غضب هادر ..

غضب جعله يقسم أن يدفع (هانز) ورفاقه ، من أفراد الشبكة الاسكندنافية ، الثمن غاليًا ، لو استطاع العودة إليهم ..

ولكن هذه العودة بدت له ، فى تلك اللحظة بالذات ، أمرًا عسيرًا بعيد المنال ..

وإلى أقصى حد ..

لقد انتهى السوفيت من إطفاء النيران ، وبدأ الضباط ينظمون صفوف جنودهم ، لمواصلة عملية البحث عنه ، وتضييق الحصار أكثر وأكثر ..

وبنظرة سريعة ، قدّر (أدهم) عدد الجنود المشاركين فى الحصار بأكثر من فرقتين كاملتين ، ولمح بينهم عددًا من جنود الكوماندوز السوفيت ، الذين تم تدريبهم بحيث تُنتزع الرحمة

من قلوبهم ، وتحل محلها شراسة وحشية ، وقوة مدهشة على تحمُّل الألم ، بالإضافة إلى مهارات ممتازة فى أساليب القتال اليدوى ، وفى استخدام مختلف أنواع الأسلحة ..

باختصار .. كان هناك جيش سوفيتى صغير يحاصره من كل الجوانب ..

وفى اهتمام ، تعلّقت عيناه بضابط شاب ، انهمك فى توجيه بعض الأوامر ، لعدد من الجنود الذين التفّوا حوله فى حلقة محدودة ، ثم لم يلبثوا أن تفرّقوا ، وقد أمسك كل منهم مسدسًا من نوع خاص ، رفع فوهته إلى السماء ، ثم أطلقه بدوى مكتوم ..

وأدرك (أدهم) بسرعة طبيعة القذائف ، التى أطلقتها تلك المسدسات ، فتراجع بحركة حادة ، ليختفى بين الأغصان ، فى نفس اللحظة التى دوت فيها عدة فرقعات فى السماء ، من جراء تلك القذائف ، قبل أن ينبعث منها ضوء مبهر ، أحال ظلمة الليل إلى نهار مشرق ..

وفى بطء ، راحت قذائف الضوء المبهر تهبط ، بوساطة مظلات صغيرة ، لتضىء المكان لأطول وقت ممكن ..

وضاقت الحلقة أكثر وأكثر ..

وشعر (أدهم) أن فرصته فى النجاة تنخفض ، وتنخفض ، وتنخفض ، مع كل خطوة جديدة يقدم عليها السوفيت ، وتعلّق بصره بعدد من الجنود ، الذين وصلوا إلى المكان ، على متن دراجات آلية خاصة ، مجهّزة بزحافات إضافية للجليد ، وقفزت إلى ذهنه فكرة مجنونة ..

والعجيب أنها كانت ، وعلى الرغم من جنونها ، منطقية للغاية ..

لقد سأل نفسه : لماذا ينتظر ؟ !

ربما لا يلمحونه الآن ، ولكن هذا سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً ..

إنه يعرف السوفيت جيداً ..

صحيح أنهم عصبيون متزمتون ..

ولكنهم ليسوا أغبياء ..

ليسوا كذلك أبدًا ..

إنهم سيدركون - وبسرعة - أنه لم يلق حتفه داخل الطائرة ، وأنه ليس فى مكان ما حولهم ، وسيتطلّعون حتمًا إلى الأشجار ..

وسيبحثون عنه هناك ..

وسيكون عندئذ قد فقد - بالفعل - أى أمل فى النجاة ..

إذن فلا مبرِّر للانتظار ..

ولا للبقاء ..

وكعادة (أدهم) ، لم تكد الفكرة تستقر فى رأسه ، وتصادف هوى فى نفسه ، حتى وضعها على الفور موضع التنفيذ ..

ودون أن يضيع ثانية واحدة إضافية ..

وقفز ..

كان الجنود السوفيت منهمكين فى البحث عنه بين الأشجار عندما فوجئوا به ينقضّ على رءوسهم من أعلاها كالصاعقة ..

وفى نفس الثانية ، التى انقضّ فيها ، حطّمت قبضته فك أحدهم ، وركلت قدمه اليمنى سلاح الثانى ، فى حين قفزت اليسرى لتغوص فى معدة الثالث ..

وصرخ أحد الضباط :

- ها هو ذا .

ومع صرخته ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية نحو (أدهم) فى سرعة ..

وانطلقت النيران ..

وبطبيعته الفطرية ، يكره (أدهم) فى المعتاد القتل والتدمير ، ولا يميل إلى اللجوء إليهما إلا مضطرًا ، ولكن فى هذا الموقف بالذات لم يكن لديه خيار ..

لقد كانت معادلة بسيطة للغاية ..

إما هم أو هو ..

ولم يكن الاختيار عسيرًا ..

وبسرعة تفوق سرعتهم مجتمعين ، اختطف (أدهم) المدفع الآلى ، الخاص بأحد الجنود الثلاثة ، الذين اشتبك معهم منذ لحظة واحدة ، ثم ألقى نفسه أرضًا ، وراح يطلق النار بدوره ..

ومع اللحظة الأولى ، أدرك السوفيت أى خصم يواجهون ..

لقد أصابت كل رصاصة انطلقت من المدفع هدفها بالضبط ، وكأنما كانت معنونة باسمه ، وتساقط الجنود كالذباب ، وهم يصرخون ويتأوهون ، على الرغم من أن أحدهم لم يصب فى مقتل ..

وقبل أن ينمحى أثر مفاجأة القتال الأوّل ، قفز (أدهم) واقفًا على قدميه ، وانطلق يعدو نحو أحد الجنود ، راكبى الدراجات الآلية ذات الزلاجات ، ووثب يركله فى وجهه ، ويلقيه عن متن دراجته ، وهو يقول :

- معذرة يا هذا ، ولكننى مضطر لاستعارتها .

وفى غضب هادر ، هتف ضابط سوفيتى :

- أوقفوه .. لا تسمحوا له بالفرار .

أدار (أدهم) محرك الدراجة ، وهو يستدير إلى حيث يقف ذلك الضابط ، ويطلق نيران المدفع الآلى فوق الرءوس فى غزارة ،

فانبطح الجميع أرضًا لتفادى رصاصاته ، وخاصة بعدما رأوا من براعته المدهشة فى إصابة أهدافه ..

وفى نفس اللحظة ، التى انخفضت فيها رءوسهم ، انطلق هو بالدراجة الآلية ..

واحتقن وجه الضابط السوفيتى ، ونهض يصرخ فى ثورة ، وهو يشير إليه :

- أطلقوا النار .. لا أريده حيًا .

انطلقت رصاصات الجنود خلف الدراجة الآلية فى غزارة ، وشعر (أدهم) ببعضها يرتطم بجسمها ، وبرصاصة تغوص فى ساقه اليسرى ، إلا أن هذا لم يوقفه لحظة واحدة ، وإنما واصل انطلاقه بين الأشجار بسرعة كبيرة ، وهو يتفاداها ، ويدور حولها بمهارة مدهشة ..

وفى ثورة ، صرخ ضابط آخر :

- لا يمكن أن تسمحوا له بالفرار .. أين رجال الكوماندوز ؟

ولم تكن هناك حاجة فعلية لصرخته هذه ..

ففى نفس اللحظة التى انطلق فيها (أدهم) بالدراجة الآلية بين الأشجار ، انطلق رجال الكوماندوز الستة من راكبى الدراجات خلفه ..

وكانت مطاردة رهيبة ، بين الأشجار العالية ، وفوق الجليد السوفيتى ..

مطاردة بين محترفين ..

وانطلقت رصاصات رجال الكوماندوز السوفيت الستة نحو دراجة (أدهم) الذى انطلق بها بأقصى سرعتها ، على الرغم من صعوبة المكان ، وانتشار الأشجار به على نحو عشوائى ..

ولأنه لم يكن ينطلق أبدًا فى خط مستقيم ، فقد أخطأته كل الرصاصات تقريبًا ، وخاصة عندما يدور حول جذع شجرة ، أو ينطلق بزاوية حرجة بين جذعين آخرين ..

كان يثبت مهارة مدهشة فى القيادة ، وقدرة فذة على التحكُّم فى مساره واتزانه ، على الرغم من أنه لم يقد مثل هذه الدراجات الآلية الجليدية من قبل إلا نادرًا ، ومن أن مطارديه تلقوا تدريبات طويلة ومكثفة عليها ، قبل أن يلتحقوا بالعمل كرجال كوماندوز محترفين ..

ولأن الانطلاق بهذه السرعة ، وفى مكان كهذا ، كان أمرًا شديد الصعوبة بالفعل ، فقد فشل أحد رجال الكوماندوز الستة فى تفادى جذع شجرة ما بالسرعة المناسبة ، فارتطم به فى عنف ، وطار عن متن دراجته الآلية لثلاثة أمتار ، قبل أن يسقط فوق الجليد ، ويندفع جسده فوقه لثلاثة أمتار أخرى ، ثم يرتطم رأسه بجذع شجرة ثانية ..

أما الخمسة الآخرون ، فقد واصلوا المطاردة ، وهم يطلقون نيران مدافعهم نحو (أدهم) ، فى محاولة مستميتة لاصطياده ..

ثم لاح ذلك المستنقع بغتة ..

كان يعترض طريق (أدهم) ، على مسافة تقلّ عن عشرة أمتار ، ويمتدّ لمساحة واسعة ، وقد تناثرت على سطحه كتل الجليد السميكة ، وخلت أجزاء أخرى منها ، فبدت منها مياهه القذرة ، على الضوء الباهت ، القادم من بعيد ، من المصابيح الصناعية فى السماء ، والتى بدا ضوؤها يخبو تدريجيًا ، وهى تواصل هبوطها بالمظلات الصغيرة ..

ولم يكن هناك مجال للتوقُّف ، فالتوقف معناه أن تصيبه

رصاصات مطارديه الشرسة ، وأن يصبح هدفًا سهلاً لمهارتهم فى التصويب على الأجسام الثابتة ..

وهو يعلم أنه من المستحيل أن يخطئ مثلهم إصابة هدف مثله ، عندما يتوقَّف بغتة ، أو يستدير لمواجهتهم ..

وهذا يعنى أنه ليس أمامه سوى الاستمرار ..

وفوق قطع غير مترابطة من الكتل الجليدية ..

ولأنه اتخذ قراره بسرعة البرق ، فإن (أدهم) لم يتوقَّف لحظة واحدة ، وإنما زاد من سرعة دراجته نسبيًا ، وقفز بها من الأرض المغطاة بالجليد ، إلى الكتل الصلبة على سطح المستنقع ..

وكان المشهد مبهرًا بحق ..

لقد انطلقت الدراجة تثب من كتلة جليدية إلى أخرى ، فى ليونة مدهشة ، كما لو كانت حجرًا أملس ، ألقاه أحدهم أفقيًا فى براعة ، فوق سطح الماء ، من زاوية حادة ، فراح يتقافز فوقه فى اندفاعته إلى الأمام ..

ولأن المشهد كان مبهرًا للغاية ، فقد اتسعت عينا اثنين من رجال الكوماندوز ، وضغطا فرامل دراجتيهما بحركة غريزية ، قبل أن يبلغا المستنقع ، فتوقَّفت الدراجتان بغتة ، وانزلقتا على الجليد بفعل القصور الذاتى ، ثم انقلبتا براكبيهما فى عنف ..

أما الدراجات الثلاث الأخرى ، فقد انطلق بها راكبوها فوق الكتل الجليدية ، وقد وقر فى نفوسهم أنه مادام (أدهم) قد فعلها ، فهم قادرون أيضًا على فعلها ..

والواقع أن اثنين منهم نجحا فى هذا بالفعل ..

وبنفس مهارة (أدهم) تقريبًا ..

أما الثالث ، فقد أخطأ مساره مرة واحدة ، بفعل السرعة التى ينطلق بها ، وبدلاً من أن تثب دراجته الآلية إلى الكتلة الجليدية التالية ، سقطت فى مياه المستنقع المثلَّجة ، وغاصت فيها كالحجر ..

وهكذا عبر (أدهم) المستنقع ، وقد انخفض عدد مطارديه من سته إلى اثنين فحسب ..

ولكن المطاردة لم تتوقَّف بعد ..

وفى حزم ، ضغط أحد المطاردين زر جهاز الاتصال ، المثبت فى دراجته الآلية ، وقال :

- مازالت المطاردة مستمرة .. فقدنا ثلثى الفريق حتى هذه اللحظة .. الهدف يتجه نحو البقعة (٧ - د) ، على متن واحدة من دراجاتنا البخارية .. استعدوا لملاقاته ..

لم يستقبل جهاز الاتصال فى دراجة (أدهم) هذه الرسالة ؛ لأن السوفيتى استخدم موجة اتصال خاصة ، استقبلها فريق من الكوماندوز ، عند البقعة (٧ - د) ، فتاهبُّوا لاعتراض طريق (أدهم) ، واستقبلها أيضًا جهاز اللاسلكى فى الهليوكوبتر ، فانعقد حاجبا (جلجانوف) فى شدة ، فى حين هتفت (هيلجا) فى دهشة :

- المطاردة مستمرة ؟! .. إذن فقد نجا (أدهم صبرى) من الحصار الأوَّل بالفعل ؟!

لم يجب (جلجانوف) ، وارتسم على ملامحه مزيج من الغضب والنقمة ، وهو يربِّت على كتف الطيَّار ، قائلاً :

- انطلق إلى البقعة (٧ - د) مباشرة .

أطاعه الطيَّار دون مناقشة ، و (هيلجا) تقول فى شىء من الشماتة :

- لقد فقدوا ثلثى فريق المطاردة .
التفت إليها (جلجانوف) بحركة حادة ، قائلاً فى غضب :
- إلى أى فريق تنتمين يا (هيلجا) ؟
أجابته بسرعة :
- إلى فريقنا بالطبع يا (يورى) ، ولكننى لا أستطيع إخفاء دهشتى لبراعة ذلك الرجل .
لوَّح (جلجانوف) بذراعه كلها فى حدة ، هاتفًا :
- هراء .. ليست مسالة براعة .. إنه محظوظ فحسب .
كادت تنفجر ضاحكة فى سخرية ، ولكنها تماسكت فى اللحظة الأخيرة ، وسيطرت على انفعالها تمامًا ، وهى تقول :
- محظوظ ؟ ! .. هل تعتقد أن الرجل الذى ينجح فى الفرار من حصار حلقى ، هو مجرد رجل محظوظ ؟
قال فى عصبية :
- سترين .
كان ينقم عليها بشدة ، لأنها جرؤت على البوح بما يمزِّق كرامته بالفعل ؛ فهو يدرك مثلها أن ما فعله (أدهم) ، حتى هذه اللحظة ، يشفُّ بالفعل عن براعة حقيقية ، وجراة ومهارة مدهشتين ، ولكنه كان يامل أن تخذله مهارته وبراعته ، عندما يفاجئه الرجال ، عند البقعة (٧ - د) ..
وعندما تجاوزت الهليوكوبتر قمم مجموعة من الأشجار ، لاحت لها مساحة خالية كبيرة ، يشقُّها الطريق الوحيد الصالح لسير الدراجات الآلية ، وبدت لهم فرقة الكوماندوز من بعيد ، وهى تعترضه بسيارة نصف مصفحة ، ودستة من الجنود بالمدافع الآلية ، عند البقعة (٧ - د) ..

ومن الناحية المضادة ، اتضحت لهم دراجة (أدهم) ، وهى تنطلق نحو البقعة ذاتها بسرعة كبيرة ، وخلفها الدراجتان المطاردتان ..
وفى لهفة حقيقية ، هتفت (هيلجا) :
- ها هو ذا !
رمقها (جلجانوف) بنظرة غاضبة ، وقال محتدًا :
- لست أدرى لماذا يلوح لى أحيانًا ، أيتها النقيب (مارونسكى) ، أنك شديدة الإعجاب بهذا الرجل .
كان يتوقَّع منها أن تنكر هذا أو تستنكره ، أو تهبَّ للدفاع عن نفسها ، ودفع هذه التهمة عنها ، إلا أنه فوجئ بها تجيب فى لهجة جافة ، تحمل نبرة تحد :
- بالتأكيد .. أنا معجبة به للغاية .
هتف بدهشة غاضبة :
- إنه عدونا .
هزَّت كتفيها ، قائلة :
- ومن قال : إنه من الضرورى ألا تعجب بخصمك ؟ ! .. قاتله بكل قوتك ، ولكن اعترف له بالمهارة والبراعة .. هذا أسلوبى .
قال فى حدة غاضبة :
- هكذا .
ثم مطَّ شفتيه بشدة ، مستطردًا :
- فليكن أيتها النقيب (مارونسكى) .. سنناقش هذا عند عودتنا إلى القاعدة .
وصرخ مضيفًا :
- وبصفة رسمية .

هزت كتفيها مرة أخرى فى لا مبالاة ، وأشاحت بوجهها عنه ، فكظم غيظه لحظات فى صعوبة ، ثم لم يلبث أن التقط بوق جهاز اللاسلكى ، وأفرغه عبره ، وهو يقول فى حدة :

- هنا الرائد (جلجانوف) ، من المخابرات السوفيتية .. لاتوجد أوامر بإلقاء القبض على الجاسوس حيًا .. أطلقوا النار فور رؤيته .

نطقها وهو يرمق (هيلجا) بنظرة شامتة متشفية ، وكأنما يقصدها وحدها بهذا الأمر المباشر ، ولكن فريق الكوماندوز عند البقعة (٧ - د) استقبل الأمر على نحو رسمى تمامًا ، فاستعدَّ الجميع بمدافعهم الآلية ، وصوبوها إلى الطريق ، و ..

ولاحت دراجة (أدهم) الآلية ، وهى تنطلق نحوهم بسرعة مدهشة ..

وجذب الرجال أزندة مدافعهم فى آن واحد ..

وانطلقت الرصاصات بدوىّ هائل ..

وسالت الدماء فى غزارة ..

على الجليد السوفيتى .

* * *



١٠ - الدم ..

بدأ انهمار الثلوج فى التاسعة والنصف تقريبًا ، عندما وصل العقيد (فيدوركوزيريف) إلى مكتبه ، فى إدارة مكافحة التجسُّس ، فى المخابرات السوفيتية ، ولقد وقف إلى جوار نافذة حجرته ، يتطلَّع إلى الجليد المنهمر بضع لحظات ، قبل أن ينادى سكرتيره ، ويسأله فى اهتمام :

- هل من أخبار ، بشأن طائرة التجسُّس ، التى سقطت فى (تالين) ؟

لوَّح سكرتيره بآخر التقارير الواردة ، وهو يجيب :

- الطائرة انفجرت ، واشتعلت فيها النيران ، ولكن رجالنا نجحوا فى إطفائها ، والخبراء فى طريقهم لفحصها الآن .

سأله (كوزيريف) فى توتر :

- وماذا عن الجاسوس ؟

مطَّ السكرتير شفتيه ، وتردَّد لحظة ، قبل أن يجيب :

- لقد نجح فى الخروج من الحصار .

التفت إليه (كوزيريف) فى حركة حادة للغاية ، وهو يهتف :

- نجح ؟!

تراجع السكرتير فى سرعة ، وكأنما ارتطم به الهاتف ، وقال :

- ولكن رجال الكوماندوز يطاردونه ، وبعضهم يعترض طريقه ، عند البقعة (٧ - د) .

التقى حاجبا (كوزيريف) وهو يقول فى عصبية :

- وكيف يطاردونه ؟

أجابه السكرتير :

- بدراجاتهم الآلية .

قال (كوزيريف) فى حدة :

- وكيف يفشل رجال الكوماندوز ، بكل مهاراتهم وتدريباتهم ، وعلى متن دراجاتهم الجليدية الآلية ، فى اللحاق برجل واحد ، مهما بلغت سرعة ركضه على الجليد ؟!

تنحنح سكرتيره فى حرج ، وهو يجيب :

- معذرة أيها الرفيق العقيد ، ولكن الجاسوس لا يركض على الجليد .. لقد استولى على إحدى الدراجات الآلية ، و ...

قاطعه (كوزيريف) بصرخة هادرة :

- استولى على ماذا ؟!

تراجع السكرتير أكثر وأكثر ، وأجاب مضطربًا :

- على دراجة بخارية أيها الرفيق العقيد .. ليست لدى أية تفاصيل عن الوسيلة ، التى فعل بها هذا ، ولكنهم يطاردونه فى إلحاح .

أطلّ الغضب من كل خلجة من خلجات (كوزيريف) ، وهو يشدّ قامته ، ويسأل فى حدة :

- وكم تبقّى منهم ؟

بدت الدهشة على وجه السكرتير ، وهو يغمغم :

- ماذا تقول يا سيّدى ؟

صاح به (كوزيريف) كشلال هادر :

- أقول : كم تبقّى منهم ؟! .. كم تبقّى من أسودنا البواسل ؟ كم رجلاً منهم سقط ، قبل أن يظفروا بذلك الجاسوس .

ردّ السكرتير فى دهشة :

- إنهم أفضل رجالنا ، أيها الرفيق العقيد .

صرخ (كوزيريف) فى وجهه :

- وهذا أفضل رجل مخابرات فى العالم .. هل يمكنك أن تفهم هذا ؟

اتسعت عينا السكرتير عن آخرهما ، وكادت الدهشة تعصف بنفسه ، وهو يتمتم :

- أفضل من رجال مخابراتنا أيها الرفيق ؟!

تراجع (كوزيريف) أمام السؤال ، والتقط نفسًا عميقًا ، يملأ به صدره ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول فى توتر :

- من يدرى ؟!

ثم عاد يلتقط نفسًا آخر ، ويستطرد فى شرود :

- إنه ليس بالرجل الهيّن على الأقل .

أومأ السكرتير برأسه متفهّمًا ، وهو يجيب :

- لهذا خرج الرفيق الرائد (جلجانوف) لمطاردته بنفسه .

انعقد حاجبا (كوزيريف) ، وهو يتمتم :

- (جلجانوف) خرج لمطاردته بنفسه ؟! .. عجبًا ! ..

ثم لم يضف بعدها حرفًا آخر ، وإن برزت فى ذهنه أفكار كثيرة ..

وعجيبة ! ..

* * *

فجأة ، رأى (أدهم) فريق الكوماندوز ، الذى يعترض طريقه ، وهو ينحرف بالدرّاجة الآلية ، متجاوزًا منطقة المستنقع ..

وفى نفس اللحظة تقريبًا ، انطلقت الرصاصات السوفيتية ..

كان الرجال محترفين بحق ، وكانت أصابعهم متحفّزة على

أزندة مدافعهم الآلية ، وما إن لمحوه ، حتى اعتصرت أصابعهم الأزندة ، وانطلقت رصاصاتهم بلا هوادة ..

ولكنه أيضًا كان محترفًا ..

وبمقارنة براعته ببراعتهم ، يكن اعتبارهم مجموعة من الهواة ، يخطون خطواتهم الأولى فى عالم الاحتراف ..

ففى نفس اللحظة ، التى لمحهم فيها ، وفوهات مدافعهم مصوبة نحوه ، استوعب عقله الموقف كله ، ودرسه جيدًا ، وتوصل إلى خطة لمواجهته ..

بل ووضعها موضع التنفيذ أيضًا ..

وبسرعة البرق ، ومع انطلاق رصاصات رجال الكوماندوز ، كان ينحرف بسيارته خارج الطريق المستوى ، ويثب بها نحو المنحدر إلى يمينه ..

وتجاوزته رصاصاتهم إلا واحدة ، مزقت جزءًا من سترته الجلدية ، ولحم ذراعه ، قبل أن تواصل طريقها ، لتخترق جسد أحد رجلى الكوماندوز اللذين يطاردانه ، مع عدد من الرصاصات الأخرى ، فانطلقت من حلقه شهقة مكتومة ، وسقط عن دراجته ، وتدحرج على الجليد ، الذى اصطبغ بدمه ، فى حين انحرف رجل الكوماندوز الثانى ليواصل المطاردة فوق المنحدر ..

وفى غضب ، ومن موقعه فى الهليوكوبتر ، هتف (جلجانوف) :

- اللعنة ! .. هؤلاء الأغبياء قتلوا أحد زملائهم .

ابتسمت (هيلجا) فى سخرية ، متمتمة :

- ربما لأنه محظوظ .

رمقها بنظرة غاضبة ، ثم ربت على كتف الطيار فى حدة ، هاتفًا :

- لا تتوقف هنا يا رجل .. واصل تعقبه .. هيا .

كظم الطيار غيظه من هذا الأسلوب الجاف الغليظ ، وواصل انطلاقته خلف (أدهم) ، الذى راح ينحدر بدراجته الجليدية فوق المنحدر بسرعة مخيفة ، ورجل الكوماندوز السوفيتى ينطلق خلفه ، ويطلق رصاصاته نحوه فى غضب ..

ومرة أخرى ، أصابت الرصاصات جسم الدراجة الآلية وكادت تخترق ساق (أدهم) ، إلا أنه انحرف بزاوية حادة ليتفاداها ، و ...

وفجأة ، أصابت رصاصة الإطار الخلفى للدراجة ..

ونسفته ..

وعلى الرغم من أن الدراجة تنطلق فعليًا على زحافات خاصة ، إلا أن الانفجار المباغت للإطار أخل بتوازنها فى عنف ، فمالت على نحو مخيف ..

وانقلبت على جانبها ..

وفى عنف ، انزلق جسد (أدهم) فوق الجليد وراح يتدحرج ، حتى توقف بالقرب من جذع شجرة كبيرة ..

وفى فرح غامر ، صرخ (جلجانوف) داخل الهيلوكوبتر :

- سقط .. لقد سقط .. سيظفر به رجلنا الآن .

غمغمت (هيلجا) :

- هل تعتقد هذا حقًا ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهتف محنقًا :

- سترين .

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان رجل الكوماندوز السوفيتى ينطلق نحو (ادهم) مباشرة ، وهو يطلق صرخة قتالية ظافرة ، ويطلق رصاصات مدفعه فى غزارة ..

وقفز (ادهم) يحتمى بجذع الشجرة الضخم ، ثم دار حوله فى خفة مدهشة ، وبرز من جانبه الآخر ، لينقضّ بغتة على رجل الكوماندوز ، ويثب عاليًا ، ثم يكتم صرخته الظافرة بركلة قوية ، اصابت وجهه ، وانتزعته من فوق دراجته الآلية ، لتلقى به على مسافة ثلاثة أمتار ..

وبرد فعل مباشر ، ودون أن تنتبه إلى قولها ، هتفت (هيلجا) فى حماس :

- لقد فعلها !!

انعقد حاجبا (جلجانوف) فى شدة ، وراقب (أدهم) ، الذى قفز فوق الدراجة التى سقط عنها السوفيتى ، وانطلق بها مواصلاً طريقه ، ثم ربّت على كتف الطيّار مرة أخرى ، هاتفًا فى حنق :

- قل لى يا رجل : اليست هذه الطائرة مزوّدة بمدفع آلى ؟ !

أجابه الطيّار بسرعة :

- بالطبع .. إنها مزوّدة بمدفعين .

صاح به (جلجانوف) فى حدة :

- ماذا تنتظر إذن ؟ .. اسحقه بهما يا رجل .

رفع الطيّار أحد حاجبيه ، وهو يجيب فى ارتياح :

- على الرحب والسعة ايها الرفيق الرائد .

قالها ، ودار بالهليوكوبتر ؛ ليواجه (أدهم) ، الذى ينزلق بالدرّاجة فوق المنحدر بسرعة مخيفة ، و ...

وأطلق النار ..

ولم تكن مفاجاة لـ (ادهم) ..

لقد توقّع هذا ، واستعدّ له ، وتحرك بسرعة مدهشة ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الرصاصات ..

وعلى الرغم من مهارة الطيّار ، وبراعته فى إطلاق النار ، إلا انه فوجئ بـ (أدهم) ينحرف بالدراجة فى حركة حادة رشيقة ، ويتفادى الرصاصات المنهمرة ، فهتف فى حنق :

- اللعنة ! .. كيف فعل هذا ؟ !

كادت (هيلجا) تنفجر ضاحكة ، وهى تقول :

- من يدرى ؟ .. ربما كان محظوظًا .

صاح بها (جلجانوف) فى غضب :

- ماذا دهاك أيتها الرفيق (مارونسكى) ؟ ! .. هل أنساك انبهارك بهذا الجاسوس واجبك ؟ !

قالت فى صرامة :

- ربما .. تمامًا مثلما انساكما مهارتكما .

احتقن وجه (جلجانوف) ، وصاح بالطيّار :

- هل سمعت يا رجل ؟ ! .. فشلك فى إصابته جعل النساء تسخر منا .

عضّ الطيّار شفته السفلى فى غيظ ، ودار بالهليوكوبتر مرة أخرى ، ليلحق بدراجة (أدهم) الآلية ، ثم التفّ حولها ليواجهها ، وهى تندفع نحوه بأقصى سرعتها ، وأمسك عصا القيادة فى قوة ، وإبهامه يستعد لضغط زر مدفعها ، هاتفًا :

- قل للجاسوس وداعًا أيها الرفيق الرائد .. ستسحقه رصاصاتنا حتمًا هذه المرة .



لقد توقَّع هذا ، واستعدَّ له ، وتحرك بسرعة مدهشة ،
فى نفس اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصات ..

قالها ، وهو يصوِّب مدفعى الهليوكوبتر نحو (أدهم) مباشرة ..

وضغط الزناد ..

ولكن (أدهم) باغته مرة أخرى ..

ففى نفس اللحظة ، التى ضغط فيها الطيَّار الزناد ، انحرف (أدهم) نحو صخرة بارزة ، واتجه نحوها مباشرة ، وتفادى الرصاصات المنهمرة ، ثم ارتطم بالصخرة على نحو مدروس ، وجذب مقود الدراجة الآلية بحركة خاصة ..

وقفز ..

قفز بالدرَّاجة نحو الهليوكوبتر ، التى تحلِّق على ارتفاع منخفض ، فاتسعت عيون ركابها ، وهم يحدقون فى ذلك المشهد ، وقد بدا لهم (أدهم) كساحر عجيب ، حوَّل الدراجة بغتة إلى طائرة صغيرة ، اندفعت نحوهم مباشرة .

وصرخ (جلجانوف) فى الطيَّار :

- ارتفع يا رجل .. أسرع .

كان المشهد مبهرًا مدهشًا ، بالنسبة للطيَّار ، فتجمَّدت أصابعه على عصا القيادة لجزء من الثانية ، ثم لم يلبث أن انتفض فى عنف ، وجذب عصا القيادة ، وضغط زر إطلاق النار ، وهو يصرخ :

- ياللشيطان !

وانطلقت الرصاصات تخترق جسم الدرَّاجة الآلية ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها الهليوكوبتر ، والتى وثب فيها (أدهم) فى الهواء ..

وكان المشهد مزدوجًا على نحو عجيب ..

ومبهر ..
(أدهم) يطير فى الهواء والهليوكوبتر ترتفع ، والدراجة تهوى مشتعلة ، و ...
وتعلّق (أدهم) بالإطار السفلى للهليوكوبتر ، فى نفس اللحظة التى انفجرت فيها الدراجة فى الهواء ، وصرخت (هيلجا) فى ارتياع :
- احترس أيها الرفيق الطيّار .. احترس .
انحرف الطيّار بالهليوكوبتر فى حركة حادة ، ومدّ (جلجانوف) يده ينتزع مسدسه من غمده ، و..
وفوجئ الثلاثة بـ (أدهم) داخل الهليوكوبتر ، التى وثب إليها برشاقة مذهلة ، وهو يهتف ساخرًا :
- مرحبًا أيها السادة .. هل يزعجكم وجودى ؟
أدار (جلجانوف) فوهة مسدسه نحوه فى سرعة ، وهو يصرخ :
- لا .. لن تصل إلينا بسهولة .
تحرّك (أدهم) بسرعة البرق ، وضرب يد (جلجانوف) بقبضته ، فاطاح بمسدسه ، وهو يقول :
- ولكننى وصلت بالفعل يا هذا .
ثم هوى على فك الرائد السوفيتى بلكمة كالقنبلة ، مستطردًا :
- وربما ترحل أنت .
سقط المسدس بين ساقى الطيّار ، الذى أصابه الهلع ، مع دخول (أدهم) المفاجئ إلى الهليوكوبتر ، فانحرف بالطائرة على نحو عشوائى مذعور ، وهو يختطف المسدس ، صارخًا :
- لا .. ابتعد عنى .

وضغط الزناد ..
وانطلقت الرصاصة ..
وفى نفس اللحظة التى مالت فيها الهليوكوبتر فى عنف ، احتكّت الرصاصة بجبهة (أدهم) الذى تراجع بحركة غريزية عنيفة ، و ...
واندفع جسده خارج الهليوكوبتر بغتة ..
وفى سرعة ، وثبت يده محاولة التشبُّث بإطار الباب ، ولكن أصابعه التى أصابها البرد والتعب لم تلتقطه جيدًا ، فافلتت يده الإطار ، واختلّ توازنه ، و ...
وهوى ..
هوى من الهليوكوبتر ، من ارتفاع يزيد على العشرين مترًا ، نحو المنحدر المغطى بالجليد مباشرة ..
ولم يكن هناك مايمكن أن يتشبُّث به ..
وبسرعة ، ثنى (أدهم) ركبتيه ، وضمُّهما إلى صدره ، فى محاولة لاتقاء عنف السقوط ..
ولكن هذا لم يمنع ارتطام جسده بالجليد فى قوة ، وتدحرجه فوقه فى عنف ..
وكانت الآلام رهيبة ..
وعندما حاول (أدهم) النهوض ، أدرك أن نتيجة السقوط كانت فادحة بحق ..
لقد دار رأسه فى عنف ، وتصاعدت صرخات الألم من كل شبر فى جسده ، وفقدت أطرافه سرعة تجاوبها ..
كل هذا والطيّار ينقضّ عليه بالهليوكوبتر ، و (جلجانوف) يصرخ ، وهو يمسك فكه فى ألم وغضب :

- لا تضع هذه الفرصة يا رجل .. أطلق النار .. أطلق النار بلا تردد ..

وفى هذه المرة لم تكن هناك وسيلة واحدة للنجاة .. على الإطلاق ..

* * *

« ولماذا تشعر بالقلق ؟! .. »

ألقى رئيس جهاز المخابرات السوفيتى السؤال ، على العقيد (كوزيريف) ، وهو يتطلع إليه فى قلق واهتمام ، فتنهّد (كوزيريف) ، قبل أن يجيب :

- من الطبيعى أن أشعر بالقلق ، عندما يصرّ (جلجانوف) على تولّى الأمر بنفسه ؛ فكلنا نعلم أن (جلجانوف) عصبى ومتهوّر ، وربما يفيض به الحماس ، فيغرق فيه عقله ، ويُقدم على قتل (أدهم صبرى) بلا تروٍّ أو تفكير .

انعقد حاجبا رئيسه ، وهو يقول فى حذر :

- وماذا لو أنه فعل ؟

أجاب (كوزيريف) فى سرعة ، وكأنه كان ينتظر هذا السؤال ويتوقّعه :

- سنخسر بهذا أقوى قضية جاسوسية فى تاريخنا .

انعقد حاجبا رئيسه ، وأطلق من عينيه نظرة متسائلة ، فتابع (كوزيريف) :

- لقد نجحنا فى إسقاط الطائرة ، ولن تمضى ساعة واحدة ، حتى يصدر خبراؤنا تقريرهم ، الذى يؤكّد وجود أجهزة رصد وتجسُّس بها ، طبقًا لما بلغنا من معلومات ، فالحريق الذى أصاب الطائرة لن يتلف الأجهزة تمامًا .. وعندما نعلن الأمر

للعالم أجمع ، لن يكون لدينا ما نؤيِّد به قولنا ، سوى حطام طائرة ، وجثة رجل ندَّعى أنه جاسوس مصرى .. أمور يمكن تفنيدها وإنكارها ، فما الذى يهمّ المصريين من جاسوس لقى مصرعه ؟

قال رئيسه فى حذر :

- أتعنى أن إلقاء القبض عليه حيًا ، يمثِّل فائدة أكبر ؟

هتف (كوزيريف) فى حماس :

- بالتأكيد .. إلقاء القبض عليه حيًا يعنى وجود متهم ، واعترافات ، وشخص يخشى المصريون بقاءه فى قبضتنا ، ومفاوضات ، ومساومات .. باختصار .. حياته تعنى انتصارنا العلنى على المصريين .

انعقد حاجبا رئيسه ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، ثم لم يلبث أن غمغم :

- يا إلهى ! .. إنك على حق بالفعل .. إنها قضية العصر .

ثم رفع عينيه إلى (كوزيريف) ، مستطردًا فى حماس :

- أجر اتصالك بالرفيق (جلجانوف) على الفور ، واطلب منه ألا يقتل ذلك الرجل .. أسرع .

تنحنح (كوزيريف) ، قبل أن يقول :

- معذرة أيها الرفيق الرئيس ، ولكن فى مثل هذا الموقف الشديد الحساسية ، أعتقد أنه من الأفضل أن تبلغ أنت الرفيق (جلجانوف) هذا الأمر بنفسك .. سيكون لهذا وقع أفضل .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يفكِّر فيما قاله (كوزيريف) جيدًا ، ثم قال فى حسم :

- فليكن .. صلنى به .
أسرع (كوزيريف) يضغط أزرار الهاتف ، وهو يقول :
- على الرحب والسعة يا سيِّدى ، ولكن المهم أن نصل إلى (جلجانوف) ، قبل ينفذ ماربه .. وأن نتصل به فى الوقت المناسب ..
نعم .. ليس المهم فقط أن تجد (جلجانوف) يا (كوزيريف) .. المهم أن تجده فى الوقت المناسب ..
وقبل أن ينفذ ماربه ..

* * *

انعقد حاجبا مدير المخابرات المصرية فى شدة ، وهو يهتف فى وجه مساعده فى انزعاج شديد :
- (أدهم صبرى) محاصر فى الاتحاد السوفيتى ؟! .. أأنت واثق من هذه المعلومة يا رجل ؟!
أجابه مساعده فى توتر :
- تمام الثقة يا سيِّدى .. عميلنا فى الاتحاد السوفيتى أرسل برقية شفرية لاسلكية عاجلة ، يؤكِّد فيها هذا .
تراجع المدير فى مقعده مبهوتًا ، وهو يسأل :
- وما شأن (أدهم) بالاتحاد السوفيتى ؟! .. مهمته كانت تنحصر فى (فنلندا) وحدها !
هزَّ مساعده رأسه فى حيرة ، مجيبًا :
- لا أحد يدرى ماذا حدث بالضبط يا سيِّدى ، ولكن رجالنا فى (هلسنكى) يؤكدون أن سيادة العقيد (أدهم) قد أقلع بطائرة جديدة ، منذ أكثر من خمس ساعات ، ولم يعد بعد ، أو يقوم بأى اتصال لاسلكى .

شحب وجه المدير ، وهو يتمتم :
- رباه ! .. لا ريب فى أنهم أرسلوه إلى الاتحاد السوفيتى لسبب ما .
سأله المساعد فى قلق :
- ماذا نفعل يا سيِّدى ؟
قلب المدير كفيه فى حيرة ، متمتمًا :
- وماذا يمكننا أن نفعل ؟! .. إننا نفتقر إلى كل المعلومات الأساسية .
ثم اعتدل بحركة حادة ، مستطردًا فى حزم :
- اتصل فورًا بعميلنا هذا ، واطلب منه أن يوافينا بكل ما يمكنه من معلومات ، فور حصوله عليها .
قال المساعد فى اهتمام :
- هل نطلب منه التدخُّل ؟
هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وقال :
- كلاَّ .. موقعه لا يسمح له بهذا .. فقط اطلب منه مدنا بالمعلومات .
ثم التقى حاجباه ، وهو يستطرد فى حزم :
- المهم أن يمدنا بها فى الوقت المناسب .
سأله مساعده فى قلق :
- أتخشى أن يقتلوا سيادة العقيد (أدهم) يا سيِّدى ؟
تطلَّع إليه المدير ، مرددًا :
- يقتلوه ؟!
ثم عاد يشرد ببصره ، وهو يضيف فى حزم :
- فى بلد مثل الاتحاد السوفيتى ، لا يقلقك كثيرًا أن يقتلوا رجلك .. وإنما يقلقك أن يظفروا به حيًا .

ومطّ شفتيه ، وهزّ رأسه ، قبل أن يستطرد فى مرارة :

- فهذا هو العذاب الحقيقى ..

* * *

كان الطيار يصوب مدفعى الهليوكوبتر نحو (أدهم) ، ويستعد لضغط زر إطلاقهما ، فى قمة عصا القيادة ، و ...

وفجأة انبعث صوت رئيس المخابرات السوفيتى ، وهو يقول فى حزم :

- هنا الرئيس أيها الرفيق (جلجانوف) .. استمع إلى الأوامر الجديدة جيدًا .. لا تقتل الجاسوس .. نريده حيًا .. أكرّر .. لا تقتله .. من المحتم أن نظفر به حيًا .

انعقد حاجبا (جلجانوف) فى شدة ، وتراجع الطيّار عن ضغط زر الإطلاق ، وهو يقول :

- ياللشيطان ! .. ثانية واحدة وكنا سنخالف أوامر الرياسة .

وهتفت (هيلجا) :

- دعنا نهبط ونلقى القبض عليه إذن ..

أجابها (جلجانوف) فى صرامة :

- لن نلقى القبض على رجل ميت .

تطلّعت إليه فى دهشة ، وقال الطيّار فى حيرة :

- رجل ميت ؟! .. الرجل يترنّح بعد الصدمة أيها الرفيق الرائد ، ولكنه قوى ، ولن يلقى مصرعه بسبب ..

قاطعه (جلجانوف) :

- لقد لقى مصرعه برصاصاتنا ، قبل أن تصلنا أوامر الرياسة .

فهمت (هيلجا) ما يعنيه على الفور ، فانعقد حاجباها فى شدة ، فى حين هتف الطيّار مستنكرًا :

- هذا لم يحدث .. لقد وصلتنا أوامر الرياسة قبل أن ..

قاطعه (جلجانوف) فى صرامة ، وهو يضغط كتفيه فى قوة :

- إياك أن تعترض يا رجل .. أطلق النار على الفور ، وسأتحمّل المسئولية كاملة .

ردّد الطيار ذاهلاً :

- ولكن الأوامر ..

صرخ (جلجانوف) بثورة عارمة :

- فلتذهب الأوامر إلى الجحيم .

رفع الطيار يده عن عصا القيادة ، قائلاً :

- اذهب معها إذن أيها الرفيق الرائد ، ولكننى لن أفعل شيئًا كهذا قط .

صرخ (جلجانوف) :

- أيها الوغد .

ثم دفع يده إلى عصا القيادة ، وتشبّث بها فى قوة ، وضغط زر إطلاق النار ، فى نفس اللحظة التى كان فيها مدفعا الهليوكوبتر مصوّبين نحو الهدف ، الذى لم يعد بإمكانه الدفاع عن نفسه ..

نحو (أدهم صبرى) ..

مباشرة .

* * *

١١ - أسير الثلوج ..

تعلَّقت عينا (انجريد) بساعة الحائط ، وهى تفرك كفيها فى عصبية ، فى المقر الخاص بالذئب الإسرائيلى (مائير شالوم) ، الذى ابتسم فى هدوء واثق ، وهو يقول :

- اطمئنى يا سيِّدتى .. لا ريب فى أن (أدهم صبرى) فى قبضة أصدقائنا السوفيت الآن .

التفتت إليه قائلة فى شىء من الحدة :

- هل تظن هذا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا فى صمت ، فهزَّت رأسها فى قوة ، قائلة :

- ولكن (ثوردال) يؤكِّد أن هذا الرجل مدهش بحق ، وأنها لن تكون مفاجأة له ، لو سمع أنه نجا من مأزقه ، وخرج منه خروج الشعرة من العجين ، بعد أن حطَّم غطرسة السوفيت ، ووضع أنفهم فى التراب .

بدا الغضب على وجه (شالوم) ، وهو يقول :

- ليس إلى هذا الحد .. الرجل بارع ولا شك ، ولكنه فى النهاية مجرَّد بشر ، لا يمكنه أن يتصدَّى للقوات السوفيتية المدرَّبة .

هزَّت كتفيها ، قائلة فى صوت خافت :

- (ثوردال) يقول : إنه فعل من قبل(*) .

أجابها (شالوم) فى سرعة وحدَّة :

- ليس فى كل مرة تسلم الجرَّة .

تطلَّعت إليه بعينين ناعستين ، قبل أن تقول فى دلال :

(*) راجع قصة (الجليد الدامى) .. المغامرة رقم (٥) .

- تبدو واثقًا للغاية .

ابتسم ، مجيبًا :

- بالتأكيد .. خبرتى فى هذا المجال ليست بالقليلة ، يا سيِّدتى .. إننى أعلم بالضبط كيف تُعالج الأمور ، وكيف يفلّ الحديد الحديد .

اقتربت منه أكثر ، هامسة :

- أحب دائمًا الرجل الذى يثق بقدراته .

رمقها بنظرة فاحصة ، وهو يقول بلهجة ذات مغزى :

- وأنا أحب دائمًا المرأة التى تدرك أين صالحها بالضبط .

اقتربت أكثر وأكثر ، حتى لفحت أنفاسها وجهه ، وهى تهمس :

- حقًا ؟!

كانت تتصوَّر أنها ستبهره بجمالها وأنفاسها العطرة ، وأنه لن يلبث أن يذوب بين أصابعها ، إلا أنه ظلّ باردًا كالثلج ، وهو يسألها :

- ما اسم عميلكم السوفيتى بالضبط ؟

داعبت أزرار سترته بأناملها ، مجيبة فى خفوت :

- لست أدرى .. لا أشغل عقلى فى المعتاد بمثل هذه الأمور .. (ثوردال) و (هال) هما اللذان يتوليان أمر العميل السوفيتى وغيره .

التقى حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

- هراء .

أدهشتها لهجته ، فتراجعت تتطلَّع إليه فى قلق ، وهو يستطرد :

- قـولك هذا يعنى أنه لو أصـيب (ثوردال) و (هال) بمكروه ، ستنقطع صلتكم بالعميل ، وهذا أسخف ما يمكن أن يحدث ، فى شبكة منظمة .

أغضبها أسلوبه فى التعامل معها ، فانعقد حاجباها فى شدة ، وقالت :

- ماذا تريد بالضبط يا (شالوم) ؟

أجابها فى صرامة :

- اسم العميل السوفيتى .

صرخت فى وجهه :

- لن تحصل عليه قط .

اندفع نحوها بغتة ، وجذبها من شعرها فى قسوة ، جعلتها تطلق صيحة ألم ، وقال غاضبًا :

- اسمعى يا امرأة .. أكثر ما يغضبنى فى هذا العالم ، أن تسخر منى واحدة مثلك .. سألقى عليك سؤالاً واحدًا ، وأريد جوابًا مختصرًا واضحًا وصريحًا .. هل تريدين التعاون معى أم ماذا ؟

صاحت فى عصبية :

- ليس وأنت تعاملنى بهذا الأسلوب .

أفلت شعرها مرة واحدة ، وسألها فى غلظة :

- أهذا أفضل ؟

قالت محتدة :

- بالتأكيد .. لا تنس أبدًا أنك تتعامل مع سيِّدة محترمة .

هتف ساخرًا :

- سيِّدة ماذا ؟!

قالها ، ثم انفجر بضحكة قاسية خشنة ، قبل أن يستطرد :

- أنسيت تاريخك ، أم تتظاهرين بنسيانه يا امرأة ؟ .. ألا تذكرين عملك السابق فى (ستوكهولم) ؟! .. أنسيت كيف كوّنت ثروتك ، التى تتباهين بها الآن ؟! .. لو أنك نسيت فنحن لم ننس ، لأننا نهوى مراجعة ملفك باستمرار ، بكل ما يحويه من صور وأفلام .

احتقن وجهها فى شدة ، وهى تهتف :

- أيها الوقح .. كيف تجرؤ ؟! .. لقد كان (ثوردال) على حق .. لا يمكن أبدًا الثقة بالإسرائيليين .. أتمنى أن يلقنكم (أدهم) هذا درسًا قاسيًا .

قالتها ، واندفعت تغادر المكان فى عنف ، فانعقد حاجباه خلفها فى شدة ، وهو يقول فى غضب :

- سيخيب رجاؤك حتمًا أيتها اللعينة ! .. ما دام كل شىء على ما يرام ، فلن يصبح (أدهم صبرى) هذا قادرًا على تلقين الدروس لأى شخص .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى مقت :

- باستثنائه هو .

قالها ، وانعقد حاجباه أكثر ..

وتضاعف غضبه ومقته ..

تضاعفا ألف مرة ..

* * *

لم يكن بإمكان (أدهم) الدفاع عن نفسه حقًا هذه المرة ..

لقد أصابته السقطة برضوض عنيفة ، وأطلقت فى جسده آلامًا مبرحة ، وأفقدته الكثير من صفاء ذهنه ، وسرعة استجابته المدهشة ..

وكان (جلجانوف) يصوِّب إليه مدفعى الهليوكوبتر بالفعل ، و ...
ولكن (هيلجا) تحركت بغتة ..
وفى حركة حادة عنيفة ، جذبت جسد (جلجانوف) هاتفة :
- إياك أن تفعل .
جاءت الجذبة فى الوقت المناسب بالضبط ، فانطلقت رصاصات مدفعى الهليوكوبتر بالفعل ، ولكنها لم تصب هدفها ، إذ جذب (جلجانوف) عصا القيادة على نحو غريزى ، عندما جذبته (هيلجا) فارتفعت الهليوكوبتر قليلاً ، وطاشت الرصاصات كلها فى الهواء ..
وفى غضب هادر صرخ (جلجانوف) :
- ماذا فعلت أيتها المجنونة ؟
فوجئ بمسدسها يلتصق بصدغه ، وهى تجيب فى صرامة :
- أمنعك من مخالفة الأوامر أيها الرفيق الرائد .
انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول محتدًا :
- هل ترغبين فى أن يبقى هذا الجاسوس على قيد الحياة ؟
أجابته بنفس الصرامة :
- ليس من شأننا أن نرغب أو لا نرغب أيها الرفيق ، مادامت أوامر الرياسة قد صدرت بالفعل .
ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يتمتم فى حنق عصبى :
- ستدفعين الثمن ، عندما نعود .
أجابته ساخرة :
- حاول أيها الرفيق (جلجانوف) ، وستجبرنى بفعلتك على شرح محاولتك لمخالفة الأوامر للمسئولين .

احتقن وجهه ، وهو يتطلع إليها فى مقت ، ثم لم يلبث أن أفرغ غضبه فى وجه الطيار ، وهو يصرخ به :
- ماذا تنتظر يا رجل ؟! .. كفَّ عن الدوران فى السماء كالأوزة المجنونة ، وعد بنا لنلقى القبض على ذلك الجاسوس .
ومطَّ شفتيه فى غضب ، مستطردًا :
- حيًا .
دار الطيار بالهليوكوبتر دورة واسعة ، وعاد يتجه إلى حيث تركوا (أدهم) ، ثم هتف فى دهشة :
- ياللشيطان ! .. إنه ليس هناك .
انتفض جسد (جلجانوف) فى عنف ، وهو يصرخ :
- ليس ماذا ؟
ومال بجسده كله ، ليلقى نظرة على المكان ، قبل أن يلتقى حاجباه فى شدة ، ويغمغم :
- اللعنة !
فوسط الظلام والجليد ، لم يكن هناك أثر لـ (أدهم) ..
لقد اختفى ..
اختفى تمامًا ..
وفى غضب هادر ، قال (جلجانوف) ، وهو يلتقط بوق جهاز اللاسلكى :
- هل رأيت ما الذى فعلته حماقتك ؟
ثم ضغط زر جهاز اللاسلكى ، مستطردًا فى صرامة :
- من الهليوكوبتر إلى فريق الكوماندوز .. الهدف اختفى داخل المنطقة (٦ - د) .. حاصروا المكان ، وحاولوا إلقاء القبض عليه .

ورمق (هيلجا) بنظرة محنقة ، قبل أن يضيف :
- والأولوية لبقائه على قيد الحياة .
فى نفس اللحظة التى ألقى فيها أوامره لرجال الكوماندوز ، كان (أدهم) يتحرك فى ألم ، بين أشجار المنطقة (٦ - د) ..
لقد انتهز فرصة دوران الهليوكوبتر ، ودفع جسده فوق المنحدر ، ليتدحرج بضع دقائق ، حتى بلغ منطقة أشجار جديدة ، فتوقف عندها ، ونهض واقفًا ، وساقاه تطلقان صرخات ألم ، وحاول أن يواصل رحلة الهروب ..
ولم يكن الأمر سهلاً ..
فعلى الرغم من مهاراته وقدراته العديدة ، إلا أنه مجرد بشر ، لجسده حدوده ، مهما قاوم واحتمل ..
وهو مصاب بطلق نارى فى ساقه ، وبرضوض وكدمات فى جسده كله ، والبرودة من حوله تتزايد ، والجليد ينهمر بالفعل ..
ومن بعيد ، تعالى ضجيج يقترب ..
ويقترب ..
ومن كل الاتجاهات ..
وكان من الواضح أنهم يحاصرونه من جديد ..
وفى تهالك ، التصق (أدهم) بجذع شجرة كبيرة ، وراح يتابع الأضواء ، التى تحيط به ، وعقله يبحث عن مخرج من كل هذا ..
والعجيب أن عقله المدهش أبى أن يطيعه هذه المرة ..
لقد بذل قصارى جهده بالفعل ، إلا أن شيئًا ما كان يحول بينه وبين تركيز أفكاره على النحو المطلوب ، ليعثر على وسيلة مناسبة للنجاة ..

بل وكانت هناك غيبوبة سخيفة ، تقاتل فى استماتة للسيطرة على عقله ، وإحباط ذهنه ، ومنع أفكاره من الانطلاق ..
وكان عليه أن يقاوم تلك الغيبوبة أولاً ، قبل أن يسعى للخروج من مأزقه ..
ولقد حاول ..
وحاول ..
وحاول ..
ولكن الأضواء راحت تقترب أكثر وأكثر ..
وفجأة ، سقطت دائرة من الضوء على وجهه ، وارتفع صوت يهتف بالروسية :
- ها هو ذا .
تراجع (أدهم) فى سرعة ، واستنفر ما تبقَّى من قواه ، وتحرك بخطوات واسعة ، ليدور حول جذع الشجرة ، فى حين صاح رجل الكوماندوز السوفيتى فى انفعال :
- لقد عثرت عليه .. أسرعوا .
قالها ، وهو يقفز خلف الشجرة ، ولكن قبضة (أدهم) استقبلته بلكمة عنيفة ، لم تحمل قوته كلها ، إلا أنها كانت كافية لتلقى بالرجل أرضًا فى عنف ، وقبل أن ينهض أو يستعيد توازنه ، أصابته قدم (أدهم) بركلة قوية فى وجهه ، وهذا الأخير يلهث بشدة ، وكأنما بذل جهدًا خارقًا ، لا قبل له به ..
وبأقصى ما سمحت به حالته من سرعة ، انحنى (أدهم) يلتقط سلاح رجل الكوماندوز ، فى نفس الوقت الذى ارتفعت فيه أصوات رجال الكوماندوز الآخرين ، الذين يهرعون إلى

المكان ، ثم نهض ليطلق رصاصات المدفع نحو أقرب بقعة ضوء إليه ..

وفجأة ، برز إلى جانبه جندى آخر من جنود الكوماندوز ، وهو يرفع مدفعه ، فدار (أدهم) على عقبيه لمواجهته ، و ..

وهوى كعب المدفع الآلى على رأسه ، قبل أن تكتمل استدارته ..

وفى هذه المرة ، انهارت مقاومته تمامًا ..

واستسلم جسده للضعف البشرى ..

وسقط ..

سقط (رجل المستحيل) فاقد الوعى ، فوق الثلوج السوفيتية ..

وبين الخصوم ..

ألدّ الخصوم ..

وأكثرهم قسوة ..

* * *

هبط العقيد (كوزيريف) من الطائرة الهليوكوبتر الصغيرة ، التى أقلّته إلى موقع سقوط طائرة (أدهم) ، وبدا بقامته الفارهة وكتفيه العريضين ، ومعطف الفراء الذى يرتديه ، أشبه بدب ضخم ، وهو يتجه إلى حطام الطائرة ، ويسأل أحد الخبراء ، الذين انهمكوا فى فحصها :

- هل عثرتم على شىء ؟

أجابه الخبير ، فى لهجة يمتزج فيها الاحترام بالحماس :

- بالطبع يا جنرال .. لقد انفجر خزان الوقود بالطائرة ، وأشعل النيران فى جسمها كله ، ولكن من حسن حظنا وسوء

حظ المصريين ، أن رجالنا نجحوا فى إطفاء النيران المشتعلة فى سرعة ، فلم تتعرّض أجهزة التجسُّس لتلف ضخم .

قال (كوزيريف) فى لهفة :

- إذن فقد عثرتم عليها .

هتف الخبير :

- بالطبع يا جنرال .. ثلاثة أجهزة من طراز أمريكى حديث ، مصنوعة بحيث تحتمل وتقاوم عوامل التلف إلى أقصى حد .. أحدها يلتقط الصور الجوية ، بالأشعة دون الحمراء ، والثانى جهاز تصنت بالغ التطوّر ، والثالث جهاز رسم مساحى .. إنها طائرة تجسُّس ولا شك .

انعقد حاجبا (كوزيريف) ، وهو يسأل :

- ولكن لماذا كانت تطير على ارتفاع منخفض ، كما أكّد تقرير الرادار ؟

هزَّ الخبير كتفيه ، وأجاب :

- لست أدرى يا جنرال .. المفترض أن كل هذه الأجهزة لا يمكن أن تعمل إلا على ارتفاع كبير ، على الأقل حتى يمكنها التقاط صور واضحة لمساحات واسعة ، ولكن ربما أصاب الطائرة عطل ما ، اضطر قائدها للهبوط إلى هذا الارتفاع المنخفض !

عقد (كوزيريف) حاجبيه بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

- لن يقتنع القضاة العسكريون بهذا التفسير قط .

سأله الخبير مرتبكًا :

- ماذا تقترح إذن أيها الرفيق ؟

رمقه (كوزيريف) بنظرة صارمة ، وهو يقول :

- لا يوجد حل ثالث .. إما أن تجد تفسيرًا أكثر منطقية ، أو تكتم أمر هذا الطيران المنخفض ، لتغلق باب المشكلات .

انخفض صوت الخبير ، وهو يسأل متوترًا :

- وأيهما تفضّل أيها الرفيق العقيد ؟

أطلّت صرامة مخيفة من صوت (كوزيريف) ، وهو يقول :

- أنت الخبير .

سرت قشعريرة باردة فى جسد الخبير ، وتطلّع إلى (كوزيريف) فى حذر محاولاً استشفاف ما يدور فى أعماقه ، خشية أن يأتى قراره مخالفًا لوجهة نظره ، إلا أن بصره ارتطم بملامح قاسية ، باردة كالثلج ، جعلت صوته يرتجف ، وهو يتمتم فى حذر شديد :

- أعتقد أنه من الأفضل أن نتجاهل أمر الطيران المنخفض هذا تمامًا .. فلا توجد ضرورة للإشارة إليه .. سيفترض الجميع تلقائيًا أن طائرة التجسُّس كانت تطير على ارتفاع كبير .

سأله (كوزيريف) بلهجة باردة كالثلج :

- أهذا رأيك ؟

ارتجف الخبير ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يقول :

- ألا يروق لك أيها الرفيق العقيد ؟

ولثوان ، بدت له ملامح (كوزيريف) جامدة باردة ، حتى أن جسده كله راح يرتجف ، وتصوُّر أنه قد اتخذ قرارًا خاطئًا ، وهمَّ بالاعتذار عنه ، لولا أن قال (كوزيريف) فجأة :

- لا بأس به .

ثم استدار عائدًا إلى الهليوكوبتر ، وهو يضيف :

- سأنتظر تقريرًا رسميًا بهذا .

حبس الخبير أنفاسه ، حتى حلَّقت الطائرة برجل المخابرات السوفيتى ، ثم أطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وهتف :

- اللعنة ! .. مم يصنعون هؤلاء الرجال ؟

وقفز الجواب إلى عقله على الفور ، دون أن يجرؤ على الاقتراب من شفتيه ..

إنهم يصنعون هؤلاء الرجال من أكثر المواد برودة وقسوة فى هذا العالم ..

من الثلج ..

* * *

« السوفيت ألقوا القبض على العقيد (أدهم) .. »

هتف مساعد مدير المخابرات المصرية بالعبارة فى توتر عنيف ، جعل حاجبى المدير ينعقدان بأشدّ ما يكون ، وهو يهتف :

- ألقوا القبض عليه ؟ !

ثم نهض من خلف مكتبه ، واستطرد بتوتر أكثر عنفًا :

- إنها كارثة بكل المقاييس .. لو أنه رجل مخابرات عادى لكانت مصيبة ، أما وهو (أدهم صبرى) ، فالكارثة مخيفة بحق .. ستجد العشرات ممن يمكنهم تعرّفه ، فى صفوف المخابرات السوفيتية ، ومنهم من لديه دافع قوى للثأر منه ، ووقوعه فى قبضتهم يرفع درجة الخطر المحيط به إلى مائة فى المائة .

تنهَّد مساعده ، وهو يقول :

- معذرة يا سيِّدى ، ولكن الكارثة هذه المرة أعنف من أن

تقتصر على الخطر ، الذى يواجهه سيادة العقيد (أدهم) بصفة شخصية ؛ فالسوفيت أعلنوا أنهم أسقطوا طائرة تجسُّس مصرية ، وألقوا القبض على قائدها ، وأن لديهم ما يثبت انتماءه إلى المخابرات المصرية ، وأكدوا أنهم سيحاكمونه فى جلسة علنية ، لإثبات أن (مصر) تسعى للتجسُّس عليهم ، بعد أن طردت خبراءهم قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، ولم تعد تعتمد اعتمادًا مطلقًا على أسلحتهم[*] .

هتف المدير فى غضب :

– ياللسخافة ! .. هل سيتعاملون مع الأمور على نحو علنى هذه المرة ؟!

أومأ مساعده برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

– نعم .. وعلى نحو سافر أيضًا ، فلقد أعلن مسئولوهم أنهم سيعقدون مؤتمرًا صحفيًا عالميًا ، فى الثالث من الشهر القادم ، لإعلان كل الحقائق والتفاصيل .

غمغم المدير فى توتر بالغ :

– الثالث من الشهر القادم .. هذا يعنى أنهم سيعقدون مؤتمرهم بعد أسبوع كامل .. لماذا لم يعقدوه فورًا ؟!

تردَّد المساعد لحظة ، قبل أن يغمغم فى حذر :

– ربما لأنهم يعرفون سيادة العقيد (أدهم) جيدًا .

رفع المدير عينيه إليه ، وسأله فى قلق :

(*) قبيل حرب أكتوبر ببضعة أشهر ، اتخذ الرئيس الراحل (محمد أنور السادات) قرارًا جريئًا وشجاعًا بطرد كل الخبراء السوفيت ، بعد أن تمادوا فى تدخلهم فى الشئون العسكرية الداخلية ، حتى وصل بهم الأمر إلى حد منع بعض العسكريين المصريين من دخول قواعدهم .

– ماذا تعنى يا رجل ؟!

تردَّد المساعد مرة أخرى ، ثم حسم أمره ، وأجاب :

– أعنى أن السوفيت لن يتردَّدوا فى استخدام أعنف وسائلهم ، وأكثرها قسوة ووحشية ، للحصول على اعتراف صريح بالتجسُّس ، من سيادة العقيد (أدهم) يا سيِّدى ، وهذا يحتاج إلى بعض الوقت ..

تلاقى حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، وهو يستوعب عبارة مساعده ، التى تجمَّدت لها الدماء فى عروقه ، وانتفض لها كيانه كله ..

نعم .. السوفيت لن يدخروا جهدًا لإجبار (أدهم) على الاعتراف ..

و (أدهم) لن يدلى بمثل هذا الاعتراف قط ، حتى ولو مزَّقوه إربًا ..

وهذا يعنى أن الأيام القادمة ستحمل لـ (أدهم) عذابًا رهيبًا ..

عذابًا بلا رحمة ..

وبلا حدود .

* * *



١٢ - العذاب ..

لم يدر (أدهم) كم مضى من الوقت ، قبل أن يستعيد وعيه ، ويفتح عينيه فى بطء ، ولكنه وهو يفعل ، كان يستعيد ذاكرته كلها بسرعة البرق ، ويدرك جيدًا أنه أسير فى قبضة السوفيت ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم ترتجف فى جسده شعرة واحدة ..

فقط أدار عينيه فى المكان الذى يرقد فيه فى فضول واهتمام ، ليتعرَّف موقفه بالضبط ..

كان من الواضح أنه يرقد داخل زنزانة رطبة ضيقة ، لها سقف يرتفع خمسة أمتار ، وجدران تشقَّقت على نحو مؤسف ، تتوسَّط أحدها ، وعلى ارتفاع ثلاثة أمتار ، نافذة صغيرة ، يغطيها زجاج مزدوج مضاد للرصاص ، مكوَّن من طبقتين سميكتين ، يبلغ سمك كل منهما ست سنتيمترات ، وبينهما قضبان فولاذية قوية ..

أما الباب ، فكان صغيرًا متينًا ، تم صنعه من صلب قوى ، وفى منتصف ثلثه العلوى نافذة صغيرة للغاية ، تغطيها أيضًا قضبان من الصلب ..

وكان (أدهم) يرتدى ثوبًا جافًا رمادى اللون ، وقد ضمَّد أحدهم إصاباته على نحو جيد ، ومن الواضح أنهم انتزعوا الرصاصة من ساقه أيضًا ..

وفى حذر ، نهض (أدهم) جالسًا على طرف الفراش الصغير فى ركن الزنزانة ، وعيناه تجوسان المكان ثانية ..

ثم فُتحت تلك النافذة الصغيرة فى أعلى الباب ، وأطلَّ منها وجه عريض قاسٍ ، حدَجَه صاحبه بنظرة صارمة ، من عينيه الباردتين الزرقاوين ، قبل أن يقول بالروسية :

- لقد استيقظ أيها الرفيق .

قالها ، ثم أغلق النافذة الصغيرة فى عنف ، وسمع (أدهم) صوت رتاج ضخم ينزاح ، وانتبه فى تلك اللحظة بالتحديد إلى أن قدميه مكبلتان بأغلال فولاذية مثبتة بسلسلة إلى الجدار ، ليضمنوا عدم فراره ، وحدَّدوا طول هذه السلسلة ، حتى لا يمكنه بها بلوغ الباب قط ..

وعلى الرغم من دقة موقفه وصعوبته ، ابتسم فى سخرية ، مغمغمًا :

- رباه ! .. يبدو أنك ، حتى وأنت بين أيديهم ، مازلت تثير خوفهم وذعرهم يا (أدهم) .

انفتح الباب فى هذه اللحظة ، وأطلَّ منه وجه (كوزيريف) ، الذى رمقه بنظرة طويلة صامتة ، قبل أن يسأله بالإنجليزية :

- إذن فقد استعدت وعيك .

أجابه (أدهم) بالروسية ، فى هدوء ساخر :

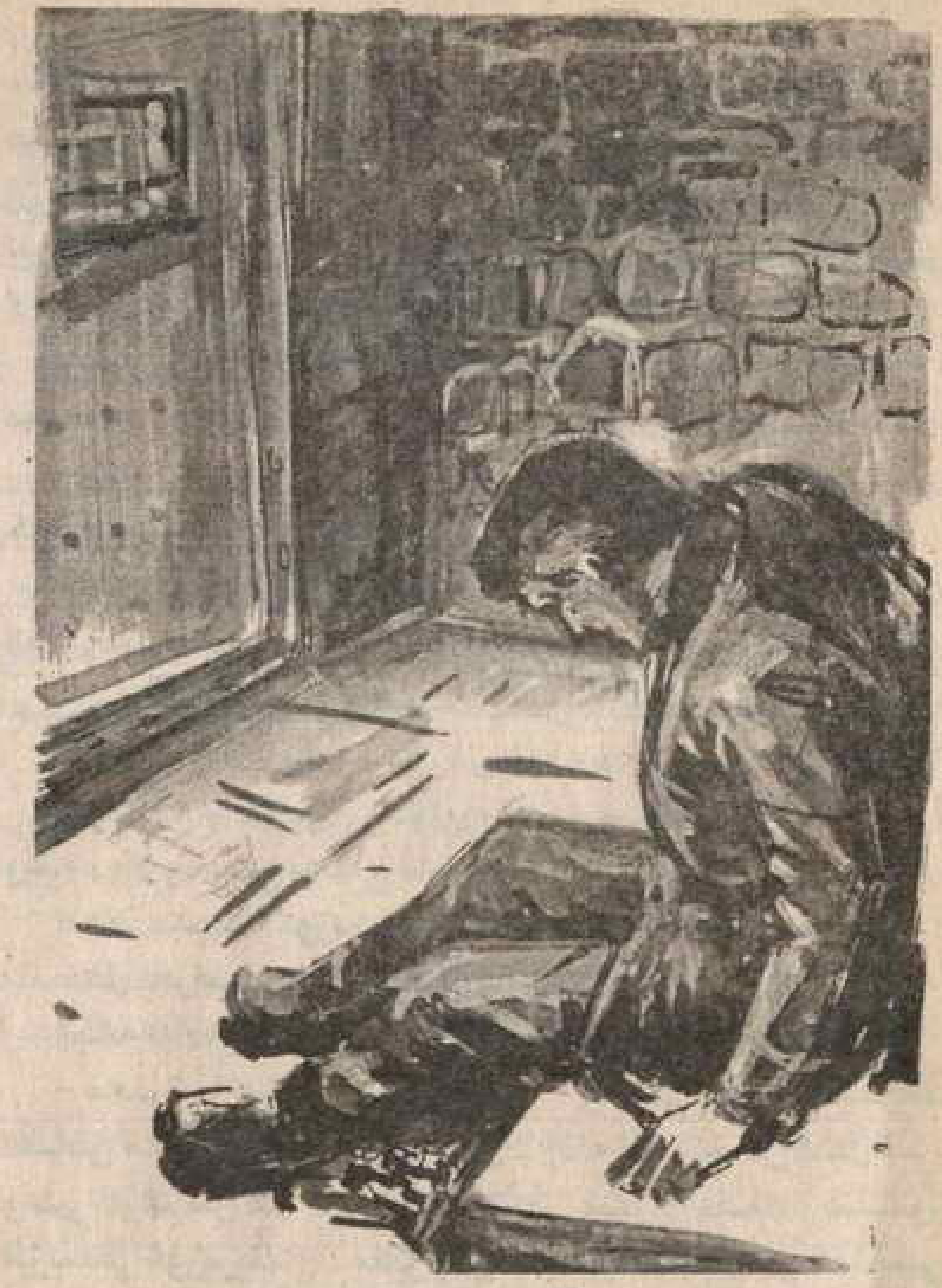
- بالطبع يا عزيزى (كوزيريف) .. من العار أن يفقد المرء وعيه ، ولا يستمتع بجناح فاخر كهذا !

انعقد حاجبا (كوزيريف) بشدة ، وهو يقول :

- هل تعرفنى ؟! .. هل سبق لنا أن التقينا ؟

أجابه (أدهم) ، وهو يلوِّح بأصابعه على نحو مسرحى :

- معذرة يا عزيزى (كوزيريف) ، ولكننى سأجيب سؤالك الثانى قبل الأوَّل .. كلا يا رجل .. إننا لم نلتق من قبل قط ، وعلى الرغم من هذا فلدى ملف كامل عنك .. اسمك (فيدور فيزيسكى كوزيريف) .. مدير إدارة مكافحة التجسُّس الداخلى والخارجى ، فى المخابرات السوفيتية (K G B) .. لك



وانتبه فى تلك اللحظة بالتحديد إلى ان قدميه مكبلتان باغلال فولاذية مثبتة بسلسلة إلى الجدار ...

خبرة طويلة فى التعامل مع المخابرات الامريكية (C I A) ، والمكتب الخامس البريطانى ، وانت المسئول عن تجنيد نائب مدير المخابرات البريطانية لحسابكم ، وعن مساعدته على الفرار إلى هنا فى الوقت المناسب ، عندما انكشف امره ، وقبل أن يقع فى قبضة رجاله هناك(*) .

ضاقت عينا (كوزيريف) ، وهو يقول فى صرامة :

- من الواضح أنك تعرف الكثير أيها الرفيق (أدهم) .

رفع (أدهم) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول ساخرًا :

- (أدهم) ؟! .. (أدهم) منْ يا رجل .

أجابه (كوزيريف) فى تحفُّز :

- (أدهم صبرى) بالطبع .. نحن أيضًا نعرف عنك الكثير يا رجل ، ولدينا ملف كامل عنك .. هل تحب أن أرويه لك ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، وهو يقول :

- سيكون هذا مسليًا بالتأكيد ، فالمرء لا يستمع إلى قصة حياة رجل آخر فى كل يوم .

قال (كوزيريف) فى حذر :

- رجل آخر ؟!

(*) فى عام ١٩٥٠ م ، كشف جهاز المخابرات البريطانى المعروف باسم (المكتب الخامس) ، أن اثنين من كبار رجاله ، (برجس) و (ماكلين) يعملان كجاسوسين للاتحاد السوفيتى ، على الرغم من أن أحدهما كان يحتلّ منصب نائب رئيس الجهاز ، ولقد تم إلقاء القبض عليهما ، والتحقيق معهما فى هذه التهمة ، ثم تمكنّا من الهرب بوسيلة ما عام ١٩٥١ م إلى الاتحاد السوفيتى ، لينكشف بعدها أمر جاسوس ثالث فى الشبكة نفسها ، وكانت فضيحة كبرى لجهاز المخابرات البريطانى .

تطلَّع (أدهم) إلى عينيه مباشرة ، وهو يجيب :

- نعم يا عزيزى (كوزيريف) .. رجل آخر يُدعى (أدهم صبرى) .

انعقد حاجبا (كوزيريف) أكثر ، وهو يقول :

- (أدهم صبرى) هو أنت يا رجل .

هتف (أدهم) بنفس الدهشة المصطنعة الساخرة :

- أنا ؟! .. مستحيل يا رجل ! .. (أدهم صبرى) هذا مصرىّ ، والمصريون لن يحاولوا التجسُّس عليكم قط .. نحن فقط نفعل هذا طوال الوقت ، بمساعدة أصدقائنا الأمريكيين .

بدا مزيج من الدهشة والتوتر على وجه (كوزيريف) ، وهو يقول :

- أنتم ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- نعم يا عزيزى (كوزيريف) .. إننى أعترف بأننا نتجسَّس عليكم .. نحن الـ .. الإسرائيليين .

ارتفع حاجبا (كوزيريف) فى دهشة ، وهو يهتف :

- الإسرائيليين ؟!

ثم انعقد حاجباه ثانية ، مستطردًا فى غضب :

- هل تسخر منا يا رجل ؟

أجابه (أدهم) فى لهجة تحمل كل الإصرار والتحدّى :

- مطلقًا .. إننى أخبرك ما ستحويه الأوراق الرسمية فى النهاية .

أطلّ غضب عنيف من عينى (كوزيريف) ، وهو يقول فى صرامة شديدة :

- هل تظن هذا ؟ .. أنت واهم إذن أيها المصرى .. عندما تأتى مرحلة ملء الأوراق الرسمية ، لن يوضع فيها إلا مانريده نحن .. بل ولست أكشف سرًا لو أخبرتك أن الأوراق الرسمية معدَّة بالفعل ، ولاينقصها سوى توقيعك .

قال (أدهم) ساخرًا :

- التوقيع الإسرائيلى .

أجابه (كوزيريف) فى صرامة :

- بل التوقيع المصرى أيها الرفيق (أدهم) .. التوقيع الذى ستتوسَّل إلينا فى النهاية ، لتمهر به اعترافك .. هذا لو حافظ الرجال على أصابعك لتفعل .

ثم هتف فى حدة :

- (إيفان) .

دلف إلى الزنزانة رجل ضخم الجثة ، عريض الذقن والمنكبين على نحو عجيب ، وضيق الجبهة والعينين على نحو أعجب ، وبدا بشفتيه الغليظتين وأنفه الأفطس وشعره الأشقر القصير ، وزيه العسكرى العريض ، أشبه بصورة هزلية فى قصة مصوَّرة قديمة(*) ، وغمغم بصوت خشن غليظ :

- أوامرك أيها الرفيق العقيد .

أشار (كوزيريف) إلى (أدهم) ، قائلاً :

- إننا نريد من هذا الرجل أن يوقّع اعترافًا يا (إيفان) .

(*) القصص المصوَّرة = فن يجمع ما بين الأدب والرسم ، من خلال سيناريو يتم تحويله إلى شرائح مصوَّرة ، ظهرت محاولاتها الأولى عام ١٨٢٠ م ، ثم ولدت رسميًا مع ظهورها بشكل منتظم فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٦ م ، واليوم تعدّ من أشهر وسائل التعبير وأكثرها انتشارًا ..

زمجر الرجل ، وهو يقول :
- كما تامر أيها الرفيق العقيد .
تالقت عينا (كوزيريف) وهو يستدير إلى (أدهم) ، قائلاً :
- الجندى (إيفان) هو المسئول عن انتزاع الاعترافات هنا ، وهو رقيق القلب ، حتى أنهم يطلقون عليه اسم (إيفان الرهيب)(*) ، وقدرته على انتزاع الاعترافات ، وتمزيق عناد المعترفين أسطورية ، ولكن هؤلاء الذين يقاومونه لا يتبقى منهم فى النهاية ما يكفى حتى لتوقيع أية ورقة ، سوى شهادة وفاتهم .
قال (أدهم) فى سخرية ، متصنعًا الخوف :
- يا إلهى ! .. إننى أرتجف رعبًا .
بدا الغضب على وجه (كوزيريف) ، وهو يقول :
- سنرى أيها المصرى .. سنرى .
قالها ، واندفع يغادر الزنزانة ، هاتفًا :
- إنه لك يا (إيفان) .
وتألقت عينا الوحش الآدمى ، وهو يخرج من جيبه أداة طويلة ، ذات طرف حاد مدبب ، وهو يقول فى جذل :
- أوامرك أيها الرفيق العقيد .

(*) إيفان الرهيب : أحد قياصرة روسيا (١٥٣٠ - ١٥٨٤ م) .. توّج قيصرًا عام ١٥٤٧ م ، وبدأ توسع (روسيا) فى (آسيا) و (سيبيريا) ، وفشل فى حربه مع (السويد) و (بولندا) ، قاوم النبلاء ، وقرّب العامة ، وشجّع التجارة الخارجية مع (انجلترا) . ثم فقد اتزانه العقلى ، حتى قتل ابنه الأكبر .

وفى نفس اللحظة ، التى صفق فيها (كوزيريف) الباب خلفه فى قوة ، كان (إيفان) ينقضّ على (أدهم) ، ومن عينيه تطل نظرة رهيبة ..
نظرة وحش مفترس ..

* * *

كانت عقارب الساعة تتجاوز الثالثة صباحًا فى (القاهرة) ، عندما اجتمع فريق من قادة المخابرات العامة المصرية حول مائدة الاجتماعات الكبيرة ، فى مبنى المخابرات ، فى (حدائق القبة) ، وأدار المدير عينيه فى وجوههم ، قبل أن يقول فى اهتمام مشوب بالتوتر :
- الموقف أصبح أخطر مما يمكن السكوت عليه يا رجال .. لقد اعتقل السوفيت (ن - ١) بالفعل ، ولم ينجح فى الفرار منهم هذه المرة ، ومن الواضح أنهم سيفعلون معه كل ما بوسعهم ، ليثبتوا للعالم كله أننا نحاول التجسُّس عليهم .
قال أحد الرجال فى اهتمام :
- لا ريب فى أنهم - كعادتهم - سيحاولون انتزاع اعتراف بهذا من (أدهم) ، بكل الوسائل الممكنة .
هزّ آخر رأسه ، قائلاً فى حزم :
- لن ينجحوا مهما فعلوا .. فكلنا نعرف (أدهم) جيدًا ، إنه يفضّل الموت ألف مرة ، على الاعتراف الكاذب بتورّط (مصر) فى عمل كهذا .
مطّ ثالث شفتيه ، وهو يقول :
- (أدهم) مجرّد بشر ، وربما ينهار أمام تعذيبهم الرهيب .
هتف الأوّل فى حماس :

- (أدهم) ينهار ؟! .. هراء .. (أدهم) لن ينهار حتى ولو حاولوا فرمه حيًا .

بدا الضيق على وجه مدير المخابرات ، وهو يرفع يده ، قائلاً :

- كفى أيها السادة .. لسنا هنا لمناقشة صلابة (أدهم) وقدراته ، فالموقف أخطر من هذا بكثير .. السوفيت لديهم وسائل لا تنفع معها القوة أو الصلابة ، وحتى لو فشلوا فى انتزاع اعتراف قهرى من (ن - ١) ، فلن يتورعوا عن تزييف اعتراف ملفق ، وكلكم درستم أساليبهم هذه .. السؤال المهم الآن هو ما مصير (ن - ١) ، وكيف يمكنه أن يواجه محنته ؟ .. وهل توجد وسيلة لمعاونته على تجاوزها ؟!

قال أحد الرجال فى اهتمام :

- معذرة يا سيدى ، ولكن هذه الأسئلة تعيدنا مرة أخرى إلى الحديث عن قوة (أدهم) وصلابته ، فمن رأيى أنه سيقاوم حتى آخر رمق ، مهما كانت الضغوط والآلام ، أما عن مصيره ، فالرعشة تسرى فى أوصالى ، عندما أحاول تخيله .

اندفع آخر يقول :

- سيحاكمونه علانية بالتأكيد ، ثم يأتى حكمهم قاسيًا .

تمتم ثالث بصوت يجمع بين الرهبة والشفقة :

- الإعدام .

فعلق رابع بسرعة :

- هذا لو كان حكمهم مشمولاً بالرأفة .

هز المدير رأسه فى بطء ، وهو يستوعب ما قالوه ، ثم سأل :

- كيف يمكننا أن نعاونه على التصدى لهذا إذن ؟

قال أحد الرجال فى حماس :

- ماذا لو قمنا بعملية انتحارية ، بالتعاون مع القوات الخاصة المصرية ؛ لتهريبه من سجنه ، وإعادته إلى (مصر) ؟

هز المدير رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- خبراؤنا درسوا هذه الفكرة ، وقدروا استحالة تنفيذها ، فالسوفيت يحتفظون بـ (أدهم) فى سجن خاص بالجواسيس ، محاط بحراسة مكثفة للغاية ، ووسائل مراقبة لا تتوقف لحظة واحدة ، وهو داخل مقر مخابراتهم ، ويتصل بجهاز خاص ، ينسف الزنازين كلها بضغطة زر ، ويشعل فيها النيران ، عند أول محاولة لاقتحام المكان .

قال أحدهم فى حذر :

- ربما كان هذا حلاً .

تطلع إليه الجميع فى دهشة واستنكار ، وعقد المدير حاجبيه فى شدة ، وهو يسأله :

- ماذا تعنى ؟

أدار الرجل عينيه فى العيون الغاضبة ، وهو يجيب :

- أعنى أن السلاح القوى فى أيدى السوفيت ، لتلفيق تهمة التجسس لنا ، هو (أدهم) نفسه ، ولو تعقدت الأمور أكثر ، ولم يعد من الممكن تفادى الأمر ، فربما يكون الحل الوحيد هو ...

قاطعه المدير فى صرامة غاضبة :

- لا تنطقها .

هز الرجل كتفيه ، قائلاً فى حزم :

- من حقى طرح وجهة نظرى .. هذا هو النظام المتبع هنا .

أجابه المدير :

- هذا صحيح ، ولكننا لن نلجأ إلى هذا الأسلوب قط ، مهما كانت الظروف .

قال الرجل فى إصرار :

- إنها (مصر) كلها مقابل رجل واحد .

صمت الجميع فى ضيق ، وبدت لهم الفكرة ، على الرغم من بشاعتها ، منطقية للغاية ، إلا أن المدير قال فى حسم :

- الخبراء قالوا : إنه من المحتمل أن تُباد الفرقة الانتحارية عن بكرة أبيها ، قبل حتى أن تصل إلى مدخل السجن .. لا تنسوا أنهم سيقاتلون فى قلب دولة قاسية لا ترحم ، ولها مقاتلوها الأشدّاء أيضًا .

اندفع أحد الرجال ، يقول فى اهتمام :

- وماذا عن عميلنا هناك يا سيِّدى ؟

أشاز المدير بأصابعه ، قائلاً :

- سبق أن أخبرتكم أن عميلنا هذا ليست لديه الصلاحية لـ ..

قاطعه الرجل بسرعة وحماس :

- لست أقصد هذا العميل يا سيِّدى المدير .. أقصد الآخر .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وسرت همهمة بين الآخرين ، ساد بعدها الصمت لدقيقة أو يزيد ، والعيون كلها متعلِّقة بوجه المدير ، الذى داعب ذقنه بسبَّابته وإبهامه ، قبل أن يقول :

- عميلنا الآخر هذا يحتلَ موقعًا خاصًا ، فى جهاز المخابرات السوفيتى ، وأية محاولة منه للتدخُل لإنقاذ (ن - ١) ، قد تؤدّى إلى كشف أمره .

قال الرجل فى حسم :

- ألا يستحق (أدهم) هذا ؟! .

صمت المدير لحظات أخرى ، وهو يدرس الأمر فى عمق ، وغمغم وكأنه يتحدّث إلى نفسه بصوت مسموع :

- لو أننا غامرنا بكشف عميلنا الهام هذا ، فلابد وأن نكون مستعدين لبذل الكثير من الجهد ، لإعادته مع (أدهم) إلى هنا ، فنحن لا نتخلّى عن عملائنا قط .

وصمت بضع ثوان إضافية ، ثم تنهَّد ، قائلاً فى حزم :

- فليكن .. سنطرح الفكرة على الخبراء ، ونترك لهم تقدير هذا الموقف .

سأله رجل منهم فى قلق :

- وحتى يتخذ الخبراء قرارهم ، ماذا نفعل بشأن (ن - ١) ؟

تنهَّد المدير قائلاً :

- ليس لدينا للأسف ما نفعله فى الوقت الحالى ، وليس أمامنا سوى أن نعتمد على مهارته وقدراته .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- وعلى صلابته أيضًا .

وفى هذه المرة لم يعلِّق أحدهم على العبارة بحرف واحد ..

وران على حجرة الاجتماعات صمت مهيب ..

ورهيب ..

* * *

انقضّ (إيفان) على (أدهم) فى وحشية ، وعيناه تطلقان ضحكة جذلة ، تشفّ عن استمتاعه بعملية انتزاع المعلومات هذه ، وأصابعه تقبض على أداته الحادة فى قوة ، وتستعد لغرسها فى جسد (أدهم) ، الذى وقف ساكنًا هادئًا ، كأنما لا يدرك ما سيفعله به هذا الوحش الآدمى ..

ولكن فجأة ، وعندما أصبح (إيفان) على مسافة متر واحد منه ، تحرك (أدهم) ..

نفض عن نفسه الصمتَ والسكون والهدوء بغتة ، وتحوّل في لمح البصر إلى كتلة من النشاط والحيوية ، وهو يمسك معصم (إيفان) باصابع من فولاذ ، قائلاً فى سخرية :

- رويدك أيها الثور .. الحظيرة ليست هنا .

ثم انطلقت قبضته اليمنى لتنفجر فى انف السوفيتى ، فى نفس اللحظة التى لوى فيها معصمه فى قوة ، وأجبره على إفلات الأداة الحادة ، التى سقطت بين قدميه ، و (إيفان) يطلق صرخة مختنقة متحشرجة ، وسبابًا عنيفًا ، أخرسه (أدهم) بلكمة أخرى فى فكه ، تحطمت لها إحدى أسنانه الأمامية بصوت مسموع ..

وفى ثورة ولّدها الغضب والألم ، صرخ (إيفان) ، وهو يقبض على وسط (أدهم) بذراعيه :

- أيها المصرى الـ ...

قاطعه (أدهم) بلكمة ثانية فى أنفه ، وهو يقول :

- إياك أن تنطقها أيها الوغد .

تفجّرت الدماء من أنف (إيفان) ، وأغرقت النصف السفلى لوجهه ، ولكنه لم يحلّ ساعديه عن وسط (أدهم) ، وإنما واصل الضغط عليه بكل قوته ، وهو يطلق صرخاته الوحشية ، وشعر (أدهم) بقوة الضغط ، الذى يكاد يهشّم عموده الفقرى ، فدفع ركبتيه إلى أعلى ، والتقط السلسلة المعدنية ، التى تربط ساقيه إلى الجدار ، وأدار قدميه فى مرونة مدهشة ، ثم أحاط عنق (إيفان) بالسلسلة المعدنية ، قائلاً :

- هيا أيها الوغد .. دعنا نجرِ اختبار القوة هذا ..

واصل (إيفان) ضغط ساعديه على صدر (أدهم) ، فى نفس

الوقت الذى شدّد فيه (أدهم) من ضغط السلسلة على عنقه ، حتى أطلق الوحش السوفيتى حشرجة خشنة ، وبدأ ساعداه يتراخيان حول صدر (أدهم) ، الذى قال فى سخرية شديدة :

- آه .. عظيم .. يبدو أن النتائج ستظهر باسرع مما كنت اتصوّر .

أطلق السوفيتى حشرجة أخرى ، وجحظت عيناه فى شدة ، وسقط على ركبتيه ، وتدلّى لسانه خارج فمه ، و ...

واقتحم رجال الحراسة الزنزانة ، وهم يصوبون إليه بنادق بدائية ، أشبه ببنادق الصيد ، ومن خلفهم ظهر (كوزيريف) ، وهو يهتف :

- أطلقوا أسلحتكم عليه .. هيّا .

جذب (أدهم) (إيفان) من عنقه فى سرعة ، وصنع من جسده درعًا يقيه طلقاتهم ، عندما ضغطت سبّاباتهم أزندة البنادق ..

ولم تنطلق من البنادق رصاصات عادية ..

لقد انطلقت منها أسهم صغيرة ، انغرست كلها فى جسد (إيفان) ، الذى جحظت عيناه أكثر ، وهمهم بعبارة روسية مبهمة ، ثم تهاوى رأسه على صدره ، وتراخى جسده تمامًا ..

ومرة أخرى ، صرخ (كوزيريف) :

- أطلقوا أسلحتكم .. لا تسمحوا بالتمادى .. إنه سجيننا .

قفز الرجال داخل الزنزانة ، وأحاطوا بـ (أدهم) من كل جانب ، وانطلقت من بنادقهم مرة أخرى تلك الأسهم الصغيرة ..

وشعر (أدهم) بسهم منها ينغرس فى ساقه ، وآخر فى ذراعه ، وثالث فى عنقه ..

لم يكن الألم شديدًا كما توقَّع ، ولكن المخدر سرى فى موضع الإصابات على الفور ، ثم انتشر منه بسرعة مدهشة ، وتصاعد إلى رأسه ، وأحاط به ...

ولم يدر بعدها ماذا حدث ..

فقط اظلمت الدنيا بغتة ، وتلاشى شعوره ، و ..

وسقط فاقد الوعى ..

وفى لهفة ، اسرع الجنود يخلِّصون عنق (إيفان) ، ويبعدونه عن (ادهم) ، واحدهم يقول فى دهشة :

- عجبًا ! .. أول مرة أرى فيها شخصًا يفعل هذا بـ (إيفان) .

وغمغم آخر :

- سيغضبه هذا كثيرًا .

واضاف الثالث :

- تُرى ماذا سيفعل ، عندما يستعيد وعيه ؟

اجابه الأول ، وهو يلقى نظرة على (ادهم) :

- سيثأر لكرامته حتمًا .

قال (كوزيريف) فى صرامة :

- هذا أفضل .

انتبه الجنود ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى انهم يتحدثون فى وجود رئيسهم ، فشحبت وجوههم ، وارتجفت أطرافهم ، وغمغم احدهم متوترًا :

- معذرة أيها الرفيق العقيد .. إننا لم ...

قاطعه (كوزيريف) مواصلاً حديثه ، وكانه لا ينتبه حتى إلى وجودهم ، وهو يتطلَّع إلى (ادهم) فى مقت شديد :

- فعندما يعود (إيفان) إلى هنا ، سيكون لديه ما يكفى من الغضب ليؤدى عمله مع هذا الرجل على اكمل وجه .

تبادل الجنود نظرة متوترة ، وأطلَّت الشفقة من عيون أحدهم ، وهو يتخيَّل ما يمكن أن يفعله (إيفان) مع (أدهم) عندما يعود إليه بكل غضبه وثورته ، فى حين أشار (كوزيريف) إلى هذا الأخير ، مستطردًا :

- أوثقوا هذا الرجل على فراشه باغلال معدنية .. واحرصوا على الا تتركوا له وسيلة واحدة للفرار ، فلن أسمح بحدوث أى تجاوز فى المرة القادمة ..

ثم عاد يتطلَّع إلى (أدهم) ، قبل أن يتابع :

- وعندما يستعيد (إيفان) وعيه ، دعوه ياتى إلى مكتبى أولاً ، قبل أن يبدأ عمله مع هذا الرجل ، فلدى ما ابلغه به بشانه .

قالها ، واقترب من (أدهم) الفاقد الوعى ، ومطَّ شفتيه فى بغض ، ثم أضاف فى صرامة :

- فهو يختلف عن كل من تعامل معهم من قبل .. يختلف كثيرًا .

قالها ، واستدار يغادر زنزانة (أدهم) فى خطوات واسعة سريعة ، تاركًا الجنود الثلاثة ينفذون أوامره ، ويقيدون (أدهم) إلى فراشه فى إحكام ، بحيث لا تعود لديه فرصة للنجاة من العذاب هذه المرة ..

أدنى فرصة .

* * *

١٣ - الهروب ..

أوقف (مائير شالوم) سيارته فى تلك المنطقة المقفرة ، على مشارف (هلسنكى) ، وترجل منها متجهًا إلى منزل قديم مهجور ، ودار حوله فى خطوات واسعة ، قبل أن يقع بصره على (هال) ، الذى يقف إلى جوار سيارته ، وشفتاه تحملان ابتسامة لزجة مقيتة ، وسمعه يقول فى حماس مصطنع :

مرحبًا يا عزيزى (شالوم) .. كنت أنتظرك بفارغ الصبر .

سأله (شالوم) فى صرامة :

- ماذا تريد بالضبط يا (هال) ؟! ..

أجابه (هال) فى سرعة :

- رؤيتك يا عزيزى (هال) .. لقد أوحشتنى كثيرًا ، منذ آخر لقاء لنا فى منزلك ، و ...

قاطعه (شالوم) مرة أخرى بصرامة أكثر :

- ماذا تريد بالضبط يا (هال) ؟! ..

مطَّ (هال) شفتيه ، وهو يقول :

- آه .. إذن فأنت تفضل الدخول فى الأمر مباشرة .. فليكن .. لقد طلبت مقابلتك لنتباحث بشأن المكافأة .

سأله (شالوم) فى غلظة :

- أية مكافأة ؟!

أجابه (هال) :

- مكافآتى الخاصة بتعاون عميلنا السوفيتى معكم .. أليس هذا ما اتفقنا عليه من قبل ؟

بدا الغضب فى وجه (شالوم) وصوته ، وهو يقول :

- أعتقد أنك حصلت على مكافآتك بالفعل يا (هال) .

أجابه (هال) فى شراسة :

- لا تحاول التملص من الاتفاق يا (شالوم) ، وإلا ..

قاطعه (شالوم) فى حدة :

- وإلا ماذا ؟!

أجاب (هال) فى صرامة :

- وإلا فستندمون كثيرًا يا سيِّد (شالوم) .

قال (شالوم) بصوت هادر :

- أتهديد هذا يا (هال) ؟!

أجابه (هال) فى عنف :

- بل إنذار يا سيِّد (شالوم) .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى عصبية شديدة :

تتصوَّرون أنكم أذكى أهل الأرض ، وأكثرهم خبثًا وبراعة ، وأنكم قادرون على خداع أى مخلوق فى الكون ، ولكن هذا لن ينطبق علىَّ .. لقد كنت أعلم أنكم ستحاولون التنصُّل من الاتفاق ، أو التهرُّب من دفع المكافآت الإضافية ، بل وتوقَّعت أن تحاولوا التخلص منى أيضًا ، لذا فقد استأجرت مخبرًا خاصًا ، لتصوير وتسجيل كل مقابلاتنا السابقة .. سواء تلك التى تمت بيننا وحدنا ، أو التى التقيت فيها بنا مجتمعين .

احتقن وجه (شالوم) وهو يقول فى غضب هادر :

- سجَّلت كل المقابلات ؟! .. أمجنون أنت يا رجل ؟!

أجابه (هال) فى حدة :

- بل رجل عاقل وذكى وحريص أيضًا يا سيِّد (شالوم) .. نعم .. لقد سجَّلت كل مقابلاتنا ، وأودعت التسجيلات مكانًا

أمينًا ، واتخذت ما يلزم من الإجراءات والترتيبات ، بحيث يتم تسليمها لرجال الصحافة وأجهزة الأمن لو أصابنى أى مكروه .

احتقن وجه (شالوم) أكثر ، وهو يقول :

– أيها الـ ..

قاطعه (هال) فى صرامة :

– لا تقل شيئًا يا سيِّد (شالوم) وإلا طالبتك بأجر إضافى لقاء كل ما تتفوَّه به .. واسمعنى جيدًا .. أريد مليونى دولار إضافية .. وقبل مضى اثنين وسبعين ساعة من الآن ، وإلا ..

وصمت لحظة ، ليطلق زفرة حارة ، قبل أن يكمل :

– وإلا فستدفعون أفدح ثمن دفعتموه ، فى حياتكم كلها .

واقترب منه أكثر ، ليضيف فى حدة :

ستفشل لعبتكم مع المصريين وينفضح أمرها .

قالها ، وتراجع عاقدًا حاجبيه فى صرامة ، ثم استدار ، واتجه إلى سيارته ، وقد تضاعف احتقان وجه (شالوم) مرتين على الأقل ، وهو يراقبه فى صمت مفعم بالبغض والكراهية ، حتى أدار محرك سيارته ، والتفت إليه ، قائلاً فى صرامة :

– تذكَّر جيدًا يا سيِّد (شالوم) .. اثنتان وسبعون ساعة فقط .. والوقت يمضى دائمًا بأسرع مما نتوقَّع .

ثم انطلق مبتعدًا بسيارته ، تاركًا (شالوم) خلفه يكاد ينفجر غيظًا وغضبًا ، وعقله يبحث عن الوسيلة المثلى للتخلُّص من هذه المشكلة الجديدة .. وإلى الأبد ..

* * *

أطرق (إيفان) بوجهه فى أسى ، وراح يفرك كفيه فى ارتباك ، وهو يقف أمام (فيدور كوزيريف) ، فى حجرة مكتب

هذا الأخير ، الذى رمقه بنظرة صارمة غاضبة ، قبل أن يقول :

– من الواضح أنك لم تعد كسابق عهدك يا (إيفان) .. لقد استطاع ذلك الرجل خداعك ، وتمكَّن من التغلُّب عليك فى دقائق معدودة ، ولولا وصولنا فى الوقت المناسب لانتهى أمرك تمامًا .

تمتم (إيفان) فى خفوت ، كتلميذ فاشل يتلقَّى العقاب :

– لن يحدث هذا ثانية أيها الرفيق العقيد .. هذا وعد .

أشار إليه (كوزيريف) فى حدة ، قائلاً :

– لا تعد بما لا يمكنك الوفاء به .

قال (إيفان) فى دهشة :

– لا يمكننى الوفاء به ؟! .. كيف أيها الرفيق العقيد ؟! .. الرجل فى قبضتنا ، وسأبدأ عملى معه بعد مغادرتى مكتبك ، والرفاق يؤكدون أنه مقيَّد فى فراشه بأغلال حديدية !

قال (كوزيريف) فى صرامة :

– هذا بالضبط ما أردت مقابلتك بشأنه .

ثم نهض من مقعده ، ودار حول مكتبه ، متابعًا :

– هذا الرجل بالذات يختلف عن كل من تعاملت معهم من قبل .. إنه يمتلك مزيجًا من خبث الثعالب ، وخفة الفهود ، وذكاء الذئاب ، وشجاعة الأسود ، ولا يمكنك أن تتوقع قط ما يمكن أن يفعله ، مما يعنى أنه من الضرورى أن تظلَّ متحفزًا ومتأهبًا طوال الوقت .

سأله (إيفان) فى حيرة :

– حتى وهو مقيَّد إلى فراشه ؟!

أجابه فى صرامة :

– حتى ولو كان داخل كرة مختومة من الصلب ، فى أعماق المحيط ، وفوقه ألف طن من الفولاذ .

ظهرت الحيرة على وجه (إيفان) أكثر وأكثر ، ولكنه غمغم :

- كما تأمر يا سيّدى .

كانت عبارة سخيفة ، لا تناسب الموقف ، إلا أن (كوزيريف) تجاهلها تمامًا ، وهو يقول :

- لاحظ أيضًا أن ذلك الرجل أكثر صلابة من المعتاد ، ويمكنه أن يتحمل أضعاف ما يتحمله الآخرون ، فلا تدخر جهدًا فى التعامل معه .

ارتسمت ابتسامة متلذّذة على شفتى (إيفان) ، وهو يقول :

- أنا لا أدخر جهدًا مع أحد ، أيها الرفيق العقيد .

مطّ (كوزيريف) شفتيه ، وأومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- عظيم .. اذهب لتؤدى مهمتك إذن يا رجل .

أدّى (إيفان) التحية العسكرية فى قوة ، وقال فى حماس نفس جملته المملة :

- كما تأمر يا سيّدى .

قالها ، واتجه على الفور إلى سجن الجواسيس ، وفتح زنزانة (أدهم) ، وتطلّع إليه فى مقت ، قبل أن يقول فى صرامة :

- ها نحن ذا نلتقى ثانية أيها الجاسوس .

كان (أدهم) يرقد مقيدًا إلى فراشه ، ولكنه تطلّع إليه بنظرة ساخرة ، وهو يقول متهكّمًا :

- دعنى أتذكر أين رأيتك من قبل يا ملك الثيران .. فى حديقة حيوان (موسكو) ، أم فى حظيرة المواشى فى (لينينجراد) ؟

التقى حاجبا (إيفان) فى غضب ، وهو يقول :

- اسخر ما شئت أيها الجاسوس ، فبعد دقائق سيعلو

صراخك ، حتى يغطى هزيم الرعد ، وستتوسّل إلىّ أن أتوقّف .

قال (أدهم) ساخرًا :

- يا إلهى ! .. إننى أرتجف هلعًا .. هل تسمح لى بالتوسّل إليك الآن يا ملك الثيران ، حتى تشيح عنى بوجهك القبيح هذا ، قبل أن أفرغ محتويات معدتى من شدة الاشمئزاز ؟

تضاعف غضب (إيفان) وهو يهتف فى ثورة :

- سأجعلك تدفع الثمن غاليًا أيها الجاسوس .

قالها ووضع يده فى جيبه ، ليلتقط أداته الحادة الرفيعة ، ثم التقى حاجباه مرة أخرى ، وهو يبحث عنها فى توتر ، وغمغم :

- اللعنة ! .. لقد اختفت .. أين هى ؟

قفز إلى ذهنه بغتة مشهد صراعه السابق مع (أدهم) ، فهتف :

- آه .. لقد فقدتها هنا .

دارت عيناه فى أرض الزنزانة لحظات ، ثم انحنى ليبحث عن أداة التعذيب أسفل الفراش ، الذى تم تقييد (أدهم) فوقه ، ولكنه لم يعثر عليها أيضًا ، وعندما أخرج رأسه من تحت الفراش ، فوجئ بالأداة أمام عينيه ، بين سبّابة (أدهم) وإبهامه ، وهو يقول فى سخرية :

- هل تبحث عن هذه ؟ !

انتفض (إيفان) فى ارتياع ، وهبّ واقفًا على قدميه ، وحدّق ذاهلاً فى (أدهم) ، الذى تحرّر من قيوده ، ووثب نحوه ، قائلاً :

- دعنى أشكرك كثيرًا على أداتك الطريفة هذه .

وكال له لكمة كالقنبلة ، مضيفًا :

- لقد سرقتها منك فى أثناء صراعنا السابق ، واحتفظت بها أسفل الوسادة .

ثم لكمه فى معدته لكمة قوية ، انثنى لها الثور السوفيتى ، وهو يطلق شهقة ألم قوية ، و (أدهم) يتابع :

- وعندما استعدت وعيى ، دفعت الوسادة براسى ، والتقطت أداتك بأسنانى .

وضمَّ قبضتيه ، ليهوى بهما مجتمعتين على مؤخرة عنق الرجل ، مستطردًا :

- ولا تسألنى كيف استخدمتها لحل قيودى .

هوى السوفيتى أرضًا ، واستقبلته ركبة (أدهم) فى أنفه مباشرة ، فانطلق من حلقه خوار مزعج ، قبل أن يسقط على وجهه فاقد الوعى ..

ولم يضع (أدهم) ثانية واحدة ..

لقد تحرك فى سرعة نحو باب الزنزانة وعالج رتاجه بالأداة الرفيعة فى خفة ، حتى استجاب له ، ففتح الباب ، وتلفَّت حوله فى حذر ، قبل أن يبتسم فى سخرية ، متمتمًا :

- ياللبراعة السوفيتية !! .. لا يوجد حارس واحد فى الممر .

كان يدرك جيدًا ، طبقًا للمعلومات التى حصلت عليها المخابرات المصرية ، أن هذا الممر ينتهى بحجرة الحراس ، التى لابد من عبورها ، للوصول إلى الساحة الرئيسية للسجن ، والتى تقود بدورها إلى ساحة مبنى المخابرات السوفيتية ..

وهذا يعنى أن محاولة الهروب من هذا المكان عسيرة للغاية !

بل هى مستحيلة ! .. طبقًا لكل المقاييس الأمنية المعروفة ..



ثم لكمه فى معدته لكمة قوية ، انثنى لها الثور السوفيتى ، وهو يطلق شهقة ألم قوية ..

ولكن هذا ما برع فيه ..
أن يتحدى المستحيل ..
ويحطِّمه ..
وبسرعة عاد (أدهم) إلى (إيفان) الفاقد الوعى ، وراح يفتش ثيابه جيدًا ، إلا أنه لم يعثر على أية أسلحة ، فتطلَّع إلى الأداة الحادة الرفيعة ، وغمغم ساخرًا :
- عجبًا ! .. يبدو أننى لن أمتلك سلاحًا سواك فى هذه المرحلة .
قالها ، وتحرَّك فى خفة ، عائدًا إلى الممر ، وانطلق عبره فى حذر ، حتى بلغ حجرة الحراس ، فالتصق بالجدار ، واختلس النظر إليها ..
كان هناك ستة من رجال الحراسة فى الحجرة ، وكل منهم يحمل مدفعًا آليًا ، وقد انهمك اثنان منهم فى تناول طعام العشاء ، فى حين جلس ثالث عند باب من الصلب ، يقود إلى ساحة السجن ، وراح الثلاثة الباقون يتبادلون الأحاديث ..
كان أحدهم يقول :
- كان من المفترض أن أقف لحراسة الممر ، ولكننى لم أعد أحتمل صرخات الألم والعذاب ، التى يطلقها أولئك المساكين ، عندما يبدأ (إيفان) الرهيب فى التعامل معهم ، لذا فقد أتيت إلى هنا فرارًا من هذا .
ضحك آخر ، قائلاً :
- العجيب أن (إيفان) اللعين يستمتع بكل لحظة من عمله الحقير هذا .
هزَّ ثالث كتفه ، وقال :

- هذا دأبه منذ أن تولَّى هذا العمل .. من الواضح أنه يعانى شيئًا من الخلل العقلى ، أو أن أحدهم قد عذَّبه فى طفولته .
قهقه الأول ضاحكًا ، وقال :
- قل لى يا رجل : هل قرَّرت أن تترك مهنتنا ، وتلتحق بكلية الطب لدراسة الطب النفسى ؟ !
عاد الثالث يهزَّ كتفيه قائلاً :
- وهل تعتقد أنه من السهل أن يترك المرء مهنة كمهنتنا ؟
قال الرجل الجالس عند الباب فى خشونة :
- ومن يرغب فى تركها ؟ ! .. إننى أحب هذه المهنة .
ضحك أحد الرجال الثلاثة ، قبل أن يقول :
- بالتأكيد .. إنها المهنة الوحيدة ، التى تمنحك حق اعتقال وقتل الآخرين دون مساءلة .
شعر (أدهم) بالضجر من حديثهم ؛ فترك موقعه ودلف إلى حجرتهم بغتة ، وهو يقول بالروسية :
- مساء الخير أيها الأوغاد .. هل تسمحون لى بالانضمام لكم ؟
التفت إليه الرجال الستة فى ذهول ، واتسعت عيونهم عن آخرها ، وهتف أحدهم :
- كيف ...
ولم يكمل السؤال قط ..
ففى نفس اللحظة التى ألقى فيها كلمته ، كان (أدهم) يضرب بقدمه المائدة ، التى جلس حولها الحارسان ليلقيها معهما ومع طعامهما أرضًا ، ثم ينقض على الرجال الثلاثة ، ويهوى على فك أحدهم بلكمة كالقنبلة ، فى نفس اللحظة التى

ركل فيها المدفع الآلى من يد الثانى ، ثم دار على عقبيه ، وركل الثالث فى معدته ، فاطلق الرجل شهقه قوية ، وهو ينثنى على نفسه ، فى نفس اللحظة التى هبَّ فيها الجندى الجالس امام الباب ، ورفع مدفعه ، هاتفًا فى توتر شديد :

- اللعنة ! .. إنها محاولة فرار .

لم يكد ينطقها ، حتى وثب (ادهم) يتعلَّق بالثريا المتدلية من السقف ، واندفع معها نحو الرجل ، وتحركت قدماه فى آن واحد ، فركل انفه باليسرى ، واطاح مدفعه باليمنى ، قبل ان يفلت من الثريا ، ويهبط أمامه على قدميه قائلاً :

- صدقت يا رجل .

ثم حطَّم أسنانه بلكمة خاطفة ، مضيفًا :

- إنها محاولة فرار .

سقط الرجل أرضًا كالحجر ، وتناثرت أسنانه المكسورة على الأرض ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها الحارسان ، واستعاد الآخران توازنهما ، وقفز الأربعة محاولين استعادة أسلحتهم ؛ لقتل خصمهم القوى ، الذى انقض عليهم كالصاعقة ، وهو يهتف :

- ليس بهذه البساطة .

ولكم أحدهم فى انفه ، لكمة أودعها كل قوته ، فتراجع معها الرجل فى عنف ، وارتطم بالجدار فى قوة ، ثم ارتدَّ عنه ، لتستقبله لكمة أخرى ، أسقطته فاقد النطق والوعى ..

ولكن الثلاثة الآخرين انقضوا على (ادهم) بدورهم ، قبل حتى أن يستعيدوا أسلحتهم ، وطوَّقه أحدهم بذراعيه من الخلف ، وهو يهتف برفيقيه :

- لقد شللت حركته .. عليكما به .

اندفع الرجلان نحو (أدهم) وكل منهما يستعد لتوجيه لكمة قوية له ، ولكن (ادهم) اعتمد بجسده على ذلك الذى يطوِّق ذراعيه من الخلف ، ورفع ساقيه عن الأرض ، ليركل مهاجميه بقدميه فى قوة ، واستغلَّ القوة الناشئة عن ركلتيه ، ليدفع ساقيه إلى أعلى أكثر ، ثم يدور بهما إلى الخلف ، فى حركة شديدة المرونة ، أدهشت خصمه ، وأجبرته على إفلاته ، لتكتمل دورته ، ويهبط خلفه فى خفة ، قائلاً :

- معذرة .. هل ضايقك ابتعادى عنك ؟

ثم هوى على أنفه بلكمة كالصاعقة ، مضيفًا :

- دعنا نقترب ثانية إذن .

تراجع الرجل مع عنف اللكمة ، وارتطم بزميليه ، قبل أن يستعيدا كامل توازنهما ، وسقط معهما أرضًا ، فوثب (أدهم) يركل أحدهما فى أنفه ، ثم دار على عقبيه فى خفة ، ليلكم الثانى فى فكه ، قبل أن يعتدل ، ويدير عينيه فى الرجال الستة ، الذين فقدوا وعيهم ، وافترشوا أرض الحجرة من حوله ، وغمغم فى سخرية :

- لم يكن الأمر بالصعوبة التى تصوَّرتها .

ولكنه لم يكد يتم عبارته حتى انعقد حاجباه فى شدة ، وقفزت ثورة الشك إلى أعمق أعماقه ..

هذا صحيح ..

الأمر لم يكن بالصعوبة المفترضة ..

وهذا على الرغم من الشهرة الواسعة ، التى يحوزها سجن الجواسيس فى (موسكو) ، والتى تؤكد أن الفرار منه مستحيل ! ..

ومن غير الممكن أن تكون هذه الشهرة قد بنيت دون أساس ..
وبالذات عندما تؤكد تقارير المخابرات السرية هذا ..
هناك إذن أمر غير طبيعى يحدث هنا ..
غير طبيعى على الإطلاق ..
وفى توتر ، راحت عيناه تفحصان المكان فى سرعة وخفة ، ثم لم يلبث حاجباه أن انعقدا فى شدة عندما توقَّف بصره عند نقطة بعينها ..
عند عدسة تصوير ، تختفى بمهارة فائقة ، بين أحجار الجدار الأيسر ..
إذن فهناك من يراقب كل هذا ..
هناك من يعلم أنه يسعى للفرار ..
وربما منذ اللحظة الأولى ..
وفى نفس اللحظة ، التى تعلَّق فيها بصره بعدسة التصوير ، والتى دارت فيها هذه الأفكار فى ذهنه ، انعقد حاجبا (كوزيريف) وهو يتطلع إلى صورته ، على شاشة المراقبة ، وغمغم :
- هذا الرجل ذكى وبارع بالفعل .. لقد كشف الأمر .
تمتمت (هيلجا) ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى بطء :
- لن يدهشنى هذا .
أما (جلجانوف) فقال فى عصبية :
- ماذا ينبغى أن نفعل الآن ، أيها الرفيق العقيد ؟
هزَّ (كوزيريف) كتفيه ، وأجاب فى بساطة :
- سننتقل إلى الخطوة الأخيرة أيها الرفيق الرائد ؟
قالها ، وضغط زرًا إلى جواره ، وهو يقول ، دون أن يرفع عينيه عن شاشة المراقبة :

- الآن .
ولم يكد يفعل ، حتى انفتح الباب المصنوع من الصلب ، فى حجرة الحراس ، بمنتهى العنف ، واندفع عبره عشرة من رجال الكوماندوز السوفييت ، صوبُوا أسلحتهم نحو (أدهم) ، فى نفس اللحظة التى برز فيها عشرة آخرون من الممر ، وهم يصوبون أسلحتهم نحوه بدورهم ، فابتسم (أدهم) فى سخرية وهو يقول :
- رائع .. إذن فأنا أستحق كل هذا العدد بالفعل !
لم ينطق أحدهم بحرف واحد ، لكن فوهات المدافع الآلية العشرين المصوَّبة إليه ، وتلك النظرات الصارمة القاسية فى العيون ، كانت كلها تعلن أن محاولة الهروب قد فشلت ..
فشلت تمامًا ..

* * *

أطلَّت نظرة ساخرة متشفية فى عينى (كوزيريف) ، وهو يجلس خلف مكتبه ، ويتطلَّع إلى (أدهم) ، الذى أحاط به عشرة من رجال الكوماندوز ، يصوبون إليه فوهات مدافعهم الآلية فى تحفز ، ثم قال ملوِّحًا بيده :
- هل تصوَّرت أن الفرار من هنا أمر بسيط أيها الرفيق (أدهم) ؟! .. كان ينبغى أن تعلم أن هذا مستحيل تمامًا ..
أجابه (أدهم) فى هدوء :
- لا يوجد مستحيل فى مثل هذه الأمور .. كلانا يعلم أن الفرار من أى سجن فى الدنيا ممكن ، لأنه لايجد قط جهاز أمنى خال من الثغرات مهما بلغت دقته .
ضرب (كوزيريف) سطح مكتبه براحته ، قائلاً فى صرامة :

- جهازنا خال من الثغرات تمامًا .
قال (ادهم) بابتسامة ساخرة :
- هل تراهنني ؟ !
انعقد حاجبا (كوزيريف) ، وتراجع في مقعده ، ومطَّ شفتيه في غضب ، قبل أن يقول :
- هذه ليست مشكلتنا الآن ..
ثم عاد يندفع إلى الأمام ، مستطردًا في حدة :
- مشكلتنا الحقيقية هي عنادك وسخافتك ايها الرفيق (أدهم) .. لماذا ترفض التعاون معنا ، وتجبرنا على التعامل معك بكل العنف والقسوة ؟ ! .. كل ما نريده منك مجرَّد اعتراف بسيط .
ابتسم (ادهم) في سخرية قائلاً :
- أتريدنني أن أعترف بأن بلادي حاولت التجسُّس عليكم ؟
تألَّقت عينا (كوزيريف) ببريق عجيب ، أثار دهشة (أدهم) وحذره ، قبل أن يقول السوفيتي بلهجة تحمل شيئًا من الارتياح :
- ألم يحدث هذا بالفعل ؟
قال (أدهم) في صرامة :
- ليس لدى وطني أي مبرِّر للتجسُّس عليكم يا رجل .. صحيح أن العلاقات بيننا ليست على ما يرام ، لكن هذا لن يدفعنا لإقحام أنفسنا في أموركم الداخلية .
لوَّح (جلجانوف) بسبَّابته في وجه (ادهم) ، وهو يقول في غضب :
- هل تحاول خداعنا يا رجل ؟

اجابه (أدهم) في قوله :
- لست أحاول خداع احد هنا ايها الرفيق .. إنني اخبركم بالحقيقة .. صدقوها او ارفضوها .. هذا شانكم ..
مطَّت (هيلجا) شفتيها ، ونفثت دخان سيجارتها ، متمتمة :
- إنك تتحدَّث كثيرًا بلا طائل .
ادار (أدهم) عينيه إليها ، والتقى حاجباه لحظة ، قبل أن يقول :
- هذا افضل من أن انفث الدخان طوال الوقت كقاطرة قديمة .
ابتسمت ساخرة ، ونفثت دخان سيجارتها بتتابع انيق وقالت :
- ربما كان هذا افضل ما يمكن فعله ، في ظروف كهذه .
انعقد حاجبا (كوزيريف) في حدة ، وقال في غلظة :
- لا نريد أحاديث جانبية أيتها الرفيق (مارونسكي) .
هزَّت كتفيها ، واشاحت بوجهها ، وعادت تنفث دخان سيجارتها في بطء ، وعلى نحو متقطِّع ، في حين قال (كوزيريف) :
- قل لي ايها الرفيق (ادهم) : هل كنت تنفذ اوامر رؤسائك ، عندما قدت طائرة التجسُّس إلى هنا .
التفت إليه (أدهم) وقال بسرعة :
- قل لي أنت ايها الرفيق (كوزيريف) : هل ستواصل هذه اللعبة حتى النهاية ؟
بدا التوتر على وجه (كوزيريف) ، وهو يتمتم :
- اية لعبة ؟ !

أما (جلجانوف) فصاح فى غلظة :

- احترس فى كلماتك يا هذا ، وإلا ..

قاطعه (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة :

- اللعبة السوفيتية التقليدية أيها الرفيق (كوزيريف) .. إنك تستدرجنى للحديث حول طائرة التجسُّس ، وتسجِّل كل كلمة أنطق بها ، حتى يمكنكم فيما بعد إعادة ترتيب كلماتى ، ووضعها فى شكل اعتراف صريح ، يمكنكم بواسطته خداع العالم أجمع .

شهق (جلجانوف) فى دهشة ، وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (هيلجا) ، فى حين التقى حاجبا (كوزيريف) فى شدة ، وهو يتساءل فى حيرة : كيف أدرك (أدهم) هذا ؟! ..

ولكنه لم يتوقَّف كثيرًا عند هذه النقطة ، وإنما قال فى صرامة :

- اللعبة السوفيتية تطورت كثيرًا فى الآونة الأخيرة ، أيها الرفيق (أدهم) .

ثم ضغط زرًا إلى جواره ، مستطردًا :

- هل حصلتم على ما يكفيكم ؟

أتاه صوت عبر جهاز اتصال داخلى ، يقول :

- نعم أيها الرفيق العقيد .

وهنا ارتسمت على شفتى (كوزيريف) ابتسامة ظافرة ، وقال :

- عظيم .. هل يمكنكم منحنا تجربة سريعة ؟

أجابه الصوت نفسه :

- بالتأكيد أيها الرفيق العقيد .. يمكننا منحك تجربة أوَّلية

بعد عشر دقائق فحسب ، ولكن النتيجة النهائية ستحتاج إلى بعض الوقت لإتقانها .

ألقى (كوزيريف) نظرة ساخرة متشفية على (أدهم) ، وهو يقول عبر جهاز الاتصال :

- فليكن .. أنا فى الانتظار .

واتسعت ابتسامته الظافرة ، وهو ينهى الاتصال ، ويواجه (أدهم) قائلاً :

- إننا لم نعد نكتفى بالتسجيلات الصوتية كسابق عهدنا .. لقد أضفنا إليها (الفيديو) والكمبيوتر ، وأصبحنا نحصل على نتائج مدهشة .

انعقد حاجبا (أدهم) دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين نهض (كوزيريف) من خلف مكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتجه إلى (أدهم) مستطردًا :

- ففى حالتك مثلاً ، وطبقًا لخطة وضعتها بنفسى ، اكتفينا بمراقبتك فى زنزانتك ، ورأينا كيف تخلَّصت من الأغلال ، باستخدام أداة التعذيب ، التى سرقتها من (إيفان) ، وكيف هاجمته ، وأفقدته وعيه .. والواقع أننا قرَّرنا الاحتفاظ بالشريط المسجَّل ، ليدرس رجالنا أساليبك ويتعلَّموا من براعتك ومهارتك .. وسنحتفظ كذلك بالشريط الآخر ، الذى سجلنا عليه قتالك مع الجنود الستة ، فهو دليل على حسن تدريبك ، وقدراتك القتالية العالية .. ولكننى أصارحك القول بأن هذا ليس السبب الوحيد لاحتفاظنا بالشرائط المسجَّلة ، وإنما هناك سبب آخر أكثر أهمية .

وتوقَّف أمامه مباشرة ، وتألَّقت عيناه فى شماتة ، وهو يضيف :

- سبب يتعلّق بالخطة الرئيسية .

تطلّع (أدهم) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

- أعتقد أننى أستطيع استنتاج خطتك الرئيسية هذه .

ابتسم (كوزيريف) دون أن يجيب ، فتابع (أدهم) :

- لو أننى وضعت نفسى فى موضعك ، واستعرت أسلوبك فى التفكير ، لاستخدمت هذه الشرائط المسجّلة لأثبت أن الجاسوس قد حاول الهرب .

قال (كوزيريف) فى هدوء :

- ولماذا أفعل ؟

أجابه (أدهم) :

لتبرّر قتلى مثلاً ، فى أثناء محاولتى الفرار .

ظلّ (كوزيريف) صامتًا ، يتطلّع إليه بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكًا فجأة ، وقال :

- تفكير رائع أيها الرفيق (أدهم) ، ولكنه لم يصب كبد الحقيقة مباشرة .

انعقد حاجبا (هيلجا) وهى تتطلّع إلى (أدهم) و (كوزيريف) فى توتر ، فى حين غمغم (جلجانوف) فى حيرة :

- لم يصب كبد الحقيقة ؟!

هتف (كوزيريف) ، وهو يواصل ضحكاته العالية :

- بالتأكيد .

ثم استدار فى حركة حادة إلى (أدهم) ، واستطرد فى جذل :

- إننا سنستخدم هذه الشرائط المسجّلة ؛ لنثبت محاولتك للهروب بالتأكيد ، ولكن ليس كمبرّر لقتلك .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يتطلّع إليه ، محاولاً

أن يستشف ما يدور فى أعماقه ، فى حين سأل (جلجانوف) مباشرة :

- لماذا نستخدم الشرائط إذن أيها الرفيق العقيد ؟

قبل أن يجيب (كوزيريف) تعالى صوت دقّات على باب حجرته ، فالتفت إليه قائلاً فى لهفة :

- ادخل يا رجل .

دلف رجل قصير أصلع إلى الحجرة ، وهو يحمل شريطًا من أشرطة (الفيديو) ، ويقول :

- التجربة الأولى أيها الرفيق العقيد .

اختطف (كوزيريف) الشريط من يد الرجل فى لهفة ، وأسرع به إلى جهاز (الفيديو) وهو يقول :

- الآن سترى كيف تطوّرت أساليبنا أيها الرفيق (أدهم) .

تعلّق بصر (أدهم) بشاشة (التليفزيون) ، عندما بدأ الشريط عمله ، ثم التقى حاجباه فى شدة ، عندما رأى صورته على الشاشة ، وسمع صوته يقول :

- أعترف بأن بلادى حاولت التجسّس عليكم .. لدى وطنى مبرّر للتجسّس .. العلاقات بيننا ليست على ما يرام ، وهذا يدفعنا لإقحام أنفسنا فى أموركم الداخلية .. إننى أخبركم بالحقيقة .

وتفجّر غضب هادر فى أعماق (أدهم) ..

لقد سجّل السوفيت صورته وصوته ، وهو يتحدّث مع (كوزيريف) ، وأجروا عليها بعض التعديلات ، بحيث حذفوا بعض الكلمات ، ودمجوا البعض الآخر ، ليبدو وكأنه يعترف بالتجسّس بدلاً من أن ينفيه ..

وبكل غضبه ، قال (أدهم) :

- أسلوبك حقير للغاية يا (كوزيريف)

قهقه (كوزيريف) ضاحكًا ، وهو يقول :

- لكنه فعَّال تمامًا أيها الرفيق (أدهم) .. لقد حصلنا بوساطته على اعتراف صريح منك ، دون أن نبذل أدنى جهد لتعذيبك ، أو انتزاع المعلومات منك قسرًا ، فلقد أكد خبراؤنا أنك لن تدلى بمثل هذا الاعتراف قط ، حتى ولو أحرق (إيفان) أطرافك واحدًا بعد الآخر .. ولم تكن أمامنا سوى هذه الوسيلة ، التى حققت نجاحًا مدهشًا .

وعاد يجلس خلف مكتبه ، وهو يستطرد :

- الآن لم نعد بحاجة إلى وجودك أيها الرفيق (أدهم) .. سنعرض الشريط المسجَّل بعد تعديله وإتقانه ، ونذيع اعترافك على العالم كله ، وبعدها نذيع محاولتك الفرار ، و ..

قاطعه (أدهم) :

- ومصرعى .

ابتسم (كوزيريف) ساخرًا ، وهو يقول :

- كلا يا عزيزى الرفيق (أدهم) .. أنا رجل رقيق المشاعر أكثر مما تتصوَّر ، ولن يمكننى قتلك بهذه البساطة .

وبرقت عيناه فى شماتة ، وهو يضيف :

- سنكتفى بنفيك إلى (سيبيريا) ، واحتجازك فى معتقل (فينوفيتشى) هناك ، ونعلن للعالم كله نجاحك فى الفرار .

هتف (أدهم) فى غضب ، وهو يهبّ من مقعده ، ويندفع نحوه :

- أيها الوغد الحقير .

ولكن ضربة عنيفة بكعب مدفع آلى ، هوت على مؤخِّرة

عنقه ، وأعقبتها أخرى على رأسه ، فمادت به الأرض ، وتهاوى وسط الحجرة فاقد الوعى ..

وكان آخر ما رآه هو ابتسامة (كوزيريف) ..

ابتسامته الشامتة ..

والظافرة .

* * *

١٤ - المعتقل ..

ساد صمت تام ، فى قاعة المشاهدة بمبنى المخابرات العامة المصرية ، وتعلقت عيون الحاضرين بشاشة كبيرة ، تنقل على الهواء مباشرة ، وقائع المؤتمر الصحفى الذى عقده السوفيت ، للإعلان عن محاولة التجسُّس ، وإبلاغ العالم بأن (مصر) تجاوزت وتحدَّت الأعراف الدولية ، وأرسلت طائرة رصد وتجسُّس إلى الاتحاد السوفيتى ..

واستعرض المسئول السوفيتى الذى رأس المؤتمر ، صور حطام الطائرة ، وأجهزة التجسُّس التى تم العثور عليها فيها ، ثم شرح كيفية إلقاء القبض على (ادهم) ، والتنكُّر الذى كان عليه ، عندما وقع فى قبضة رجال الكوماندوز ، وبعدها عرض الشريط الملفَّق ، الذى يحوى اعتراف (ادهم) ، وبعده أعلن أن الجاسوس قد نجح فى الفرار بمهارة مدهشة ، وأن المسئولين عن هذا تمت معاقبتهم بمنتهى الحزم ، وقبل أن يطالبه أحد الصحفيين بالدليل ، تم عرض الشرائط المسجَّلة ، التى تنقل تفاصيل محاولة (ادهم) الحقيقية للفرار ..

وعندما بدأ الصحفيون فى إلقاء أسئلتهم ، وقبل أن يحاصروا المسئول السوفيتى بها ، ظهر مسئول آخر ليعلن أن المؤتمر الصحفى قد انتهى ، وانسحب المسئول الأول ، متجاهلاً احتجاج الصحفيين ، وانتهى البث دون اعتذار أو تمهيد ..

ولثوان ، ظل الجميع على صمتهم ، ثم لم يلبث أحدهم أن قطع ذلك الصمت ، وهو يقول :

- هل تعتقدون أن (ادهم) قد نجح فى الفرار بالفعل ؟!

تبادل الكل نظرة طويلة ، قبل أن يقول المدير :

- الفرار من سجن الجواسيس فى (موسكو) ليس بالأمر السهل ، ولكن (ن - ١) قادر على فعله ، مهما بلغت صعوبته ، وكلكم تعرفون هذا خيرًا منى ، إلا أنه لو نجح فى هذا فعليًا ، سيجد السوفيت صعوبة فى الاعتراف بالأمر .

سأله أحد الرجال فى قلق :

- هل تعنى أن (ادهم) لم ينجح فى الفرار فعليًا يا سيِّدى ؟! .. رباه .. أيعنى هذا أنهم قتلوه فى سجنه ؟!

بدا الأسف على وجه المدير ، وهو يقول :

- أخشى أن هذا احتمال وارد .

بدا التوتر على وجوههم جميعًا ، وتبادلوا نظرات قلقة ، ثم سأل أحدهم :

- ألا توجد احتمالات أخرى ؟

أجابه المدير فى سرعة وكأنما كان يتوقَّع السؤال :

- احتمال واحد .

تطلَّعوا إليه جميعًا فى تساؤل ، فأضاف فى حسم :

- أنهم يحتفظون بـ (ادهم) ويرغبون فى تصفية كل ما يحمله من أسرار ومعلومات ، ولكنهم لا يرغبون فى حدوث أية مشكلات أو متاعب من جراء هذا ، ولا يحبون أن يطالب أحد باستعادته ، أو تحدث أية محاولة لإنقاذه ، لذا فهم يعلنون فراره ، لإلقاء المتاعب كلها خلف ظهورهم .

اتسعت العيون فى هلع ، وهتف أحد الرجال :

- رباه ! .. لو أن هذا الاحتمال صحيح ، فهو يعنى أن (ادهم) سيقاسى الأمرَّين على أيديهم .

اندفع آخر يسأل :

- وكيف يمكننا التأكُّد من الأمر أو ترجيح أحد الاحتمالين ؟

أجابه المدير وهو يفكِّر فى عمق :

- سيحتاج هذا إلى إجراء اتصال بعميلنا هناك .. العميل الأكثر خطورة ..

سأله أحدهم :

- ألسنا نجازف بكشف أمره هكذا ؟

أشار إليه المدير ، وهو يقول فى حزم :

- بالتأكيد ، ولكنك قلتها من قبل .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- ألا يستحق (أدهم) هذا ؟

قالها ، وعاد الصمت يسود المكان ، ويفسح المجال لحديث ، دار فى أعماق كل واحد من الحاضرين ..

حديث يحمل كل الاهتمام ..

وكل القلق ..

* * *

انعقد حاجبا (أندريه فينوفيتشى) ، قائد معتقل (سيبيريا) ، وتحوَّل وجهه إلى صورة مجسَّمة للصرامة ، وهو يتطلَّع إلى (أدهم) ، الذى قُيِّد معصماه وكاحلاه بأغلال معدنية ، ذات سلاسل قوية متصلة ، وأحاط به أربعة من حرَّاس المعسكر ، يصوبون إليه مدافعهم الآلية فى تحفُّز ، وقال فى حزم مخيف :

- إذن فأنت ذلك الجاسوس ، الذى جرؤ على اختراق مجالنا الجوى بطائرة تجسس حقيرة .

ابتسم (أدهم) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

- عجبًا ! .. هل صرت شهيرًا إلى هذا الحد ؟!

امتزجت الصرامة بالغضب فى وجه (فينوفيتشى) ، وهو يقول :

- آه .. إذن فبعد رحلتك الشاقة ، من (موسكو) إلى هنا ، مازالت لديك القدرة على السخرية . عظيم .. أراهن على أن عملية تهذيبك ستمثل تحديًا حقيقيًا .

ثم شدَّ قامته واستطرد فى صرامة أشد :

- اسمعنى جيدًا أيها المتحذلق .. لهذا المعتقل قواعده ، التى تختلف حتمًا عن قواعد الفنادق الفاخرة ؛ فهنا يخلد الجميع للنوم فى العاشرة مساءً ، وعقوبة من يتفوَّه بحرف واحد ، بعد هذه الساعة ، هى الجلد دون حد أقصى ، حتى تغطى الدماء جسده ، والاستيقاظ فى الرابعة صباحًا ، فأنا رجل شاعرى ، أحب أن يشاهد المعتقلون شروق الشمس ، وهم يبدءون عملهم فى قطع الأشجار وتخزينها ، ومن الطبيعى أنهم يواصلون عملهم هذا بلا انقطاع ، حتى الواحدة ظهرًا ، ثم يتناولون طعام الغداء ، المكوَّن من الخبز الجاف والجبن ، وبعدها يعاودون العمل دون توقُّف حتى التاسعة والنصف ، وعندئذ يتناولون وجبة أخرى من الجبن والخبز الجاف ، قبل أن يأوى كل منهم إلى فراش من القش ، ويحيط نفسه بغطاء من الصوف الخشن .. وينبغى أن تعلم أيضًا أن الخدمة هنا خمسة نجوم ، ومعنى هذا أن ارتكاب خطأ واحد يستوجب خمسة أنواع من العقاب .. هل فهمت حديثى جيدًا ؟

نطق (فينوفيتشى) هذه العبارات بأقصى قدر ممكن من الغلظة والقسوة ، متوقِّعًا أن يحطِّم أعصاب (أدهم) ، لذا فقد

احنقه واغضبه للغاية أن يبتسم هذا الأخير فى سخرية ، ويقول بالروسية :

- كلاً للأسف ، فأنا جاسوس ، ولا أجيد الروسية بقدر إجادتك لها .

احتقن وجه (فينوفيتشى) فى شدة ، وصرخ فى الجنود :

- خذوه من هنا .. أرسلوه إلى الجبّ للحبس الانفرادى .. لا أريد أن أراه إلا صباح الغد ، وعندما تشرق الشمس ، ضعوه تحت تصرّف الرفيق (سباسكى) .

ارتفع حاجبا أحد الجنود ، وهمس فى انفعال :

- يا للشيطان !! .. الرفيق (سباسكى) نفسه !!

وفى عنف ، دفع الجنود (أدهم) أمامهم ، وقطع ممزّقة من الفراء تغطى جسده ، وعبروا به الفناء إلى حفرة كبيرة ، يغطيها غطاء من المعدن ، فأزاح اثنان منهم الغطاء ، ثم دفعه الآخرون إلى الحفرة ، التى يبطنها الجليد من كل جانب ، وأحدهم يقول ساخرًا :

- تمتّع بوقتك فى الجبّ أيها المتحذلق ، وسنراك صباحًا .

أضاف آخر متهكّمًا :

- لو ظللت على قيد الحياة .

انفجر الباقون ضاحكين ، وأعادوا الغطاء فوق الجب ، ليغرق (أدهم) فى بحر من الظلام الدامس ..

ومن البرودة القارصة ..

ولكن العجيب أن هذا لم يحنقه أو يغضبه ..

بل على العكس ، لقد بدا وكأنما شعر بالارتياح لوجوده فى هذا المكان ..

والأعجب أنه لم يقبع فى مكانه لحظة واحدة ، وإنما شرع فى العمل على الفور ، وفى نشاط وحماس عجيبين ، فالتقط كمية من الجليد ، وراح يصنع منها كرة كبيرة ، ثم أزال جزءًا منها ، وبعدها أقدم على عمل عجيب ..

لقد الصق نصف الكرة الجليدى بوجهه ، وضغطه فى قوة ، وانتظر بضع لحظات ، متحملاً البرودة الرهيبة ، قبل أن ينتزعه ، وقد انطبعت فى الجليد صورة مجسّمة لوجهه .. وهنا انتقل إلى المرحلة التالية ..

وفى دقة مدهشة ، راح (أدهم) ينتزع قطعًا صغيرة من الفراء ، ويبطّن بها ذلك التجويف ، حتى امتلأ تمامًا ، وبعدها وضع طبقة أخرى من الجليد فوق الفراء ، ودفن كل هذا فى جزء من جدار الجب بعناية بالغة ..

وعندما انتهى من عمله هذا ، كانت عقارب الساعة قد بلغت الرابعة صباحًا ، وانطلق نفير الإيقاظ ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ارتياح ، وأحاط جسده بقطع الفراء ، ثم استرخى فى قاع الجب ، وكأنما يرقد فى حجرة أنيقة ، فى فندق خمسة نجوم بالفعل ..

ولم يكد جسده يسترخى لدقائق معدودة ، حتى انفتح غطاء الجب وصاح أحد الجنود السوفيت فى غلظة :

- استيقظ يا رجل .

رفع (أدهم) عينيه إليه فى بطء ، ورأى ثلاثة مدافع آلية مصوّبة إليه ، وسلمًا من الحبال يلقى داخل الجبّ ، وسمع الجندى يقول بنفس الغلظة :

- هيا .. اصعد .

نهض (أدهم) فى هدوء ، وتسلّق سلّم الحبال إلى السطح ، ورأى الجنود يصوبون إليه مدافعهم الآلية فى تحفّز ، فى حين يتطلّع إليه ضابط سوفيتى شاب ، فى أوائل الثلاثينات من عمره ، أشقر الشعر ، ممشوق القوام ، يطلّ مزيج من القسوة والصرامة فى عينيه الزرقاوين ، على الرغم من صمته التام ، وهو يراقب (أدهم) ، الذى تطلّع إليه بدوره بنظرة هادئة ، جعلته يتجاوز صمته ، ويقول فى صرامة :

- أتعشَم أن تكون الساعات التى قضيتها فى الجب ، قد أعطتك فكرة عن الأسلوب الذى نتعامل به هنا .

لم ينبس (أدهم) ببنت شفة ، وظلّ يتطلّع إليه فى صمت ، فتابع الضابط فى صرامة أكثر :

- عندما أرسلوك إلى هنا حذرونا منك ، وقالوا إنك أخطر جاسوس وقع فى قبضتنا حتى الآن ، وطالبونا بتكثيف الحراسة عليك بالذات ، وبإساءة معاملتك ، ومعاقبتك بمنتهى الحزم ، كلما ارتكبت خطأ ما .. وأنا أميل إلى تنفيذ كل هذه التعليمات ، ولكننى سأضيف إليها قاعدة جديدة .

وشدّ قامته أكثر ، وهو يرمق (أدهم) بنظرة قاسية ، قبل أن يستطرد :

- لقد وضعوك هنا لهدفين ، الأول معاقبتك على محاولة التجسُّس التى قمت بها ، والثانى الاحتفاظ بك فى مكان مأمون ، يستحيل الفرار منه ، حتى يتم استجوابك فى بطء ، وعلى الرغم من هذا ، فستخضع لقاعدتى الخاصة ، وهى قاعدة بسيطة للغاية ، فأنا لا أحب إضاعة الوقت فى عقاب لا طائل منه ، وعندما أشعر بأنك قد أصبحت عبئًا علىّ ، أو على النظام

والضبط والربط ، فى هذا المعتقل ، سأتجاوز كل القواعد والأعراف ، وأعدمك فورًا .. هل تفهم ؟

لم يجب (أدهم) ، وإنما راح يتطلع إليه بنفس الصمت المستفز ، فانعقد حاجبا الرجل أكثر وأكثر ، وقال فى غضب :

- اذهبوا به إلى العمل وأطلقوا النار على رأسه فورًا ، عند أدنى شكّ فى محاولة فرار .

دفع الجنود (أدهم) أمامهم فى قسوة ، دون أن يحلّوا أغلاله ذات السلاسل المعدنية الطويلة ، وقال أحدهم ساخرًا :

- يبدو أنك سيىء الحظ للغاية يا رجل .. قلائل هم من يوليهم الرفيق (سباسكى) اهتمامًا شخصيًا .

لم يعلّق (أدهم) على العبارة ، وإن راح يراجع فى ذهنه كل ما قرأه من معلومات ، فى أرشيف المخابرات المصرية ، عن هذا الرجل ..

اسمه (لون سباسكى) ضابط برتبة رائد ، سادى النزعة ، يتلذّذ بإيذاء وتعذيب الآخرين ، ولا يتورّع عن قتل أى معتقل ، فقط عندما يرغب فى فعل هذا ، ودون أسباب محدودة ..

وملفه يقول : إنه أخطر وأشرس ضابط فى معتقل (سيبيريا) ، وأكثرهم قسوة ووحشية ..

وهذا يعنى أن التعامل لن يكون سهلاً معه أبدًا ..

بل ، وربما يعنى أن هذا التعامل سيحمل حتمًا الكثير من المتاعب والمشكلات ..

والكثير من الخطر ..

كل الخطر

* * *

« نخب النهاية المأساوية لـ (ادهم صبرى) .. »

هتف (ثوردال) بالعبارة فى جذل ، وهو يرفع كاسه عاليًا ، فى القاعة الكبيرة فى فيلته الجديدة ، فرفع الآخرون كئوسهم بدورهم ، وغمغم (شالوم) مبتسمًا :

- نخب النهاية التى صنعناها بانفسنا .

مطّت (انجريد) شفتيها ، قبل ان ترتشف رشفة من كاسها ، وتقول فى برود :

- انت صنعتها وحدك .

انحنى امامها انحناءة مسرحية ، وهو يبتسم فى سخرية ، قائلاً :

- ما كانت خططى لتنجح لولا تعاونكم يا سيّدتى .

مطّت شفتيها مرة اخرى ، وهزّت كتفيها ثم اشاحت بوجهها فى ازدراء ، لم ينتبه إليه احد ، فى حين ضحك (هال) ، وقال بصوت مرتفع :

- هل تعلمون ان درجة الحرارة قد انخفضت أربع درجات إضافية اليوم ؟! والتنبؤات الجوية تشير إلى حدوث انخفاض اكثر فى الأيام القليلة القادمة ، بحيث ستبلغ درجة البرودة خمسين تحت الصفر فى (سيبيريا) ، فى اقلّ من اسبوع واحد .. تُرى كيف سيواجه عزيزنا (ادهم صبرى) هذا .

قال (هانز) مبتسمًا :

- ربما يشعل النار فى نفسه للتدفئة .

انفجروا جميعًا ضاحكين ، فيما عدا (انجريد) ، التى لم ترق لها الدعابة ، و (شالوم) ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وانتظر حتى انتهت ضحكاتهم ، ثم قال فى صرامة :

- ما اخشاه حقًا هو ان يشعل النار فى المعتقل كله .

تطلّع إليه الجميع فى دهشة ، مع الطريقة التى نطق بها عبارته ، وغمغم (هال) فى قلق :

- هل تعتقد انه مازال قادرًا على إثارة المتاعب ؟

اجابه (شالوم) فى حزم :

- لا يمكنك التنبؤ قط بما يمكن ان يفعله رجل مثل (ادهم صبرى) .. إننى اراه فى كوابيسى يذيب ثلوج (سيبيريا) كلها ، وينقضُ علينا راكبًا زورقًا بدائيًا ، يطفو فوق فيضان يغمر العالم اجمع .

ارتسم قلق عارم على وجوههم ، وتبادلوا نظرة متوترة للغاية ، قبل ان يتمتم (ثوردال) :

- انت على حق .

فجّرت عبارته خوفًا عنيفًا فى القلوب ، جعل (انجريد) تقول فى عصبية :

- الا يوجد ما يمكننا ان نفعله ، لنزيح هذا القلق من طريقنا إلى الأبد ؟

اشار إليها (شالوم) قائلاً :

- بالتاكيد لديكم ما تفعلونه .

ساله (هانز) فى اهتمام :

- لكنه اصبح فى معتقل (سيبيريا) بالفعل .. كيف يمكننا الوصول إليه هناك ؟

صمت (شالوم) لحظة ، وهو يدير عينيه فى وجوههم ، ثم اجاب :

- عميلكم يمكن الوصول إليه فى اى مكان .

انعقد حاجبا (هانز) فى شدة ، وارتسم الشكّ على وجه (هال) ، فى حين هتفت (انجريد) :

فليذهب إليه إذن ، وليخلّصنا من هذا القلق .

وقال (ثوردال) فى عصبية :

- (شالوم) على حق .. عميلنا يمكن الوصول إليه فى اى مكان .

وبصعوبة بالغة ، سيطر (شالوم) على انفعالاته ، واخفى ضحكته الساخرة الظافرة فى أعماقه ..

لقد نجحت خطته إلى اقصى حد ..

الآن سيمكنهم تعرُّف ذلك العميل السوفيتى الذى يعمل لحساب الشبكة الاسكندنافية ، وتحقيق هدف اكثر اهمية فى الوقت ذاته ..

القضاء على أخطر رجل مخابرات فى العالم أجمع ..

(ادهم) ..

(ادهم صبرى) ..

* * *

خلع العقيد (كوزيريف) قفازيه فى بطء ، وهو يقول أمام رئيس فريق الأطباء ، فى مستشفى (موسكو) المركزى ، واطلّت من عينيه نظرة صارمة ، وهو يقول :

- إذن فقد انتهى عملكم بنجاح .. عظيم .. هل تعتقد أن احدًا لن ينتبه إلى هذا ؟

أجابه رئيس الأطباء فى توتر :

- مطلقًا أيها الرفيق العقيد .. حتى الآثار القليلة المتبقية ، يمكن تعليلها بانها إصابات ناشئة عن المقاومة .

أومأ (كوزيريف) برأسه متفهمًا ، وقال فى صرامة :

- هل حافظتم على السرية المطلوبة ؟! .. أنت تعلم عواقب افتضاح هذا الأمر !

ثم مال نحوه مستطردًا بلهجة مخيفة :

- وتعلم إلى أين نرسل من يخالفون قواعد السرية هذه .

سرت قشعريرة باردة كثلوج (سيبيريا) فى جسد رئيس الأطباء ، وهو يقول بصوت مرتجف :

- أعلم أيها الرفيق العقيد .. أعلم .

مطّ (كوزيريف) شفتيه ، وهو يرمقه بنظرة صارمة ، قبل أن يقول :

- عظيم .. دعنا نر نتائج عملكم .

بذل رئيس الأطباء جهده للسيطرة على توتره وهو يسير امامه قائلاً :

- صدقنى أيها الرفيق العقيد .. لقد انجزنا عملاً مدهشًا بحق .. صحيح أنكم اخترتم الشخص المناسب تمامًا ، ولكنك تعلم مثلى أنه لا يمكن الحصول قط على تماثل تام .. حتى بين التوائم المتماثلة .

تمتم (كوزيريف) فى شىء من الضجر :

- أعلم هذا .. أعلم هذا .

اتجه رئيس الأطباء نحو حجرة خاصة ، يقف أمامها جنديان للحراسة ، وهو يقول :

- لقد عدّلنا شكل الذقن ، واتساع العينين ، والأنف ، و ....

قاطعه (كوزيريف) فى صرامة :

- لقد أديتم واجبكم .

ارتبك رئيس الأطباء ، وهو يتمتم :

- بالتأكيد .. بالتأكيد أيها الرفيق العقيد .. لقد أدينا واجبنا .

ثم لاذ بالصمت تمامًا ، وهو يدلف إلى الحجرة ، وأدّى الحارسان التحية العسكرية فى قوة لـ (كوزيريف) ، الذى أجابهما فى ضجر ، وهو يلج الحجرة بدوره ، ولكنه لم يكد يلقى نظرة على الشخص الراقد على ذلك الفراش فى منتصفها ، حتى تألقت عيناه فى شدة ، وهتف دون وعى :

- مستحيل !

اعتدل الرجل جالسًا فى احترام ، وأشار إليه رئيس الأطباء ، قائلاً :

- ما رأيك أيها الرفيق العقيد ؟

حدّق (كوزيريف) فى الرجل باهتمام بالغ ، وهو يغمغم :

- رائع .. إنجاز رائع بحق .

زفر رئيس الأطباء فى ارتياح ، وهو يقول :

- أشكرك أيها الرفيق العقيد .. أشكرك كثيرًا .

تطلّع (كوزيريف) مرة أخرى ، إلى الشخص الجالس على طرف الفراش ، فى انبهار ، ثم سأله فى اهتمام :

- هل تعتقد أنك قادر على القيام بالعمل ؟!

أجابه الرجل بلهجة عسكرية :

- نعم أيها الرفيق العقيد .

أومأ (كوزيريف) برأسه فى ارتياح ، وسأل :

- وماذا عن الأسئلة والأجوبة ؟

أجابه الرجل :

- أحفظها كلها عن ظهر قلب أيها الرفيق العقيد .

بدا ارتياح غامر على وجه (كوزيريف) ، وهو يقول :

- عظيم .. عظيم .. استعد إذن لتؤدى دورك .

أجابه الرجل فى حسم :

- أنا على أتم الاستعداد أيها الرفيق العقيد .

اتسعت ابتسامة (كوزيريف) الظافرة ، وربّت على كتف الطبيب فى حرارة ، قائلاً فى حماس :

- عمل رائع يا رجل .. عمل رائع بحق .

ابتهج الطبيب كثيرًا ، وهو يقول :

- أشكرك أيها الرفيق .. أشكرك كثيرًا .

اتجه (كوزيريف) نحو الباب ، وارتدى قفازيه ثانية ، وهو يقول ، وقد استعاد صرامته :

- أريد كل شىء جاهزًا صباح الغد .

ثم تألقت عيناه فى ظفر ثانية ، وهو يستطرد :

- لا أطيق صبرًا لمعرفة رد فعل المصريين .

وعندما كان يدلف إلى سيارته ، تحولت ابتسامته الظافرة إلى ضحكة ..

ضحكة كبيرة ..

وقوية ، و ..

وشامتة ..

* * *

على الرغم من العمل الشاق ، الذى يمارسونه منذ الرابعة صباحًا ، انشغل معتقلو (سيبيريا) بالتطلُّع إلى ذلك المعتقل الجديد ، الذى أحيط باستعدادات أمنية خاصة ، تمثّلت فى ثلاثة من الجنود المدججين بالسلاح ، يصوبون إليه مدافعهم الآلية باستمرار ، على الرغم من الأغلال المعدنية ، ذات السلاسل الطويلة ، التى تحيط بمعصميه وكاحليه ..

والعجيب أن المعتقل الجديد نفسه لم يبد اهتمامًا بهؤلاء الجنود الثلاثة ، الذين أصابهم الإرهاق من طول مراقبته والتحفز لأى عمل يأتى به ، وإنما راح يقطع الأشجار ، ويجمع ذلك النوع من الصمغ منها فى عناية بالغة ، داخل الوعاء الذى أعطوه إياه ، وكأنما لم يعد يشغله فى الدنيا سوى عمله هذا ..

وتساءل المعتقلون فى حيرة عمن يكون هذا المعتقل الجديد ، ولكنهم اتفقوا ، دون أن يتبادلوا حرفًا واحدًا ، على أنه حتمًا شخص له أهمية كبيرة ، ويمثل خطورة بالغة تدفع هؤلاء الوحوش المسئولين عن المعتقل ، إلى إحاطته بكل هذه الحراسة ..

ومما ضاعف من دهشتهم وحيرتهم ، أن أشرس ضباط المعسكر الرائد (لون سباسكى) بنفسه ، قد حضر قرب غروب الشمس ، ووقف يتطلع إلى المعتقل الجديد بنظرة صارمة ، قبل أن يقول :

- هل راق لك العمل هنا أيها الجاسوس ؟ !

وسرت فى أجسادهم قشعريرة مذعورة ، عندما تجاهل (أدهم) هذا القول تمامًا ، وكأنما لم يسمعه ، وبدا لهم أنه مجنون حتمًا ، حتى يتحدى ذلك الوحش الآدمى ، على هذا النحو السافر ، وخُيِّل إليهم أن (سباسكى) سيطلق النار على رأسه حتمًا ، خاصة وقد احتقن وجه هذا الأخير فى شدة ، وصاح فى غضب هادر :

- ألم تسمعنى أيها المعتقل .. إننى أتحدثُ إليك ؟

وعلى الرغم من الخوف والذعر ، اللذين امتلأت بهما

نفوسهم ، بدا (أدهم) شديد الهدوء واللامبالاة ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً :

- هل تتحدثُ إلىَّ حقًا ؟ ! .. عجبًا .. لم يخبرنى أحد قط أن اسمى تغيَّر إلى (جاسوس) أو معتقل !!

احتقن وجه (سباسكى) أكثر ، وهو يصرخ :

- هل تجرؤ على التحدث إلىَّ بهذا الأسلوب يا رجل ؟ !

ارتسمت على شفتى (أدهم) ابتسامة ساخرة ، وهو يصنع قرصًا من الصمغ فى عناية بالغة قائلاً :

- وهل توجد وسيلة أخرى للتحدث مع أمثالك ؟

احتبست أنفاس الجميع فى قوة ، وبدا لهم أن الموقف سيشتعل حتمًا ، فى حين احتقن وجه (سباسكى) فى شدة ، وهو يصرخ ، منقضًا على (أدهم) :

- أيها الوغد الحقير .

ولكن فجأة ، وعلى الرغم من قيوده وثب (أدهم) نحوه ، واستقبل انتفاضته بمثلها ، وضرب وجهه بقرص الصمغ ، بكل ما يملك من قوة ..

وفى نفس اللحظة التى انطلقت فيها شهقات وصرخات المعتقلين ، والتى سقط فيها (سباسكى) على ظهره فى عنف ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية للجنود الثلاثة نحو (أدهم) ، و ...

واشتعل الموقف بحق .

* * *



ولكن فجأة ، وعلى الرغم من قيوده وثب (أدهم) نحوه ، واستقبل انتفاضته بمثلها ، وضرب وجهه بقرص الصمغ ..

١٥ - وجهًا لوجه ..

تنهَّدت النقيب (هيلجا مارونسكى) فى ضجر ، عندما حلَّقت بها الطائرة مع زميلها الرائد (يورى جلجانوف) وسألته فى ملل ، وهى تسترخى فى مقعدها :

- هل تعلم كم ستستغرق رحلتنا ، حتى (سيبيريا) ؟!

أجابها (جلجانوف) فى برود :

- سبع ساعات بالطائرة حتى (ياكوتسك) ، وبعدها ثلاث ساعات بالهليوكوبتر ، من (ياكوتسك) إلى معتقل (سيبيريا) .

زفرت فى ملل قبل أن تقول :

- وهل تعتقد أن مثل هذه الرحلة ضرورية ؟! .. أعنى ما شأننا نحن بعملية استجواب (أدهم صبرى) هذه ؟! لماذا لا يقوم بها (سباسكى) أو (فينوفيتشى) فى المعتقل ؟

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يجيب :

- هل نسيت القواعد ، أم أنك تمزحين أيتها النقيب ؟ .. استجواب جاسوس هو مهمة الـ (K . G . B) ، وليس ضباط المعتقل التافهين .

سألته فى شىء من السخرية :

- مادام الأمر كذلك ، فلماذا نتجشَّم كل هذا الجهد لاستجوابه ؟ .. كان يمكننا استجوابه هنا فى (موسكو) .

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- كلاً .. لم يكن هذا ممكنًا .. خطة الإدارة كلها تعتمد على إثبات أن (أدهم صبرى) قد هرب ، بعد إلقاء القبض عليه بتهمة التجسُّس ، ولقد درس الرؤساء الأمر ، ووجدوا أن

وجوده داخل المقر الرئيسى سيجعل العملية كلها محفوفة بالخطر ، خاصة وانه هناك معلومات بالغة السرية ، تشير إلى احتمال وجود جاسوس بين صفوفنا .

اعتدلت بحركة حادة ، وهى تهتف :

- جاسوس ؟! هنا !!

اشار لها بالصمت فى صرامة ، وقال :

- اخفضى صوتك أيتها الرفيق .. قلت لك : إن هذه المعلومات بالغة السرية .

سألته هامسة فى انفعال :

- كيف توصلت إليها إذن ؟

انعقد حاجباه وهو يقول فى صرامة :

- ليس هذا من شانك .

تراجعت قائلة فى غضب :

- المفترض أننى زميلتك .

حافظ على انعقاد حاجبيه لحظة ، قبل أن يقول :

- إنها معلومات خاصة للغاية ، فقد انتبه الرؤساء إلى وجود ترسيب فى المعلومات ، يوحى بوجود جاسوس بين الصفوف ، وهم يحاولون كشف أمره فى حذر بالغ ، خاصة وأنهم مازالوا يجهلون لحساب من يعمل .

بدا عليها الانفعال ، وهى تهزّ رأسها ، قائلة :

- جاسوس ؟! .. ياله من أمر بالغ الخطورة .

وافقها بإيماءة من رأسه ، وقال :

- لهذا خشى المسئولون أن يبقى (أدهم صبرى) لدينا ، فيبلغ الجاسوس الجهة التى يعمل لحسابها بهذا ، وفضلوا

إرساله إلى مكان لا يمكنه الفرار منه قط ، ولم يكن هناك أفضل من معتقل (سيبيريا) .

سألته فى اهتمام :

- ولماذا لم يتمّ انتزاع المعلومات منه بوساطة (إيفان) ؟

ابتسم فى سخرية قائلاً :

- وتقولين : إنك تفهمين شخصية (أدهم صبرى) ؟!

ثم مال نحوها مستطردًا فى صرامة :

- خبراؤنا أكدوا أن رجلاً مثله لا يمكن أن ينهار من جراء التعذيب ، مهما بلغت شدته ، وقسوته ، وأن صلابة أمر لا جدال فيه ، بحيث لن ينطق بكلمة واحدة ، ولو بترنا أطرافه ، واحدًا بعد الآخر .. لماذا لجئوا إلى الحيلة فى رأيك ، لو لم يكن كذلك ؟!

هزّت كتفيها ، قائلة :

كل هذا أعرفه عنه ، ولكن ما يثير حيرتى حقًا هو : ما الذى استجد بعد ذهابه إلى (سيبيريا) ، بحيث يصبح استجوابه هناك مجديًا ؟!

انعقد حاجباه فى شدة هذه المرة ، وكأنما لم يرق له السؤال أبدًا ، وقال فى صرامة :

- إنك تكثرين من الأسئلة أيتها الرفيق (مارونسكى) .

قالت فى حدة :

- أليس من المفترض أن أفهم على الأقل ما نحن بصدده ؟!

صمت لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

- الرؤساء قدّروا أن الوقت قد حان لاستخدام مصل الحقيقة .

سألته فى دهشة :

- ما الذى كان يعوق استخدامه من قبل ؟

أجابها بسرعة :

العقار المضاد .. لقد أكّدت معلوماتنا أن المصريين لديهم عقار مضاد لمادة (بنتوثال الصوديوم) ، التى تُستخدم لوضع المرء فى حالة أشبه بغيبوبة اليقظة ، بحيث يتم انتزاع المعلومات منه بسهولة ، وأن عقارهم المضاد هذا يمتد تأثيره لستة أيام متصلة ، ولا يمكن كشف أمره بوساطة تحاليل الدم العادية ، ولهذا انتظروا حتى يضمنوا تلاشى أثره تمامًا قبل حقن (أدهم صبرى) هذا بمصل الحقيقة ، مفترضين أنه قد تناول جرعة من العقار المضاد كإجراء وقائى ، عند إلقاء القبض عليه ..

أومأت برأسها متفهّمة و قالت :

- فهمت .. إذن فنحن فى طريقنا لاستجواب (أدهمَ صبرى) باستخدام مصل الحقيقة .

قال على الفور :

- ثم التخلّص منه فورًا .

التفتت إليه فى دهشة ، فتابع ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة خبيثة :

- فلقد انتفت الحاجة إلى وجوده منذ ساعة واحدة .. انتفت تمامًا .

ولم تفهم (هيلجا) ما يعنيه هذه المرة ..

لم تفهم أبدًا ..

* * *

كل شىء كان يوحى بأن نهاية (أدهم) آتية لا ريب ..

لقد كان مقيدًا بأغلال معدنية قوية ، تربط كاحليه ومعصميه

بسلاسل طويلة ، لا تعوقه عن الحركة ، ولكنها تحدّ من مرونته إلى حد كبير ، وضرب أشرس ضباط المعتقل فى وجهه ، وأسقطه على ظهره ، أمام عيون الجميع ، وارتفعت فوهات مدافع حرّاسه الثلاثة نحوه ، واستعدّت سبّاباتهم لاعتصار أزندة المدافع ، وإطلاق النار على (أدهم) مباشرة ، و ...

وفجأة ، ارتفع صوت صارم ، يقول :

- انتظروا .

وبرز (أندريه فينوفيتشى) قائد المعتقل ، بوجهه الصارم القاسى ، وهو يستطرد فى غضب :

ماذا يحدث هنا ؟

هبّ (سباسكى) واقفًا ، وارتجف جسده كله من فرط الغضب والانفعال ، وهو يشير إلى (أدهم) صائحًا :

- هذا المعتقل الحقير جرؤ على تحدّى أوامرى وهاجمنى أمام الجميع .. لابد من قتله بمنتهى القسوة ، حتى يصبح عبرة لمن يعتبر .

ثم استل مسدسه ، مستطردًا فى ثورة :

- والآن .

اندفع (فينوفيتشى) يمسك يده ، قبل أن تنطلق الرصاصة الغاضبة من مسدسه ، وقال فى صرامة :

- انتظر .. لا يمكنك قتل هذا الرجل بالتحديد .

صرخ (سباسكى) ثائرًا :

- لا يمكننى ماذا ؟! .. كلنا نعلم أنه ما من معتقل ينجو من فعل كهذا ، أيها الرفيق القائد .

قال (فينوفيتشى) بصوت هادر :

- قلت : لا يمكنك قتله .

ثم أضاف ، وهو يخفض فوهة المسدس عنوة :

– ليس فى الوقت الحالى على الأقل .

حدّق (سباسكى) فى وجهه بغضب ثائر مستنكر ، فانعقد حاجبا (فينوفيتشى) ، واستدار إلى جنود الحراسة قائلاً :

– ألقوا هذا الرجل فى الجب ، واتركوه هناك ، بلا طعام أو ماء حتى أصدر أوامر أخرى .

دفع الرجال (أدهم) أمامهم فى قسوة ، فابتسم فى سخرية ، قائلاً :

– إلى اللقاء فى المرة القادمة أيها الرفيق (سباسكى) .

احتقن وجه (سباسكى) وصوّب إليه مسدسه مرة أخرى ، صائحًا :

هل سمعت أيها الرفيق القائد ؟ .. هل سمعت ؟! .. ألا يستحقّ القتل لهذا ؟

أجابه (فينوفيتشى) فى عصبية :

– اهدأ يا (سباسكى) ، واستمع إلىّ جيدًا .. هذا الرجل حالة خاصة للغاية .

تضاعف احتقان وجه (سباسكى) ، حتى كادت الدماء تنفجر من عينيه ، وهو يعيد مسدسه إلى غمده فى حنق مستنكر :

– حالة خاصة للغاية !! .. أى قول هذا ؟

ثم استدار إلى جموع المعتقلين ، الذين يتطلّعون إليهما ، صارخًا :

– ما الذى تنظرون إليه ؟! .. عودوا إلى عملكم أيها الحقراء .. أنت هناك .. ما الذى يثير انتباهك ؟

قالها ، وانقض على أحد المعتقلين ، ولكمه فى أنفه ، ولم يكد الرجل يسقط فوق الجليد ، وهو يتأوّه فى ألم ، حتى راح يركله بمنتهى العنف والقسوة ، وكأنه يفرغ فيه كل غضبه وثورته ، دون أن يتدخّل (فينوفيتشى) ، أو يعلّق بحرف واحد ، بل أشاح بوجهه عما يحدث ، وراقب الجنود الثلاثة ، وهم يلقون (أدهم) داخل الجبّ الجليدى ، وأدهشه استسلام هذا الأخير لهم على نحو عجيب ، ورآهم يغلقون الجب خلفه ، فهزّ رأسه متحيّرًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم استدار إلى(سباسكى) ، الذى عاد إليه لاهثًا ، بعد أن حطّم ثلاثة من أضلاع المعتقل المسكين ، وأفقده الوعى ، وهو يقول فى حدة :

– هؤلاء الأوغاد لا يصلح معهم سوى التعامل العنيف .

مطّ (فينوفيتشى) شفتيه دون أن يجيب ، وسار بضع خطوات صامتًا ، إلى جوار (سباسكى) ، الذى يغلى غضبًا ، ثم قال :

– المخابرات أرسلت اثنين من عملائها إلى هنا ؛ لاستجواب ذلك الرجل .

عقد (سباسكى) حاجبيه ، وهو يقول فى عصبية :

– أهذا ما يضطرنا للإبقاء عليه ؟

هزّ (فينوفيتشى) كتفيه مجيبًا :

– أنا أبغضه بأكثر مما تفعل أنت ، ولكنك تعرف الأوامر .

صمت (سباسكى) بضع لحظات ، وهو يحاول السيطرة على الثورة المندلعة فى أعماقه ، ثم قال فى شىء من التوتر والحدّة :

– كم سيستغرق استجوابه ؟

أجابه (فينوفيتشى) بسرعة :

- يومًا واحدًا .

توقّف (سباسكى) بغتة ، وهتف :

- أتعنى أنه بعد هذا اليوم يمكننا أن ...

قاطعه (فينوفيتشى) مكملاً بابتسامة ذات مغزى :

- نقتله لو أردنا .. نعم .. كل ما أمامنا هو أن نحتمله حتى ينتهى استجوابهم له ، وبعدها سنفعل ما يحلو لنا .

ثم وضع يده على كتفه ، مستطردًا :

- وأعدك أن أشرف على إعدامه بنفسى عندئذ .

تألقت عينا (سباسكى) ، وأدارهما ليلقى نظرة على ذلك الجب ، الذى ألقوا (أدهم) فى أعماقه ، وهو يتمتم :

- سأحرص على ألا تفوتنى تلك اللحظات الرائعة أبدًا ..

والتقى حاجباه فى شدة ، مع صوته المفعم بالمقت والكراهية ، وهو يكرِّر :

- أبدًا ..

أما (أدهم) نفسه فلم يكن يحمل ذرة واحدة من الأسف أو الغضب ، فى أعماق الجبّ ، وإنما استقرّ بعض الوقت فى هدوء ، ليضمن أن أحدًا لن يقتحم عليه خلوته ، وأرهف سمعه لربع ساعة كاملة ، قبل أن يبدأ عمله بمنتهى النشاط ..

فى البداية أخرج كرة الثلج الذى دفنها فى قاع الجب ، فى المرة السابقة ، ثم فصل نصفيها فى حرص ، ساعدته عليه قطع الفراء ، التى بطَّن بها انطباع وجهه فى الجليد ، وابتسم فى سخرية وهو يخرج قرص الصمغ ، الذى انطبع عليه وجه (سباسكى) ، والذى انتهز الارتباك الذى أحدثه هجومه على هذا الأخير ، ليخفيه فى طيَّات ثيابه ، وغمغم :

- كيف يمكننى أن أشكرك أيها الوغد (سباسكى) ؛ لأنك أتحت لى الفرصة لإتمام عملى هنا .

وطوال خمس ساعات كاملة ، وعلى الرغم من الظلام ، ومن درجة البرودة ، التى بلغت فى تلك الليلة عشرين درجة تحت الصفر ، راح (أدهم) يعمل بمنتهى الدقة والنشاط والحيوية ، ويفرك أطراف قرص الشمع فى قوة ليبث فيه شيئًا من الحرارة ، ويذيبه رويدًا رويدًا داخل قوالب الثلج التى صنعها فى مهارة مدهشة ..

كان يعمل بلا كلل أو ملل ، فى محاولة لإنهاء عمله الدقيق قبل الرابعة صباحًا ، على الرغم من أنه لم يذق طعم النوم لليلتين كاملتين ..

وعندما انطلق نفير الإيقاظ ، فى تمام الرابعة ، كانت كل خلية فى جسده تصرخ بالإرهاق والإجهاد والتعب ، ولكنه انتهى تمامًا من عمله ، وانتزع فى رفق طبقة رقيقة من الصمغ ، وطواها فى رفق ، بعد أن بطنها بقطع من الفراء ، ثم أخفاها بين ثيابه ..

وهنا ..

هنا فقط ، أغلق عينيه فى تهالك ، وغمغم :

- عظيم .. ليلة مثمرة بحق .

وفى هدوء وارتياح ، أحاط جسده بقطع الفراء فى إحكام ، ثم استسلم لنوم عميق ..

عميق للغاية ..

ولكن نومه هذا لم يستغرق طويلاً للأسف ..

فلم تمض دقائق معدودة ، حتى فتح السوفيت الجبَّ ، وارتفع صوت أحدهم فى صرامة ، يقول :

- استيقظ يا رجل .

فتح (أدهم) عينيه فى إرهاق ، لم يمنعه من أن يقول فى سخرية :

- من هذا ؟ ! .. خدمة الغرف .

ألقى الجندى إليه سلم الحبال ، وهو يقول فى حدة :

- هيا اصعد .

تسلَّق (أدهم) السلم إلى سطح الجبِّ ، ورأى المدافع الآلية مصوَّبة إليه ، وسمع أحد الجنود يقول متحفزًا :

- الرفيق (سباسكى) أصدر أوامره بأن تبدأ عملك اليومى مع باقى المعتقلين ، دون أن تتناول وجبة الإفطار .

قال (أدهم) ساخرًا :

- عجبًا ! .. أى فندق هذا ، الذى لا يتناول فيه النزلاء أية وجبات ؟

دفعه الجندى بمدفعه فى غلظة ، قائلاً :

- هيَّا .. كفَّ عن سخافاتك هذه ، واذهب إلى العمل .

كان (أدهم) يشعر بإرهاق شديد ، إلا أنه أخفى هذا فى أعماقه ، وتماسك ببسالة منقطعة النظير ، وهو يعمل بنفس النشاط الذى يعمل به الآخرون ..

بل ربما كان هو الوحيد ، من بين المعتقلين كلهم ، الذى يعمل بكل هذا النشاط ..

وفى حذر ، اقترب منه أحد المعتقلين ، وهمس :

- أهنئك يا رجل .. أنت الوحيد الذى حطَّم أنف وحش (سيبيريا) .

ابتسم (أدهم) فى سخرية هامسًا :

- وحش (سيبيريا) ؟ ! .. أهذا هو اللقب ، الذى تطلقونه على (لون سباسكى) ؟

همس الرجل :

- إنه يستحقه عن جدارة .. ذلك الوغد وحش حقيقى .. لقد قتل أكثر من ستين معتقلاً بلا أدنى رحمة أو شفقة ، منذ بدأ عمله هنا ..

انعقد حاجبا (أدهم) فى غضب ، وهو يقول :

- رجل كهذا يستحق القتل .

تلفَّت الرجل حوله ، قبل أن يهمس :

- ورجل مثلك يستحق الزعامة .

تطلَّع إليه (أدهم) فى دهشة مغمغمًا :

- الزعامة ؟ ! ..

صاح أحد الرجال الثلاثة الذى يراقبون (أدهم) ، فى صرامة :

- فيم تتهامسان ؟

رفع الرجل عينيه إلى الرجال الثلاثة ، وهو يجيب بسرعة :

- إنه مجرَّد حديث عابر يا رجل .. وبالمناسبة .. لقد صنعت لكم السجائر التى طلبتموها .

تبادل الحرَّاس الثلاثة نظرة قلقة ، ثم تقدَّم أحدهم نحوه ، قائلاً فى حذر عصبى :

- أين هى ؟

دسَّ الرجل يده فى صدره ، وأخرج منه رزمة من اللفائف الداكنة ، ناولها للحارس فى خفة ، وهو يقول :

- إنه أفضل تبغ عثرنا عليه فى حجرة الضباط .
تألقت عينا الجندى فى لهفة ، وهو يقول :
- عظيم .. عظيم .
وتلفت حوله فى توتر ، قبل أن يعود إلى زميليه ، وينشغل الثلاثة فى اقتسام السجائر ، فابتسم (أدهم) ، مغمغمًا :
- هل تتعامل معهم بهذا الأسلوب دائمًا ؟
أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :
- إنهم يعانون مثلما نعانى ، فالضباط وحدهم يتمتعون بكل الرفاهية هنا .
ثم لوح بكفه ، مستطردًا :
- ولكن دعنا نعُد إلى حديثنا .. لقد تحرينا عنك ، وعرفنا من تكون .. اسمك (أدهم صبرى) ، وأنت جاسوس مصرى ، اخترق المجال الجوى السوفيتى ، و ...
قاطعه (أدهم) :
- لا تصدِّق كل ما تسمعه يا رجل .
ابتسم الرجل وهو يتطلَّع إليه قائلاً :
- فليكن .. دعنا من كل هذا ، ولندخل فى الأمر مباشرة .. لقد راق لنا أسلوبك كثيرًا ، ونعتقد أنك الرجل المناسب ؛ لتقود ثورتنا ضد هؤلاء الطغاة .
انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يغمغم :
- ثورتكم ؟!
قال الرجل فى حماس مكبوت :
- نعم يا سيِّد (أدهم) .. الثورة هى وسيلتنا الوحيدة ، للفرار من كل هذا العذاب .. إننا نفوقهم عددًا ، ولكنهم

مسلحون ، وأكثر منا قوة ، والوسيلة الوحيدة لخلق التوازن بيننا ، ولنجاح ثورتنا ضدهم ، هى أن نجد الزعيم القوى الذى يجمع كلمتنا ، ويثير حماستنا ، ويقود لحظة الانفجار .
اعتدل (أدهم) ، قائلاً فى حزم :
- ولكننى لست سوفيتيًا .
أجابه الرجل فى مرارة :
- لست سوفيتيًا ؟! .. وماذا فى هذا يا رجل ؟! .. هل تعتقد أن كل المعتقلين هنا من السوفيت ؟! .. مطلقًا يا سيِّد (أدهم) .. إننا هنا أشبه بالأمم المتحدة(*) .. ستجد بيننا إنجليز ، وفرنسيين ، وهنود ، ورومانيين ، وعربًا .. السوفيت يعتقلون كل من يشتبهون فى أمره ، دون رحمة أو شفقة ، ومجتمعنا هذا يحتاج إلى شرارة ، تطلق كل الثورة الكامنة فى أعماقه ، لينفجر فى وجه هؤلاء الطغاة ، ويحطِّم المعتقل كله فوق رءوسهم ، وهذه الشرارة ستطلقها أنت .
سأله (أدهم) :
- لماذا أنا بالتحديد ؟
أجابه الرجل :
- لأن الجميع هنا أصبحوا مبهورين بك ، ويعقدون كل

(*) الأمم المتحدة : منظمة دولية ، أنشئت عقب الحرب العالمية الثانية ، لتحل محل (عصبة الأمم) ، ومقرها الدائم هو (نيويورك) ، منذ عام ١٩٥٢م ، ولقد وضع الاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا ، والصين ، والولايات المتحدة الأمريكية مقترحات ميثاق الأمم المتحدة فى مؤتمر (دومبارتن أوكس) (سبتمبر - أكتوبر ١٩٤٤) ، قبل النهاية الفعلية للحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) .

أمالهم عليك ، فى أن تحمل لهم شعلة الحرية ، وتخلصهم من عذاب الديكتاتورية والقسوة هنا .

هزَّ (أدهم) رأسه قائلاً :

- لا تبنوا قصورًا فى الهواء يا رجل .. وظيفة الزعيم هذه لا تناسبنى أبدًا ، فأنا ..

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى هليوكوبتر ظهرت من بعيد ، وهى تتجه نحو المعتقل مباشرة ، فالتفت الرجل إليها بدروه ، وغمغم فى توتر :

- وصول هليوكوبتر إلى هنا يعنى دائمًا مزيدًا من التعقيدات والقسوة .

لم يعلّق (أدهم) وهو يتابع الهليوكوبتر ، وقد راوده شعور عجيب بأنها قادمة من أجله بالتحديد ..

ولم يكد هذا الشعور يستقرَ فى أعماقه ، حتى ارتفع من خلفه صوت صارم يقول :

- تحرك يا رجل .. الرفيق (سباسكى) يطلبك فى مكتبه على الفور .

اعتدل (أدهم) ، وتطلع إلى الجنود لحظة قبل أن يقول ساخرًا :

- فليكن .. أراهن على أنه سيقتل نفسه ، لو لم أذهب إليه بأقصى سرعة .

أحاط به الجنود فى حذر متحفِّز ، وصوَّبوا مدافعهم إليه ، وهم يقودونه أمامهم نحو مكتب (سباسكى) ، فى حين حلّقت الهليوكوبتر فوق المعتقل ، استعدادًا للهبوط ، وهتف الرجل :

- فكِّر جيدًا فيما عرضناه عليك .

أشار (أدهم) بيده ، دون أن يجيب ، وعقله يحمل عشرات التساؤلات ، وعيناه تتابعان هبوط الهليوكوبتر ، والتى

استقرّت فوق المهبط الخاص بها ، فى منتصف المعتقل ، فى نفس الوقت الذى واصل فيه الجليد انهماره المستمر ، لليوم الثالث على التوالى ..

وبدا من الواضح أن غريزة الشعور بالخطر فى أعماق (أدهم) لم تخدعه أبدًا ..

فوصول الهليوكوبتر يحمل له بالفعل الخطر .

كل الخطر ..

* * *

« السوفيت أعلنوا أنهم ألقوا القبض على (أدهم) ثانية بعد فراره .. »

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، عندما ألقى إليه مساعده بهذا الخبر ، وبدت علامات التفكير والقلق على وجهه وهو يتمتم :

- عجبًا ! .. ما هدفهم من إعلان هذا الآن ، على الرغم من أن عميلنا فى صفوفهم أكد لنا أن (أدهم) لم يفرّ قط ، وأنه معتقل فى (سيبيريا) ؟!

قال المساعد فى اهتمام :

- من الواضح أنهم قد ظفروا بشىء ما من العقيد (أدهم) يا سيِّدى ، فهم لم يكتفوا بإعلان إلقاء القبض عليه ، وإنما أكَّدوا أيضًا أنهم سيبدءون محاكمته على الفور .

قال المدير فى دهشة :

- محاكمته ؟!

وشرد ببصره بضع لحظات ، على الرغم من انعقاد حاجبيه ، قبل أن يتابع فى حيرة :

- من الواضح أنهم يتحركون بسرعة كبيرة ، وطبقًا لخطة محدودة ، ولكن ما الذى يعتمدون عليه بالضبط ؟

قال المساعد مترددًا :

- يبدو أنهم يحاولون إلصاق التهم بنا ، عن طريق محاكمة (أدهم) علانية .

هزّ المدير رأسه فى قوة ، قائلاً :

- مستحيل ! .. السوفيت يدركون جيدًا أن ظهور (أدهم) فى محاكمة علنية أمر محفوف بمخاطر شتى ، فمهما عذّبوه أو مارسوا ضغوطهم عليه ، لن يدين وطنه على الملأ أبدًا .. هذا جزء من شخصيته ، وسيضعهم هذا فى موقف شديد الحرج .

قال المساعد فى حيرة :

- كيف سيحاكمونه إذن ؟ !

هزّ المدير رأسه ، مغمغمًا :

- لست أدرى .. لكن لديهم ما يملأ نفوسهم بالثقة حتمًا .

استغرق فى التفكير بضع لحظات ، محاولاً البحث عن تفسير منطقى ، حتى ارتفع أزيز جهاز الاتصال الداخلى على مكتبه ، وارتفع منه صوت يقول فى انفعال :

- سيّدى .. السوفيت سيذيعون محاكمة العقيد (أدهم) على الهواء مباشرة الآن .

ارتفع حاجبا المدير فى دهشة ، قائلاً :

- على الهواء مباشرة ؟ ! .. عجبًا ! .. كيف يغامر السوفيت بموقف كهذا .

قالها ، وهو يضغط زر جهاز (التليفزيون) المعدّ لاستقبال المحطة الفضائية السوفيتية ، فارتسمت على شاشته صورة لقاعة المحاكمات الكبرى (فى موسكو) ، وقد اكتظت بالصحفيين من مختلف الجنسيات ، وبعدد كبير من ضباط الجيش السوفيتى والجميع يتطلّعون إلى الرجل الواقف خلف

القضبان ، والذى بدأت إجراءات محاكمته بالفعل ..

وكان ذلك الرجل هو (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ! ..

وفى شدة ، انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يتطلّع إلى الشاشة ، فى حين هتف مساعده فى انفعال :

- رباه ! .. إنه سيادة العقيد (أدهم) بالفعل .

أشار إليه مدير المخابرات بالصمت ، وهو يستمع إلى رئيس القضاة العسكريين ، الذى افتتح المحاكمة ، معلنًا أنها محاكمة لجاسوس مصرى ، اخترق المجال الجوى السوفيتى بطائرة تجسّس ..

ثم بدأت المحاكمة ..

وفى فصاحة مطلقة أعلن النائب العسكرى صحيفة الاتهام ، دون أن يعلّق (أدهم) بحرف واحد ، وعندما انتهى منها ، التفت رئيس القضاة إلى قفص الاتهام ، وقال للرجل الواقف فيه :

- ما تعليقك على هذا الاتهام ؟ .. كلنا نعلم أنك تجيد الروسية ، ولكن القانون يحتم أن تجيب بلغتك الأصلية ، من خلال مترجم رسمى .. وها هو ذا المترجم إلى جوارك .. قل لنا الآن .. أأنت مذنب أم غير مذنب ؟ !

انعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، وهو يتطلّع إلى (أدهم) الذى لاذ بالصمت لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن يجيب بصوته المميّز ، وبلهجته المصرية الواضحة :

- مذنب .

كانت مفاجأة مذهلة ..

وعنيفة .

* * *

١٦ - الاتهام ..

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (أدهم) ، وهو يدير عينيه فى وجه (جلجانوف) ، و (هيلجا) ، و (سباسكى) ، قبل أن يقول :

- يا له من نهار رائع ! .. أنتم الثلاثة تستقبلوننى فى آن واحد .. كم أنا محظوظ بحق .

احتقن وجه (سباسكى) وهو يقول فى عصبية :

- أرجو أن تنتهوا من استجوابه بأقصى سرعة ، فلست أطيق صبرًا على الانتقام منه .

برقت عينا (جلجانوف) ، وهو يقول :

- اطمئن أيها الرفيق (سباسكى) .. لن يستغرق استجوابنا له طويلاً ، وبعدها يصبح رهن إشارتك .

انطلقت من حلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، قبل أن يقول :

- رائع .. من الواضح أن ثقتك فى قدراتك مدهشة يا (جلجانوف) .. هل تتصوَّر أن وجود ثلاثة من الجنود ، يصوبون إلىَّ مدافعهم الآلية ، سيجعلنى أخبرك بما تريد .. يا لها من فكرة ساذجة !

تضاعف احتقان وجه (سباسكى) ، وهو يقول فى حدة :

- كم أتمنى أن أقتله الآن .

أما (هيلجا) ، فقد ابتسمت فى صمت ، وأشعلت سيجارتها ، وراحت تنفث دخانها فى بطء ، و (جلجانوف) يقول :

- اصبر قليلاً يا رجل .. قلت لك : إن الاستجواب لن يستغرق

طويلاً ، فالرفيق (أدهم) يتصوَّر أن كل ما نعتمد عليه هو هؤلاء الحرَّاس الثلاثة ، ويجهل أن لدينا وسائل أخرى .

أطلَّت نظرة تساؤل حذرة من عين (أدهم) ، فى حين أخرج (جلجانوف) من جيبه محقنًا يحوى سائلاً رائقًا ، وهو يستطرد فى شماتة :

- وسائل لا يرقى إلى فاعليتها الشكّ .

التقى حاجبا (أدهم) ، وهو يقول :

- بنتوثال الصوديوم .. أليس كذلك ؟ !

أجابه (جلجانوف) :

- بالضبط أيها العبقرى .. بنتوثال الصوديوم .. مصل الحقيقة .. الذى سأحقنك به بعد قليل ، فتسيل منك المعلومات كالسيل .

قال (أدهم) فى صرامة :

- ماذا لو أننى مصاب بالحساسية الفائقة من هذا العقار ؟ .. فى هذه الحالة سألقى مصرعى فور حقنى به (*) ، وأنت تعلم أن الأوامر تحتم الإبقاء على حياتى .

انفجر (جلجانوف) ضاحكًا بغتة ، ولوَّح بيده ، هاتفًا :

- الإبقاء على حياتك ؟ ! .. معذرة أيها المغرور ، ولكن هذه الأوامر تم إلغاؤها بالفعل ، فلم تعد لحياتك الأهمية التى تتصوَّرها ، وخاصة بعد أن استبدلنا بك شخصًا آخر .

تمتم (أدهم) فى حذر :

- آخر ؟ !

اتجه (جلجانوف) نحو (تليفزيون) سباسكى الكبير ، وضغط زر تشغيله ، مجيبًا :

(*) حقيقة طبية .

- نعم .. آخر أيها الرفيق المغرور .. استبدلنا بك من سيؤدى دورك أفضل منك .

تألَّقت شاشة (التليفزيون) ، وظهرت عليها صورة قاعة المحاكمات الكبرى فى (موسكو) ، التى يقف فيها شبيه (أدهم) ، معلنًا كونه مذنبًا ..

وانعقد حاجبا (أدهم) فى توتر شديد ، وشاركته (هيلجا) انفعاله هذا ، فى حين هتف (سباسكى) فى دهشة :

- عجبًا .. كيف يكون هذا الرجل هنا وهناك فى آن واحد ؟

أشار (جلجانوف) إلى شاشة (التليفزيون) ، قائلاً فى زهو شامت :

- ذلك الذى تراه فى قاعات المحاكمات رجلنا أيها الرفيق (سباسكى) .. رجل كنا نعدّه للعب دور (أدهم صبرى) فى إحدى عملياتنا فى واشنطون ، ثم لاحت لنا فرصة ذهبية عندما وقع (أدهم) بين أيدينا بالفعل ، وقرَّر الرؤساء إنهاء عمليات التجميل اللازمة لإزالة الفارق فى الملامح ، بأقصى سرعة ، بحيث أصبح لدينا بديل لـ (أدهم صبرى) ، يجيد التحدُّث باللغة العربية ، وباللُّهجة المصرية إلى حد ما ، ويمكنه تقليد صوته إلى درجة كبيرة .

غمغم (أدهم) فى صرامة :

- لعبة حقيرة .

قهقه (جلجانوف) ضاحكًا مرة ثانية ، وهو يقول :

- ولكنها متقنة وناجحة للغاية يا رجل ؛ فكلنا كنا نعلم أنه من المستحيل أن تقف فى قاعة المحاكمات الكبرى لتدين وطنك ، مهما بذلنا من جهد معك ، أما رجلنا فيسقف فى مواجهة

عدسات المصورين ورجال الإعلام ، من كل أنحاء العالم ، ليعترف بالتجسُّس علينا لحساب (مصر) ، وحتى رؤساؤك أنفسهم سيتصوَّرون أنه أنت .

قالها وشبيهه على الشاشة يقول بلهجة تشابه لهجته :

- أعترف أننى قدت طائرة التجسُّس إلى هنا ، وأننى كنت أعلم أنها ستلتقط صور وخرائط الاتحاد السوفيتى ، ولكننى كنت أنفذ أوامر رؤسائى .

سأله رئيس القضاة فى حسم :

- ومن هم رؤساؤك ؟

أدار الشبيه عينيه فى وجوه الجميع ، قبل أن يخفض عينيه متمتمًا :

- المخابرات المصرية .

سطعت مصابيح التصوير فى وجهه ، وساد هرج ، ومرج فى القاعة ، من فرط المفاجأة ، مع هذا الاعتراف الصريح ، مما اضطر رئيس القضاة إلى الطرق بمطرقته على منضدته الكبيرة ، هاتفًا فى صرامة :

- سكوت أيها السادة .. سكوت .

ثم التفت إلى الشبيه ، وسأله :

- هل تشعر بالفخر لعملك هذا ؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وخفض عينيه مجيبًا :

- كلاَّ .. إننى أشعر بالندم والخزى والعار ، وخاصة بعد المعاملة الكريمة ، التى أحاطتنى بها السلطات السوفيتية ، و ...

ضغط (جلجانوف) زر (التليفزيون) مرة أخرى ، فتوقَّف البث مباشرة ، والتفت هو إلى (أدهم) ، قائلاً فى شماتة :

- أرأيت أيها العبقرى ؟! .. إننا لم نعد بحاجة إليك فعلياً .. كل ماننشده هو بعض المعلومات التى تختزنها فى ذهنك ، حول المخابرات المصرية وإدارتها ، ونظم تبادل المعلومات فيها ، و ...

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

- هراء .. إنك لن تحصل منى على حرف واحد .

انعقد حاجبا (هيلجا) فى شدة ، ومطُّ (سباسكى) شفتيه فى حنق ، فى حين أطلق (جلجانوف) ضحكة ساخرة عالية ، وهو يقول :

يا للغرور ! .. ألا تعترف بالهزيمة قط يا رجل ؟

ثم أشار إلى الجنود الثلاثة ، مستطرداً فى صرامة :

- قيِّدوه حتى أحقنه بمصل الحقيقة يا رجال ، وبعدها سنرى على أى أساس بنى غروره هذا .

انقض الجنود الثلاثة على أدهم فى شراسة ، و ...

وفجأة انتزع (أدهم) معصميه من الأغلال المعدنية ، هاتفاً :

- مفاجأة !

وقبل أن ينتهى من هتافه كانت قبضته اليسرى تلكم أحد الجنود الثلاثة وتطيح به ثلاثة أمتار إلى الخلف فى عنف ليرتطم بالجدار ، ويسقط فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى قبضت فيها يده اليمنى على معصم الجندى الثانى ، وأدارته بحركة سريعة قوية ، ليضرب كعب مدفعه فى أنف الجندى الثالث فى قوة ، ويسقطه ليلحق بزميله ، قبل أن تهوى قبضة (أدهم) على معدته ، وترتفع لتنفجر فى وجهه ، فى حين اختطفت قبضته الثانية المدفع الآلى وصوبه إلى السوفيت الثلاثة : قائلاً فى صرامة :

- والآن أيها السادة ، ارفعوا أيديكم فوق رءوسكم ، فقد انتهت لحظات المرح ، وحان وقت الجد .

اتسعت عينا (جلجانوف) فى ذهول ، مع تلك المعركة التى استغرقت ثانيتين أو ثلاثاً ، وأطاح فيها (أدهم) بثلاثة رجال أقوياء ، فى حين انعقد حاجبا (هيلجا) أكثر ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهتف (سباسكى) بوجه محتقن :

- كيف ؟! .. كيف تخلَّصت من قيودك ؟!

هزَّ (أدهم) (كتفيه) ، وهو يجيب فى سخرية ، وينتزع أغلال كاحليه :

- يا له من سؤال سخيف ! .. من الواضح أنك تجهل تماماً قدرات رجل المخابرات العادى يا رجل .. سل الرفيق (جلجانوف) ، وسيخبرك أن التخلُّص من القيود والأغلال ليس بالمشكلة العسيرة .

انعقد حاجبا (جلجانوف) ، وهو يغمغم فى غيظ :

- هذا الرجل بالذات قادر على التخلُّص من أغلال فولاذية ، تحيط بكل طرف من أطرافه ، عندما يرغب فى هذا .

احتقن وجه (سباسكى) أكثر ، وهو يهتف :

- ولماذا لم يخبرنى أحد بهذا ؟! .. لماذا لم أعرف ؟!

زمجر (جلجانوف) قبل أن يجيب فى خشونة :

- هانتذا قد عرفت .

هتف (سباسكى) مستنكراً :

- الآن ؟!

لوَّح (أدهم) بمدفعه الآلى ، قائلاً :

- كفى شجاراً أيها الأطفال الأشقياء .. لم يعد هذا يفيد الآن .

استدار إليه (جلجانوف) بحركة حادة عنيفة ، وقال :
- ما الذى تتوقع أن تفعله الآن ايها المصرى ؟ !
أجابه (أدهم) فى شىء من السخرية :
- الأمر بسيط للغاية أيها الرفيق العصبى .. إننى أسيطر على الموقف الآن ، وكل ما أحتاج إليه أن أفقدكم الوعى ، ثم أتنكّر بزى أحدكم ، وأغادر المكان إلى حيث الهليوكوبتر ، واستقلها مبتعدًا عن هنا .
قال (سباسكى) فى حدة :
- تتحدّث كما لو أن هذا أمر يمكن حدوثه ببساطة .. هل تعتقد أن الحرّاس فى الخارج سيسمحون لك بمغادرة المكان بكل بساطة ،لمجرد أنك ترتدى زيًا عسكريًا ؟ ! .. لو أنك تتصوّر هذا فأنت واهم .. الرجال هنا لديهم أوامر صارمة ، بعدم السماح لأى مخلوق دخل إلى حجرتى بمغادرتها إلا عندما آمرهم شخصيًا بهذا .
ابتسم (أدهم) وهو يقول :
- وهذا ما ستفعله بالضبط .. ستصدر أوامرك ، وسينفذها الآخرون بمنتهى الالتزام .
أطلق (سباسكى) ضحكة ساخرة عصبية ، وهو يهتف :
- هراء .. لا توجد قوة فى الأرض يمكنها إجبارى على فعل شىء ما لمعاونة خصمى ، ولا ..
اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وحملت قدرًا مخيفًا من الثقة والسخرية ، جعلا السوفيتى يبتر عبارته بغتة ، ويعقد حاجبيه فى شدة ، متطلّعًا إليه فى حذر ، فى حين بدا مزيج من الشغف والاهتمام على وجه (هيلجا) ، وهى تتابع الموقف فى صمت،

وتواصل نفث دخان سيجارتها ، واحتقن وجه (جلجانوف) بشدة وهو يندفع قائلاً :
- أنا واثق من أنه لديك خطة ما يارجل ، ولكنها لن تنجح .
أدار (أدهم) عينيه إليه ، قائلاً فى سخرية :
- هل تراهن ؟
أجابه (جلجانوف) فى حدة ، وهو يتحرك نحوه فى عصبية :
- نعم .. أراهنك أيها المغرور ، لأننى واثق من أن خطتك كلها تعتمد على السيطرة على الموقف هنا ، ولكن ماذا لو فقدت هذه السيطرة بغتة ؟ ! .. ماذا لو اضطرك الأمر لإطلاق رصاصة مثلاً ؟ ! .. ألن يثير هذا موجة من التوتر فى المعتقل ، ستدفع الجنود ، وعلى رأسهم الرفيق (فينوفيتشى) نفسه إلى اقتحام المكان ؟ ! .. هل سيمكنك عندئذ التصدّى لكل هؤلاء ، والفرار من هنا أيضًا ؟ !
انعقد حاجبا (أدهم) فى صرامة ، دون أن يجيب ، وواصل (جلجانوف) تقدّمه المتحفّز نحوه ، فى حين هتف (سباسكى) فى حماس :
- نعم .. أنت على حق أيها الرفيق (جلجانوف) .. لو هاجمناه الآن ، واضطررناه إلى إطلاق رصاصة واحدة ، ستفشل خطته كلها .
أجابه (أدهم) فى صرامة :
- وماذا لو استقرّت هذه الرصاصة الواحدة فى رأسك مباشرة ؟
هتف (سباسكى) ، وهو يتقدّم نحوه بدوره :

- إننى أفضل الموت ، على السماح لك بالفرار .

وقال (جلجانوف) فى انفعال :

- لا تصدقه أيها الرفيق (سباسكى) .. لقد قرأت ملف هذا الرجل ، وأحفظ ما جاء به عن ظهر قلب .. إنه لن يحاول قتلنا ، مهما كانت الأسباب .. إنه من ذلك الطراز الأحمق ، الذى يبذل قصارى جهده لتفادى القتل والتدمير بأى ثمن .

تألقت عينا (سباسكى) ، وهو يهتف :

- آه .. هذا يغيّر الأمور تمامًا .

قالها ، وانقضّ هو و (جلجانوف) على (أدهم) فى آن واحد ، ومن اتجاهين متعارضين تمامًا ، و (جلجانوف) يهتف بدوره :

- بالتأكيد .

وتحرك (أدهم) بمهارة مدهشة ، فمال جانبًا ، وضرب (جلجانوف) بكعب مدفعه فى معدته ، فى نفس اللحظة التى استقبل فيها (سباسكى) بركلة فى فكه ، ألقته خلفًا ..

ولكن الرجلين عاودا الانقضاض فى وحشية أكبر ، و (جلجانوف) يصرخ :

- لا تنس أننى أيضًا رجل مخابرات محترف .

وثب (أدهم) متفاديًا انقضاضة (سباسكى) ، وهوى على فك (جلجانوف) بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

- الاحتراف وحده لا يكفى يا هذا .

ثم دار حول نفسه فى مرونة مدهشة ، وقبض على معصم (سباسكى) ، ولواه خلف ظهره بحركة سريعة بارعة ، مستطردًا :

- هناك أيضًا الخبرة .

ودفع (سباسكى) فى عنف ، ليرتطم رأسه بالجدار فى قوة ، مضيفًا :

- وحسن التصرُّف .

سقط (سباسكى) على وجهه فاقد الوعى ، فى حين ترنح (جلجانوف) لحظة ، وكادت أصابعه تحطم المحقن ، الذى يحوى مصل الحقيقة ، والذى تشبث به طوال الصراع ، وهتف وهو يستلّ مسدسه من جرابه :

- والذكاء أيضًا أيها العبقرى .. يبدو أنك نسيت أن كل ما نحتاج إليه هو انطلاق رصاصة واحدة ، ولا يهمّ من أى سلاح تنطلق .

قالها ، ورفع مسدسه ، وهمّ بضغط زناده ، وهو يتراجع فى سرعة ، حتى لا يمنح (أدهم) الفرصة لمنعه ، و ...

ولكن (أدهم) أيضًا تتحرك فى سرعة ..

وشتان بين السرعتين ..

لقد تراجع (جلجانوف) بسرعة محترف ، ولكن (أدهم) تحرك بسرعة تتضاءل أمامها سرعة المحترفين ، حتى لتبدو أشبه بسرعة سلحفاء تزحف إلى جواره ..

وقبل أن يضغط (جلجانوف) زناد مسدسه ، فوجئ بـ (أدهم) يقبض على معصمه بأصابع من فولاذ ، ويتطلع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

- نسيت السرعة أيضًا .

انفرجت شفتا (جلجانوف) ، وشفّ اتساع عينيه ، وذلك الذعر المطلّ منهما ، إلى أنه سينطق بشىء ما ، ولكن

قبضة (ادهم) لم تسمح لهذا الشىء بتجاوز شفتى السوفيتى قط ، وهى تهوى على فكه كالصاعقة ، وتطيح بثلاث من اسنانه الأمامية ، قبل ان تضرب راسه بالجدار ، فيهوى فاقد الوعى ..

وبسرعة ، اختطف (ادهم) مسدس (جلجانوف) فهزت (هيلجا) كتفيها ، واشارت باصابعها الطويلة ، قائلة :

- لا تقلق من ناحيتى .. ليس لدى ادنى استعداد للتدخل .

تمتم (ادهم) ، وهو يخلص المحقن من بين اصابع (جلجانوف) ، ويدس مسدس هذا الأخير فى حزامه :

- أعلم هذا .

ثم اتجه إلى (سباسكى) ، وراح يستبدل قطع الفراء المهترئة التى يرتديها بالزى العسكرى له ، وراقبته (هيلجا) دون خجل ، وهى تنفث دخان سيجارة ثانية ، اشعلتها قبل ان تطفئ الأولى ، ثم قالت فى هدوء :

- اظننى اتفق مع (سباسكى) فيما قاله ؛ فاستبدال الزى وحده لا يكفى للخروج من هنا .

أجابها (ادهم) فى حزم :

- بالتاكيد .

ثم أخرج من طيات قطع الفراء تلك الرقائق المصنوعة من الصمغ ، والصق إحداها على وجهه فى عناية ، فاتسعت عينا (هيلجا) فى ذهول هاتفة :

- مستحيل ! .. لقد اصبحت صورة طبق الأصل من (سباسكى) ، باستثناء لون الشعر والعينين ، ولون البشرة الداكن .. كيف فعلت هذا ؟ !

أجابها فى هدوء وبساطة ، وهو ينحنى ليلصق رقيقة اخرى على وجه (سباسكى) :

- لقد صنعت قالبين لوجهه ووجهى ، ، واستخدمت الصمغ المستخرج من الأشجار لصنع القناعين ..

حدقت فى ذهول فى وجه (سباسكى) الذى حوله قناع (ادهم) البدائى إلى نسخة منه ، باستثناء لون الشعر والعينين ايضًا ، وهتفت مبهورة :

- تتحدث كما لو أن هذا امرًا بسيطًا !

هز كتفيه ، قائلاً :

- الأقنعة ليست متقنة للغاية للأسف ، ولكن هذا افضل ما يمكن عمله بتلك الخامات البدائية ، أما لون الشعر والعينين ، فسيحتاج إلى بعض الجهد .

قالها واتجه إلى المدفاة ، واحضر بضع قطع الفحم ، وراح يستخدمها ليمنح شعر (سباسكى) لونًا اقرب إلى السواد ، فسالته (هيلجا) ، وهى تتابع عمله فى انبهار :

- هذا لن يخدع أحدًا .

غمغم :

- يكفى ان يشغلهم ، حتى نبتعد عن هنا .

سالته مشيرة إلى شعره الأسود :

- وماذا عنك ؟

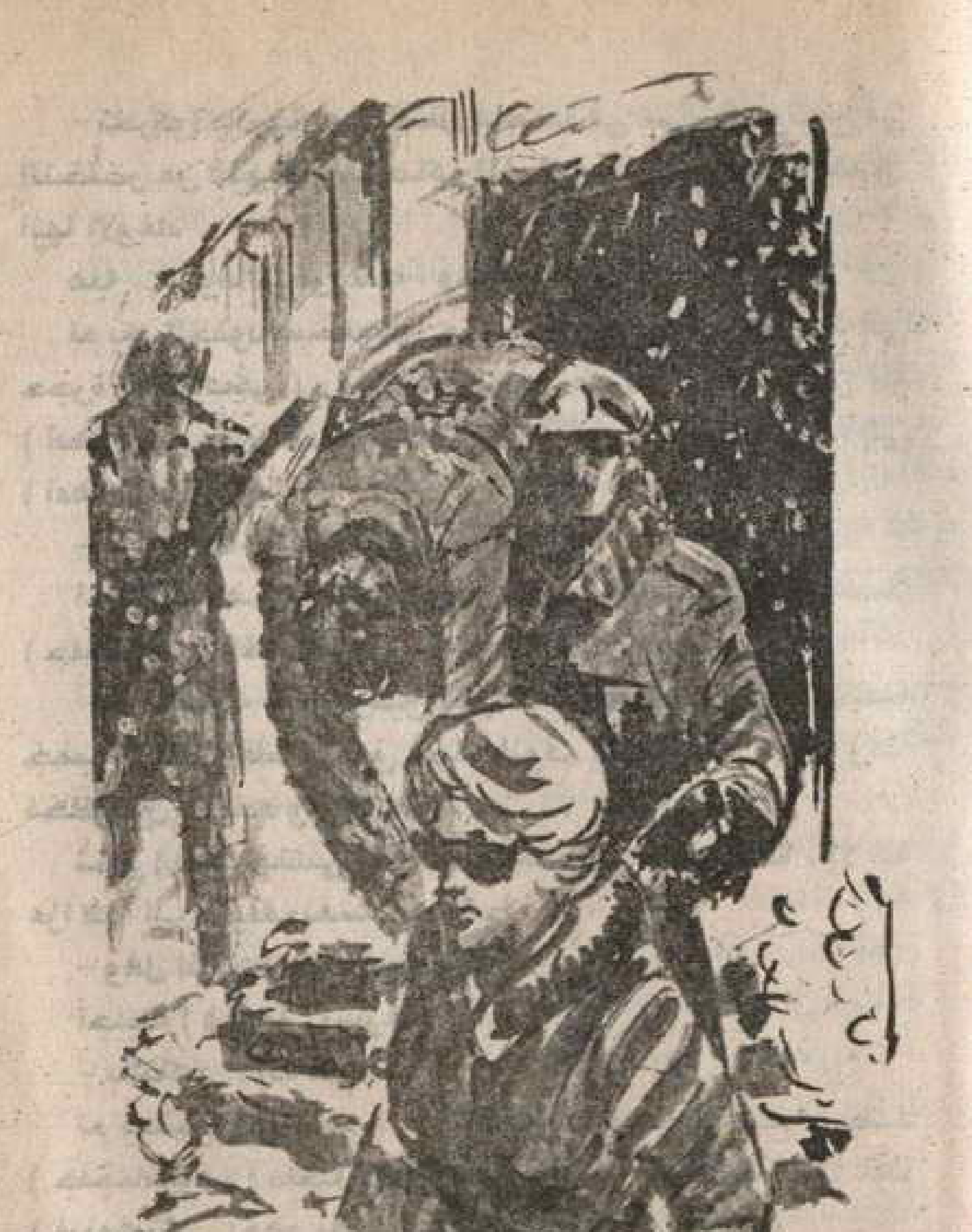
اجاب فى هدوء :

- القبعة العسكرية ، مع معطف الفراء ، سيخفيان الكثير من ملامحى ، حتى نبلغ الهليوكوبتر .

قالت فى اهتمام مفعم بالشغف :

- وكيف تتوقع من الجنود أن يطيعوا أوامرك ، دون ان يتبينوا ملامحك جيدًا ؟ !

أجابها بابتسامة ساخرة :
- سيكون لديهم ألف مبرِّر لهذا .
اتسعت عيناها فى ذهول ، عندما نطق عبارته ، وشهقت هاتفة :
- مستحيل !
هذا لأن الصوت ، الذى خرج من بين شفتيه ، لم يكن صوته الذى سمعته طوال الوقت ..
وإنما كان صوت (سباسكى) نفسه ..
وكان متقنًا إلى درجة مدهشة ، كما لو أن (أدهم) قد استبدل أيضًا بحنجرته حنجرة (سباسكى) ، وهو يستبدل ثيابه معه ..
وفى هدوء ، اعتدل (أدهم) ، ووضع القبعة العسكرية على رأسه ، ثم ارتدى معطف الفراء الخاص بـ (سباسكى) ، قبل أن ينحنى ليحمل (جلجانوف) على كتفه ، قائلاً :
- والآن حانت لحظة المواجهة الفعلية .
وصوَّب مسدسه إلى (هيلجا) ، مستطردًا :
- سنغادر المكان معًا إلى الهليوكوبتر .
سألته وهى تلقى سيجارتها أرضًا ، وتسحقها بقدمها :
هل تجد ضرورة لتصويب مسدسك إلىَّ ؟!
غمغم فى صرامة ، وهو يكشف ذراع (سباسكى) ، ويحقنه بمصل الحقيقة :
- هذا أفضل .
ثم دفعها أمامه ، واندفعا معًا عبر باب حجرة (سباسكى) ، و (أدهم) يهتف مقلِّدًا صوت هذا الأخير وأسلوبه :



ثم دفعها أمامه ، واندفعا معًا عبر باب حجرة (سباسكى) ، و (أدهم) يهتف مقلِّدًا صوت هذا الأخير وأسلوبه ..

- تحركوا يا رجال .. المعتقل هاجمنا فى شراسة ، ونجح فى التخلُّص من قيوده .. سأحاكم المسئول منكم عن هذا الإهمال أيها الأوغاد ..

هيا .. القوا القبض عليه ، وأسعفوا زملاءكم .

لم يكد الجنود يسمعونه ، حتى اندفعوا بمدافعهم الآلية إلى حجرة (سباسكى) ، وأحاطوا به فى صرامة ، متصورين انه (أدهم) ، فى حين اندفع قائد المعتقل (اندريه فينوفيتشى) إلى (أدهم) ، وهتف به :

- ماذا حدث أيها الرفيق (سباسكى) ؟

أجابه (أدهم) ، وهو يعدو نحو الهليوكوبتر حاملاً (جلجانوف) الفاقد الوعى ، و (هيلجا) إلى جواره :

- ما سمعته أيها الرفيق القائد .. ذلك المصرى كاد يحطمنا جميعًا .. لقد افقد الرفيق (جلجانوف) وعيه كما ترى ، وكنا محظوظين بإفقاده وعيه أيضًا .

شعر (فينوفيتشى) أن (سباسكى) يبدو مختلفًا ، إلا أنه عزا هذا إلى الموقف نفسه ، وهتف :

- وهل انتهت عملية استجوابه ؟

أجابته (هيلجا) بسرعة :

- بالتأكيد .. إنه لكم .

لم يعترض (أدهم) على قولها ، وهو يدفع جسد (جلجانوف) داخل الهليوكوبتر ، فى حين تألقت عينا (فينوفيتشى) وهو يقول :

- هذا أفضل .. أفضل كثيرًا .

ثم ارتفع صوته بلهجة صارمة آمرة ، مع استطرادته :

- كل المعتقلين يعودون إلى عنبر النوم ، ولتستعد فرقة الإعدام .

أسرع إليه أحد الجنود من حجرة (سباسكى) ، هاتفًا :

أيها الرفيق القائد .. لقد ألقينا القبض على المعتقل الفاقد الوعى ، ولكنه يبدو ...

قاطعه (فينوفيتشى) فى صرامة :

- دعك مما يبدو عليه الآن يا رجل .. لقد أثار ذلك المعتقل متاعب لا حصر لها ، منذ وصل إلى هنا ، ولكن أحدًا لم يعد يرغب فى وجوده الآن ، وستنتهى كتيبة الإعدام من أمره ، فى غضون دقائق .

نطقها دون أن ينتبه إلى الهليوكوبتر التى أقلعت مبتعدة ، وهى تحمل (أدهم) داخلها بصحبة (هيلجا) و (جلجانوف) الفاقد الوعى ..

وفى الهليوكوبتر ، لاذت (هيلجا) بالصمت تمامًا ، وهى تراقب المعتقل ، الذى يبتعد ويبتعد ويبتعد ، ثم مالت على أذن (أدهم) هامسة :

- ما الذى سيفعلونه بالرفيق (سباسكى) فى رأيك ؟

استرخى فى مقعده هامسًا بدوره :

- نفس ماكانوا سيفعلونه بى ، لو أننى فى موضعه الآن .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تقول :

- عجبًا ! .. كنت أظنك تكره القتل والتدمير ، كما يقول ملفُّك .

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

- عندما يتحوّل المرء إلى وحش آدمى ، ويخلو قلبه من كل ذرة من الرحمة والشفقة ، فإنه يستحق القتل .

وفى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان (سباسكى) قد استعاد وعيه أو جزءًا من وعيه ..

فمصل الحقيقة الذى حقنه به (أدهم) ، كان يسيطر على معظم حواسه ، ويجعله يدرك ما حوله إلى حد ما ، ولكنه غير قادر على التفاعل معه على الإطلاق ..

وطوال الطريق ، وهم يسحبونه إلى منطقة الإعدام ، كان يحاول أن يصرخ فيهم بانه ضابطهم (لون سباسكى) ، إلا أن لسانه رفض أن يتحرك داخل فمه ، كما أن البرودة القارصة ، التى تجمّدت لها الدماء فى عروقه ، كانت تبعث فى جسده آلامًا لا حصر لها ..

وامام عينيه المتعبتين ، تراصّ المعتقلون ، يتطلعون إليه ، ووقف (فينوفيتشى) يشير إلى كتيبة الإعدام بالاستعداد ..

وامتلأ قلب (سباسكى) برعب هائل ..

وحاول أن يصرخ معلنًا شخصيته ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ثم نجح أخيرًا ، وتحرّر لسانه ، واستطاع أن يهتف باسمه ، ولكن ..

فى نفس اللحظة التى أصدر فيها (فينوفيتشى) أوامره إلى رجاله بإطلاق النار ..

وضاع هتاف (سباسكى) مع دوى الرصاصات ، التى اخترقت جسده فى مواضع شتى ، فجحظت عيناه ، وسقط رأسه على صدره ..

وفى اللحظة نفسها انتبه (فينوفيتشى) إلى التمزّقات فى القناع البدائى ..

ولثوان ، انعقد حاجباه فى شدة ، وخفق قلبه فى قوة ، فى حين تفجّرت الدموع من عيون عشرات المعتقلين ، وهم يتصوّرون أن الرجل الذى عقدوا آمالهم عليه ، قد لقى مصرعه أمام عيونهم ..

ثم اندفع (فينوفيتشى) نحو (سباسكى) ، وحدّق فى وجهه عن قرب ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدّق فى الشعر الأشقر الذى بدت بعض أجزائه واضحة ، بعد أن أزال الجليد المنهمر صبغة الفحم ، وفى أجزاء القناع المصنوع من الصمغ والذى تمزّقت أجزاء عديدة منه ، من أثر الرصاصات ..

وبكل ارتياعه وذعره ، صرخ (فينوفيتشى) :

- اللعنة ! .. لقد أعدمنا (سباسكى) !

انطلقت صرخته ، وهو ينتزع بقايا القناع البدائى عن وجه (سباسكى) ، فتردّدت الصرخة فى آذان المعتقلين ، وهم يحدّقون فى الضابط السوفيتى الصريع ، الذى أذاقهم العذاب ألوانًا من قبل ، وران على المكان صمت رهيب ، استغرق لحظة واحدة ، قبل أن يقطعه أحد المعتقلين بضحكة شامتة مجلجلة ، جعلت (فينوفيتشى) يلتفت إلى حيث يقفون فى غضب ، محاولاً تمييز صاحب الضحكة ، إلا أنه فوجئ بالضحكات الساخرة الشامتة تتردّد فى المكان كله ، وتنطلق من كل الحلوق ، حتى صارت أشبه بضحكة واحدة جبارة ، جعلته يصم أذنيه بكفيه ، صارخًا :

- أعيدوهم إلى العنبر .. أعيدوهم فورًا .

ثم انطلق نحو حجرته ، والتقط بوق جهاز اللاسلكى الخاص ، مستطردًا فى انفعال جارف :

- إلى كل الوحدات .. إلى كل الوحدات .. الجاسوس المصرى تمكّن من الفرار فى زى ضابط سوفيتى ، وعلى متن طائرة هليوكوبتر ، تابعة للمخابرات السوفيتية .. أكرّر .. نداء إلى كل الوحدات .

استقبلت كل الوحدات العسكرية السوفيتية ذلك النداء فى آن واحد ، وكذلك الهليوكوبتر ، التى اتّسعت عينا قائدها فى انزعاج ، هاتفًا :

- على متن هليوكوبتر ؟ !

وفى حركة سريعة ، اختطف مسدسه ، واستدار يصوبه إلى رأس (أدهم) ودون أن يفكّر أو يتردّد لجزء من الثانية ، ضغط زناده ، و ..

وانطلقت الرصاصة .

* * *



لم يكد ذلك النداء ينبعث عبر جهاز اللاسلكى فى الهليوكوبتر ، حتى أدرك (أدهم) أن الأمور ستتعقّد أكثر وأكثر ..

ولكن الطيّار باغته برد فعل لم يتوقّعه قط ..

وعلى الرغم من المفاجأة ، تحرك (أدهم) بكل ما تسمح به المساحة المحدودة من مرونة ، فانحنى بسرعة ، ورفع قدمه ليركل الطيّار فى صدره ..

ولكن الرصاصة انطلقت ..

ودوى صوت الرصاصة فى أذنى (أدهم) كالف قنبلة ، وصرخت (هيلجا) وهى تكتم أذنيها بكفيها ، فى حين شعر (أدهم) بآلام عنيفة فى صدغه الأيسر ، وفوق أذنه مباشرة ، وشعر بالدم ينزف من موضع الألم ، فكال لكمة للطيّار بكل قوته ، تحطّم لها أنف هذا الأخير ، وارتطم بعصا القيادة ، فمالت الهليوكوبتر إلى الأمام بزاوية حادة ، واندفعت إلى أسفل فى سرعة ، فى نفس الوقت الذى أمسك فيه (أدهم) معصم الطيّار ، ولواه فى قوة ؛ ليجبره على إفلات مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

- العبث بالأسلحة النارية لا يناسبك يا رجل .

وعلى الرغم من الدماء ، التى تنزف من أنفه فى غزارة ، قاتل الطيّار فى استماتة ، فما كان من (أدهم) إلا أن لكمه مرة أخرى فى أنفه ، هاتفًا :

- الهليوكوبتر تسقط أيها الغبى .

ارتطم رأس الطيَّار بالنافذة هذه المرة ، قبل أن يتهاوى فاقد الوعي ، فأزاحه (أدهم) جانبًا في سرعة ، ومال إلى الأمام في شدة ، ليمسك عصا القيادة ، في حين اتسعت عينا (هيلجا) في ارتياع ، هاتفة :

- لا فائدة .. سنسقط حتمًا .

كانت الهليوكوبتر تقترب من الأرض بسرعة مخيفة بالفعل ، ولكن (أدهم) سيطر على أعصابه الفولاذية كالمعتاد ، وعلى عصا القيادة التي جذبها إلى الخلف واليسار في حنكة ، فمالت الهليوكوبتر على نحو عنيف ، حتى أن أطراف مروحتها أثارت عاصفة جليدية صغيرة ، ونجت من التحطم بأعجوبة ، و (أدهم) يدور بها بزاوية صعبة للغاية ، و (هيليجا) تهتف :

- لا فائدة .. لا فائدة ..

كانت تدرك بخبرتها المحدودة في الطيران ، أن النجاة من موقف كهذا ، ومع اقتراب الهليوكوبتر الشديد من الأرض ، يعد مستحيلاً ، لذا فقد اتسعت عيناها في انبهار ، مع المناورة المذهلة ، التي قام بها (أدهم) ، وهو في هذا الوضع المعقَّد ، ليمنع السقوط والارتطام ..

وعندما استعادت الهليوكوبتر توازنها ، شهقت هاتفة :

- مستحيل ! .. إنها معجزة .

انعقد حاجبا (أدهم) ، دون أن يجيب ، وأمسك عصا القيادة في قوة ، وهو يهبط بالهليوكوبتر على الجليد ، ولم يكد يستقر بها حتى انطلقت من أعماق صدره زفرة حادة ، وغمغم :

- حمدًا لله .

نطقها بالعربية ، فتطلَّعت إليه (هيلجا) في حيرة ، قبل أن تسأله :

- ماذا قلت ؟

لوَّح بكفه ، قائلاً :

- لا تشغلي عقلك بهذا .

تطلَّعت إليه مرة أخرى في حيرة ، ثم سألت :

- حسن .. ماذا ستفعل الآن ؟

دفع باب الهليوكوبتر قائلاً :

- سأفحص المروحة في البداية ، فقد ارتطم طرفها بالجليد ، وأخشى أن تكون قد أصيبت على نحو أو آخر .

غادر الهليكوبتر ، على الرغم من الجليد المنهمر ، وتطلَّع إلى مروحتها في اهتمام ، ولحقت به (هيلجا) ، وهو يدور حول الهليوكوبتر لفحصها ، وتوقَّفت تتطلَّع إليه بضع لحظات ، قبل أن تسأله :

- ألديك خطة محدودة ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو يدور حول الهليوكوبتر ، ويواصل فحصها ، و ...

وفجأة ، وثب (جلجانوف) خارج الهليوكوبتر ، وهو يحمل مسدس الطيَّار ، وصوَّبه إلى (أدهم) صارخًا : خسرت يا رجل .

كانت مفاجأة حقيقية لـ (أدهم) ، الذي لم يتوقَّع أن يستعيد (جلجانوف) وعيه بهذه السرعة ، فانعقد حاجباه في شدة ، وقاس المسافة التي تفصله عن هذا الأخير ، محاولاً تقدير القفزة المطلوبة للوصول إليه ، ولكن (جلجانوف) تابع في ثورة ، وهو يضغط زناد المسدس :

- إنها محطتك الأخيرة .

ولم يكن من السهل أبدًا أن يفلت (أدهم) هذه المرة ..

إنه يواجه خصمًا من أقوى رجال المخابرات السوفيتية ، ومثله لا يخطئ إصابة هدفه بسهولة .

حتى لو تحرك هذا الهدف بسرعة محدودة ..

و (أدهم) يدرك جيدًا أن الجليد لن يسمح له بالتحرك بالسرعة المطلوبة ..

والمسافة التى تفصله عن (جلجانوف) ليست بالقصيرة ، و ..

وهنا تدخلت (هيلجا) ..

لقد تحركت فى سرعة ، وانقضت على (جلجانوف) من الخلف وقفزت تركل المسدس من يده فى اللحظة الأخيرة ، فطاشت رصاصته فى الهواء ، قبل أن يطير مسدسه بعيدًا ، والتفت إليها يهتف فى ذهول :

- أنت ؟! ..

ركلته فى معدته بقوة ، هاتفة :

- نعم .. أنا أيها الوغد .

ثم هوت على فكه بلكمة عنيفة مستطردة :

- وإنه لمن دواعى سرورى أن أعلن هذا .

امسك (جلجانوف) قبضتها فى قوة ، قبل تبلغ فكه ، وهو يقول فى غضب هادر :

- ستدفعين الثمن أيتها الـ ...

قبل أن يتم عبارته ، قبضت أصابع (أدهم) الفولاذية على كتفه ، وسمع صوته يقول فى صرامة :

- هل نسيتنى يا رجل ؟

استدار (جلجانوف) بسرعة ليواجه (أدهم) ، فاستقبلته قبضة هذا الأخير بلكمة رهيبة ، أطاحت به مترين إلى الخلف ، قبل أن يسقط على الجليد فاقد الوعى ، ويسيل الدم من ركن شفتيه ..

وفى حزم التفت (أدهم) إلى (هيلجا) ، قائلاً :

- لقد كشفت أمرك بهذا الموقف .

ابتسمت ، وهى تهز كتفيها ، قائلة :

- لا عليك ، لقد احتملت طويلاً ، وحان الوقت لمفارقة كل هذا .

واتسعت ابتسامتها ، وهى تستطرد :

ثم إن أوامر المخابرات المصرية لى أن أبذل قصارى جهدى لإنقاذك ، حتى ولو أدى هذا إلى كشف حقيقة كونى أعمل لحسابكم .

ثم استندت بظهرها إلى الهليوكوبتر ، متابعة :

- لهذا كشفت لك أمرى فى مكتب العقيد (كوزيريف) .

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم .. عندما استخدمت دخان سيجارتك ، على طريقة الهنود الحمر ، لتبلغينى أنك عميلة للمخابرات المصرية ، وأن (كوزيريف) يسجل كل ما أقوم به ، ليستغله فى تلفيق اعتراف زائف .

هزت كتفيها ثانية ، وقالت :

- كانت براعة منك أن تستوعب ذلك .

ثم مطت شفتيها ، مستطردة فى غضب مفتعل :

- ولكن لماذا استخدمت المسدس معى ، ونحن نخرج من حجرة (سباسكى) ؟

اجابها فى حسم :

– حتى يمكنك القسم فيما بعد باننى أجبرتك على معاونتى .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تقول :

– هل يهمك أمرى إلى هذا الحد ؟ !

اجابها فى صرامة :

– كنت أسعى للمحافظة على سرية عملك لحسابنا .

اخرجت مسدسها ، قائلة :

– مازال بإمكاننا المحافظة عليها .

قالتها ، وصوبت مسدسها إلى (جلجانوف) الفاقد الوعى ، فصاح بها فى غضب :

– إياك أن تفعلى .. إنه فاقد الوعى .

ارتفع حاجباها مرة أخرى فى دهشة ، وقالت :

– عجبًا ! .. أينبغى أن أوقظه ، قبل أن انسف رأسه برصاصتى ؟ !

همّ (أدهم) بقول شىء ما ، عندما دوت رصاصة فجاة فى المكان ، واتسعت عينا (هيلجا) فى ألم وارتياع ، وتفجرت بقعة من الدم من منتصف صدرها تمامًا قبل أن تهوى على وجهها فوق الجليد ..

وفى نفس اللحظة لمح (أدهم) طيار الهليوكوبتر ، الذى استعاد وعيه ، وهو يدير نحوه مسدسًا احتياطيًا ، كان يخفيه أسفل مقعده ..

ووثب (أدهم) فوق الجليد ، فى نفس اللحظة التى أطلق فيها الطيار رصاصته الثانية ، وترك جسده ينزلق فى سرعة ، حتى بلغ جسد (جلجانوف) . ثم اختطف مسدسه ، والطيار

يقفز خارج الهليوكوبتر ، ويصوب نحوه مسدسه مرة أخرى صارخًا :

– لن تربح فوق ثلوجنا أيها الجاسوس المصرى .

أدار (أدهم) يده فى سرعة ، وأطلق رصاصة من المسدس ، اخترقت رأس الطيار ، الذى ارتدّ مع عنف الإصابة ، وارتطم بالهليوكوبتر فى عنف ، ثم سقط إلى جوارها جثة هامدة ..

وبكل لهفة ، هب (أدهم) واقفًا ، واسرع إلى حيث رقدت (هيلجا) ، وانحنى يفحصها فى قلق ..

كان من الواضح أن إصابتها مميتة ، مع الرصاصة التى اخترقت ظهرها ، وهشمت عظمة القصّ فى صدرها ، وكل الدماء التى تغرق زيها العسكرى ، ومعطف الفراء السميك ، ولكنها لم تكن قد لفظت أنفاسها بعد ، وإنما راحت تلهث فى شدة ، قائلة :

– أرأيت ؟ ! .. كنت أعلم أن أيامى هنا قد انتهت .

قال (أدهم) فى رفق :

– لا تبذلى جهدًا .. ادخرى قواك ، و ...

قاطعته بابتسامة شاحبة :

– لا فائدة .. أنا أشعر بهذا .. المهم أن تستمع إلىّ جيدًا .

وسعلت فى ألم ، فتدفقت الدماء من بين شفتيها ، وأغرقت ذقنها وعنقها ، ولكنها تابعت فى إصرار :

– المخابرات المصرية أعدت لك خطة الفرار ، وكان المفترض أن أبلغك هذا برسالة دخان أخرى ، ولكنك سبقتنى بالفرار .. هناك عميل آخر لكم ، يعمل فى قاعدة (ياكوتسك) الجوية .. اسمه (راكيف) .. ستجد فى جيبى أوراق هوية تخصك ،

صنعها لك زميلك (قدرى) ، الذى يبلغك تحياته .. خذها ، فهى ستقنع الآخرين بأنك أحد ضباط الـ (كى . جى . بى) ، فى مهمة خاصة ، وستجبرهم على التعاون معك ، دون إلقاء أية أسئلة .. استخدم الهليوكوبتر لتصل إلى قاعدة (ياكوتسك) الجوية ، وهناك سيعمل (راكيف) على منحك مقاتلة من طراز (ميج) ، يمتلئ خزانها بالوقود و ...

سعلت مرة أخرى ، وشحب وجهها بشدة ، مع كل ما فقدته من دم ، فتمتم (أدهم) :

- لا تتكلمى يا (هيلجا) .

ضغطت يده بكل قوتها ، وتابعت وكأنها لم تسمعه :

- (راكيف) سيمنحك خريطة ، لمواقع الرادار فى المنطقة ، والمدى الذى يمكنها تغطيته .. استخدمها لتقود مسارك ، حتى تخرج من هذه الدولة ، التى يسعى سكانها أنفسهم للفرار منها.

وحاولت أن تبتسم ، على الرغم من تزايد ضغطها وشحوبها ، وهى تتمتم :

- حاول ألا تنسانى بسرعة .

تحسَّس شعرها الأشقر فى حنان ، وهو يقول بحزن حقيقى :

- لن أنساك أبدًا يا (هيلجا) .

اتسعت ابتسامتها ، وتجمَّدت على شفتيها ، وفقدت عيناها بريق الحياة ، وجسدها كله يسترخى بين ذراعيه ، فاطلَّت من عينيه نظرة مفعمة بالأسى ، وأرقدها فى رفق على الجليد ، ونهض يكرِّر :

- لن أنساك أبدًا ..

ولثوان ، ظلَّ واقفًا فى مكانه ؛ ليكتم انفعالاته الجيَّاشة ، ثم

اتجه إلى الهليوكوبتر وأدار محركها ، وحلَّق بها فى طريقه إلى قاعدة (ياكوتسك) الجوية .. إلى حيث الأمل فى الفرار من هذا السجن الجليدى ..

الأمل الأخير ..

* * *

شحب وجه العقيد (كوزيريف) فى شدة عندما بلغه نبأ فرار (أدهم) من معتقل (سيبيريا) ، وبدا صوته عصبيًا مختنقًا ، وهو يقول :

- تقصير فظيع .. إهمال جسيم .. ينبغى محاكمة المسئول عن هذا ، وإعدامه بلا رحمة .

أجابه رئيسه المباشر :

- هذا ما سيحدث بالتأكيد ، ولكن هذه ليست المشكلة الآن .. المشكلة الحقيقية أن الجاسوس مازال هاربًا ، وانهمار الجليد المتواصل يجعل مطاردته أمرًا بالغ الصعوبة .

قال (كوزيريف) فى حدة :

- ولكنه يستقل هليوكوبتر معروفة ، ومادامت تلك الهليوكوبتر قادرة على الطيران تحت الجليد المنهمر ، فما الذى يمنع فرق المطاردة ؟

قال رئيسه فى صرامة :

- يمكننا إرسال عدد من طائرات الهليوكوبتر خلفه ، ولكن المشاة المطاردين لن يمكنهم السعى خلفه الآن .

لوَّح (كوزيريف) بيده ، قائلاً فى عصبية :

- ومن يحتاج إلى المشاة ؟

ثم مال نحو رئيسه ، مستطردًا ، فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

- أسند إلىّ مهمة مطاردته ، أيها الرفيق الرئيس .

ارتفع حاجبا الرئيس فى دهشة ، وهو يهتف :

- مهمة مطاردته ؟ ! .. ماذا دهاك يا (كوزيريف) ؟ ! .. إننا هنا فى (موسكو) ، والرجل فرّ هناك ، فى (سيبيريا) ! .. هل تعلم كم كيلومترًا تفصله عنا الآن ؟ ! .. بل كم ألف كيلومتر ؟ ! ..

قال (كوزيريف) فى انفعال :

- أعلم أيها الرفيق الرئيس .. أعلم ، وأعلم أيضًا أنه من المستحيل أن أصل إلى منطقة المطاردة فى الوقت المناسب ، ولكن يمكننى توجيه الرجال من هنا لاسلكيًا .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يغمغم فى حذر :

- لست أدرى فى الواقع أيها الرفيق (كوزيريف) .. فربما ..

قاطعه (كوزيريف) فى لهفة :

- أرجوك ..

تطلّع إليه الرئيس بضع لحظات فى دهشة ، ثم لم يلبث أن تنهد ، وهزّ رأسه ، مغمغمًا :

- فليكن أيها الرفيق (كوزيريف) .. إننى أسند إليك قيادة عملية المطاردة هذه .

تهلّلت أسارير (كوزيريف) ، وهو يقول :

- عظيم أيها الرفيق الرئيس .. أعنى أننى أشكرك .. أشكرك كثيرًا .

قالها وانطلق على الفور إلى حجرة اللاسلكى ، والتقط بوق جهاز الاتصال العام ، وضغط زره ، وهو يقول فى صرامة :

- هنا العقيد (فيدور كوزيريف) .. من قيادة المخابرات السوفيتية ، والقائد الرسمى لفريق مطاردة الجاسوس المصرى ، الذى فرّ من معتقل (سيبيريا) .. نداء إلى كل الوحدات .. الجاسوس يفرّ فى طائرة هليوكوبتر معروفة .. فلتنطلق ست طائرات (ميج - ٢١) للبحث عنها .. والنداء موجّه إلى الجميع .. أسقطوها فور العثور عليها .. هل تسمعون ؟ ! .. لا أريد أية تحذيرات أو مناورات ، أو حتى محاولات لإجبارها على الهبوط .. أطلقوا صواريخكم فور العثور على الهليوكوبتر .. أكرّر .. أطلقوا صواريخكم فورًا .

وأنهى الاتصال وعيناه تتألقان ببريق دموعى رهيب ..

وبكل الانفعال فى أعماقه ، تمتم :

- لن تذهب بعيدًا يا (أدهم صبرى) .. نهايتك ستأتى حتمًا على جليدنا .. الجليد السوفيتى ..

وبرقت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

انطلقت طائرات (الميج - ٢١) الست تجوب تلك المنطقة الجليدية الواسعة ، بين (ياكوتسك) و (سيبيريا) ، وقال قائدها لفريقه فى حزم :

- لقد استمعتم جميعًا إلى الرفيق (كوزيريف) يا رجال .. كل أنواع التعامل محظورة ، فيما عدا التعامل المباشر بإطلاق الصواريخ .. لا تحاولوا مخالفة هذا الأمر قط ، وإلا كانت العقوبة فادحة .

سأله أحد الرجال فى ضيق :
- لكنهم يقولون : إن ذلك الجاسوس بارع للغاية فى قيادة كل أنواع الطائرات ، ألا يحتم هذا السماح لنا بالمناورة على الأقل ؟
هتف القائد فى غضب :
- ماذا دهاك يا رجل ؟ .. هل يستخدم سرب من مقاتلات (ميج - ٢١) المناورة ، ليظفر بهليوكوبتر واحدة ؟
تمتم الرجل فى حرج :
- إنه مجرَّد اقتراح .
لم يكد ينطقها ، حتى هتف رجل آخر :
- الهليوكوبتر إلى يسارنا ، تحلِّق على ارتفاع منخفض .
هتف القائد فى حماس :
- فلنهبط إليها فورًا .
مالت الأجنحة إلى اليسار فى تتابع مبهر ، وانزلقت المقاتلات الست على الهواء فى نعومة ، ثم انقضت كلها على الهليوكوبتر ..
وفى انفعال ، سأل أحد الرجال :
- أأنت واثق من أنها الهليوكوبتر المنشودة أيها الرفيق القائد ؟
ألقى القائد نظرة فاحصة على الرقم الضخم ، الذى يبدو فى وضوح على ذيل الهليوكوبتر ، قبل أن يجيب فى حزم :
- إنها هى .. لقد أبلغونا برقمها ونوعها ..
ثم استطرد فى صرامة :
- استعدّوا يا رجال .

واصلت الهليوكوبتر انطلاقها فى خط مستقيم ، وكأنها لا تشعر بالمقاتلات الكاسرة المنقضة عليها ، وصوَّب إليها الطيارون صواريخهم فى إحكام ، وتحفَّز كل منهم لضغط زرّ الإطلاق ، فى انتظار أمر مباشر من قائدهم ، الذى ألقى نظرة أخرى على الهليوكوبتر ، وتأكَّد بما لا يدع مجالاً للشكّ من أنها تلك التى فرّ بها (أدهم) من معتقل (سيبيريا) قبل أن يقول فى حزم صارم :
- الآن .
ومع آخر حروف كلماته ، ضغط الطيارون أزرار الإطلاق فى طائراتهم ..
وانطلقت الصواريخ الستة نحو هليوكوبتر (أدهم) ، و ...
وأصابتها كلها بمنتهى الدقة ..
وكان انفجارًا ، اهتزَّ له نصف (سيبيريا) ..
أعنف انفجار عرفه الجليد ، فى السنوات الأربعين الأخيرة ..
الجليد الدامى .

* * *

نهاية القسم الثانى

القسم الثالث

الثلوج السوداء



انعقد حاجبا (شالوم) فى توتر واضح ، وهو يراجع التقرير السرى الذى ورد من قيادته ، وتراجع فى مقعده فى بطء ، وهو ينقر مسنده باصابعه فى عصبية ، فتطلع إليه احد رجاله فى قلق قبل ان يسأله فى حذر :

- أهى أخبار سيئة ؟!

مطَّ (شالوم) شفتيه ، وتمتم ساخطًا :

- بل هى أخبار مبهمة .

ردَّد الرجل فى دهشة وتساؤل :

- مبهمة ؟!

التفت إليه (شالوم) ، وقال فى حنق :

- بالتأكيد .. المعلومات الواردة كلها تفتقر إلى الوضوح والمباشرة ، فالسوفيت التزموا الصمت التام ، ولم يعلنوا اية أخبار رسمية بخصوص (ادهم) ، بعد تلك المحاكمة الهزلية ، التى بثتها أجهزة إعلامهم ، فى حين يؤكّد جاسوسنا هناك ان المقاتلات السوفيتية قد نسفت هليوكوبتر (ادهم) بست صواريخ فى آن واحد ، حتى انه من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، العثور على أى جزء من اشلائه ، بعد الانفجار الهائل ، الذى لم يترك بوصة واحدة سليمة فى الهليوكوبتر ، اما المصريون ، فالموقف عندهم مثير للحيرة والشك ، إذ إنهم اكتفوا باستنكار ما جاء بالمحاكمة العلنية ، وانكروا تمامًا محاولتهم للتجسُّس على السوفيت ، بل واعلنوا ان ذلك الذى ظهر عبر شاشات (التليفزيون) ليس أحد رجالهم ، ولم يعمل

قط فى المخابرات المصرية ، أو فى أية جهة رسمية مصرية اخرى ، واتهموا السوفيت بتلفيق الأمر كله لسبب ما ، والأدهى انهم تخلّوا تمامًا عن فكرة المطالبة باستعادة عميلهم (ادهم صبرى) ، على الرغم من انه افضل رجالهم على الإطلاق ، وليس من المنطقى أن يتخلّوا عنه بهذه البساطة .. ليس المصريون .

غمغم الرجل ، وهو يعتصر ذهنه للتفكير فى الأمر :

- ربما رأوا أن مصرعه يحسم الأمر كله ، وانه ليس من الضرورى أن يطالبوا باستعادة اشلاء ممزَّقة ، بل من الأفضل ان يعلنوا استنكارهم لما حدث ، ويتنصلوا من عملية التجسُّس كلها .

هزَّ (شالوم) راسه نفيًا ، وهو يقول :

- كلاَّ .. هناك امر ما يختفى وراء كل هذا .. المصريون واثقون من أن ذلك الذى ظهر فى المحاكمة ، ليس رجلهم (ادهم) ، وهذا ما دفعهم إلى تحدِّى السوفيت ، وإنكار كونه يعمل أو حتى عمل لحسابهم يومًا .. اما بالنسبة لمصرع (ادهم صبرى) الحقيقى ، فهو فى رأيى أمر تحوم حوله عشرات الشكوك ولا يمكن الجزم به ، مادام أحد لم يعثر بعد على أثر لجثته .

قال الرجل فى اهتمام :

- فرق البحث السوفيتية تواصل عملها فى المنطقة ، وربما بعد أن ...

قاطعه (شالوم) فى صرامة :

- إنهم لم يعثروا على ادنى اثر ، بعد ثلاثة أيام متواصلة

من البحث ، على الرغم من أن انهمار الجليد قد توقَّف تمامًا ، بعد انفجار الطائرة بساعة واحدة .

هزَّ الرجل رأسه فى تردُّد ، وقال :

- الواقع يا سيِّدى أنه ..

قبل أن يتمَّ عبارته ، ارتفع أزيز جهاز الاتصال الداخلى ، فأشار إليه (شالوم) بالصمت ، وهو يضغط زر الجهاز ، قائلاً فى شىء من الخشونة :

- ماذا هناك ؟

أتاه صوت رئيس طاقم الحراسة ، وهو يقول :

- السيِّد (هال) هنا ، ويطلب مقابلتك على الفور .

انعقد حاجبا (شالوم) فى شدة ، وهو يغمغم :

- (هال) ؟! .. فى هذه الساعة ؟! .. ودون موعد سابق ؟!

قفزت إلى ذهنه فكرة مجنونة ، عربدت فى رأسه لحظة ، قبل أن يضيف فى شىء من الانفعال :

- دعوه يدخل على الفور .

ثم التفت إلى الرجل الواقف أمامه ، واستطرد بسرعة :

- فليستعد الجميع بمدافعهم الآلية .. حاصروا الفيلا تمامًا ، ولا تسمحوا لذلك الرجل بالخروج ، إلا لو رافقته بنفسى .

قال الرجل فى توتر :

- هل يراودك الشكَّ فى أمر ما يا سيِّدى ؟!

انعقد حاجبا (شالوم) مرة أخرى وهو يجيب :

- نعم .. ولو أن شكوكى صحيحة ، فستتضح الكثير من الأمور .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

- هيا استعدوا .

أسرع الرجل لتنفيذ الأمر ، فى حين بذل (شالوم) جهده للسيطرة على انفعالاته ، وهو يجلس فى انتظار وصول (هال) ، الذى لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان يدلف إلى الحجرة بابتسامته اللزجة ، وهو يفتح ذراعيه ، هاتفًا :

- وا عزيزى (شالوم) .. لقد انتهى الكابوس يا صديقى .

تأمله (شالوم) فى حذر شديد ، وهو يقول :

- أى كابوس ؟!

هتف (هال) فى حماس :

- (أدهم صبرى) .. الكابوس المصرى يا رجل .. عميلنا السوفيتى أبلغنى منذ قليل ، أن أمره قد انتهى رسميًا .

كان من المفترض أن يقفز (شالوم) ابتهاجًا بالخبر ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، بدا شديد التحفُّظ ، وهو يتمتم :

- حقًا ؟!

تطلَّع إليه (هال) فى دهشة مستنكرة ، قبل أن يهتف فى حنق :

- ماذا دهاك يا رجل ؟! .. أأخبرك أن (أدهم صبرى) قد انتهى رسميًا ، فتستقبل الأمر بهذا البرود ؟!

مال (شالوم) نحوه ، وكأنه يتفحَّصه بإمعان ، وقال :

- ليس المهم أن ينتهى رسميًا .. السؤال : هل انتهى فعليًا ؟

التقى حاجبا (هال) فى عصبية ، وهو يقول :

- (شالوم) .. ما الذى ترمى إليه بالضبط ؟

باغته (شالوم) بسؤال صارم :

- ما الذى أتى بك إلى هنا دون موعد سابق يا (هال) ؟!

حدَّق (هال) فى وجهه بذهول ، هاتفًا :
- دون موعد سابق ؟! .. هل تمزح أم تسخر منى يا رجل ؟! .. إننى هنا بناء على دعوتك لى .
انتفض (شالوم) على مقعده ، هاتفًا :
- دعوتى لك ؟!
أجابه (هال) فى عصبية :
- بالطبع .. لقد عدت من المكتب مجهدًا ، وكنت أنوى الاتصال بك ؛ لأبلغك بما أبرق به إلينا عميلنا السوفيتى ، ولكن حارس الفيلا أخبرنى أنك اتصلت به ، وتطلب منى أن أتوجه لزيارتك فور وصولى ، فهرعت إلى هنا .
استمع إليه (شالوم) بعينين ذاهلتين ، قبل أن ينعقد حاجباه ، ويهتف فى غضب :
- اللعنة !
ثم هبَّ من مقعده ، واندفع نحو (هال) ، ومدَّ يده إلى وجهه ، مستطردًا فى حدة :
- أعتقد أن الأمر قد تجاوز كل الحدود .
تراجع (هال) فى ذعر ، هاتفًا :
- ماذا حدث ؟! ماذا تفعل يا رجل ؟
ولكن (شالوم) أمسك خده ، وجذبه فى قوة ، جعلته يصرخ :
- رباه ! .. هل جننت ؟!
التقى حاجبا (شالوم) أكثر ، وهو يتراجع مغمغمًا :
- اللعنة ! .. تصوَّرت لحظة أننى سأنتزع القناع عن وجهك .
هتف (هال) فى غضب :
- أى قناع ؟! .. إنه وجهى الحقيقى .

حدَّق (شالوم) فى وجهه لحظة ، قبل أن يهتف :
- هل تعلم ما الذى يعنيه هذا ؟
أجابه (هال) فى عصبية :
- أنك تمر بنوبة جنون مؤقت .
هتف (شالوم) :
- كلا أيها الغبى .. إنه يعنى أن أحدهم يسخر منك ومنى .. شخص ما دفعك للقدوم إلى هنا لسبب ما .
شحب وجه (هال) بشدة ، وهو يقول :
- شخص مثل من ؟!
مال (شالوم) نحوه ، وهو يجيب بصوت يرتجف من فرط الانفعال :
- شخص مثل (أدهم) .. (أدهم صبرى) .
انطلقت شهقة من حلق (هال) ، وهو يحدِّق فى وجه (شالوم) فى ذهول ، قبل أن يقول بصوت مختنق :
- ولكن (أدهم صبرى) لقى مصرعه وسط ثلوج (سيبيريا) .
دقَّ (شالوم) سطح المنضدة المجاورة فى قوة ، وهو يهتف :
- خطأ .. (أدهم صبرى) لم يمت .. (أدهم صبرى) حى .. إنه الشخص الذى يعبث بك وبى .. الشخص الذى ...
بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى شدة قبل أن يكمل بصوت مرتجف :
- الشخص الذى أبعدك عن فيلتك لسبب ما .
امتقع وجه (هال) فى شدة ، وهو يردِّد فى شحوب :
- أبعدنى من فيلتى لسبب ما ؟!
والتقى حاجباه فى عنف ، حتى خُيِّل لـ (شالوم) أنهما قد

امتزجا معًا ، وهو يضيف فى خفوت ، وكانما يتحدّث مع نفسه :

- مستحيل ! .. لا يمكن أن يكون قد ...

تطلّع إليه (شالوم) فى شغف واهتمام ، وأرهف سمعه جيدًا ، ليلتقط كل ما يتفوّه به (هال) ، إلا أن هذا الأخير بتر عبارته بغتة ، وتجمّد فى موضعه لثوان ، وكانما تفور كل أفكار الدنيا فى رأسه ، قبل أن يرفع عينيه إلى (شالوم) ، ويقول فى صرامة :

- سأعود إلى الڤيلا على الفور .

أجابه (شالوم) فى اقتضاب :

- فليكن .

ثم رافقه حتى باب الحديقة ، وأشار إلى رجاله ليتخلّوا عن تحفزهم ، ثم واجهه قائلاً :

- أبلغنى بأية تطورات على الفور .

غمغم (هال) ، وهو يستقل سيارته ، ويدير محركها :

- بالتأكيد .

نطقها ، وانطلق مبتعدًا بأقصى سرعة يسمح بها القانون ، فتابعه (شالوم) ببصره لحظات ، ثم قال فى صرامة :

- لعبة جيّدة من (أدهم) .

والتفت إلى أحد رجاله ، مستطردًا :

- أبلغ (ماير) أننى أريده لعمل عاجل .. عاجل جدًا .

وفى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان (هال) ينطلق بسيارته ، وعقله يكاد يشتعل من الأفكار والتوترات ..

هل يمكن أن يكون (أدهم) حيًا بالفعل ؟! ..

تُرى أهو الشخص الذى عبث به على هذا النحو ؟! ..

ولماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

لماذا ؟! ..

ظلّ السؤال الأخير يتردّد فى رأسه بلا انقطاع ، حتى بلغ ڤيلته ، وتجاوز بوّابتها بسيّارته ، ثم غادر السيارة ، وهو يتمتم :

- لست أعتقد أنه توصّل إلى الـ ...

لم يتم عبارته ، وإنما ابتلع نهايتها فى توتر متزايد ، وجلس فى حجرة مكتبه بضع لحظات ، قبل أن يهبّ واقفًا ويقول لنفسه فى حزم :

- لن يمكننى الوقوف ساكنًا .. لا بد أن أتأكّد بنفسى .

قالها وغادر الڤيلا إلى الحديقة الخلفية ، وتلفّت حوله فى حذر ، ليتأكّد من أن أحدًا لا يراقبه ، ثم عبر فى خفة بوّابة صغيرة ، تفصل ڤيلته عن الڤيلا المجاورة ، وتحرّك فى خطوات سريعة عبر ممر من الأشجار ، تم صنعه بوسيلة خاصة ، بحيث يخفى السائر عبره عن الأنظار تمامًا ، حتى بلغ الباب الخلفى للڤيلا المجاورة ، ففتحه بمفتاح خاص يحمله ، ودلف إليها ، ثم أغلق الباب خلفه والتصق به بضع لحظات ، وهو يرهف سمعه ، ليتيقّن من أن أحدًا لم يتبعه ، وبعدها اتجه فى سرعة إلى ردهة الڤيلا ، وتوقّف يدير عينيه فيها فى لهفة شديدة ..

لم تكن الردهة تحوى الكثير من الأثاث ، فى حين كانت تزيّن جدرانها مجموعة ضخمة من اللوحات الفنية ، وعدد من الصور الضوئية الأنيقة ، تتوسطها صورة كبيرة لـ (هال) نفسه فوق قمة أحد الجبال ، وهو يرتدى زى التزلّج ، وسط مساحة كبيرة مغطاة بالجليد ..

وفى اهتمام شديد ، ادار (هال) عينيه فى الصور واللوحات ، قبل ان يتنهَّد فى ارتياح ، متمتمًا :

- اه .. خُيِّل إلىَّ بعض الوقت ان (ادهم صبرى) استطاع التوصُّل إلى مخبئى هذا .

اتاه من خلفه صوت ساخر ، يقول :

- ومن ادراك انه لم يفعل ؟ !

انتفض (هال) فى عنف ، وقفزت يده فى محاولة لالتقاط مسدسه ، وهو يدور حول نفسه لمواجهة صاحب الصوت ، ولكن يد (ادهم) امسكت معصمه فى قوة ، وارتفع صوته يكمل ساخرًا :

- عجبًا ! هل سترفع مسدسك فى وجه ضيفك ايها الوغد ؟ !

صرخ (هال) من فرط الارتياع عندما وقع بصره على وجه (ادهم) ، وسقط المسدس من يده ، عندما لوى هذا الأخير معصمه فى قوة ، وراح ينتفض هاتفًا :

- مستحيل ! .. لا يمكن ان تكون حيًا .. مستحيل !

التقط (ادهم) المسدس والصقه بعنق (هال) وهو يجيب :

- مفاجاة ! .. اليس كذلك ؟ ! .. كنت اتمنى ان القى مصرعى ؛ لأزيل عنكم خوفكم وتوتركم ، ولكننى رايت انكم مجرد اوغاد ، لا يستحقون مثل هذه التضحية .

ارتجف صوت (هال) ، وهو يقول :

- ولكن .. ولكن التقارير الرسمية السوفيتية قالت ..

قاطعه (ادهم) ، وهو يكمل ساخرًا :

- إنها أصابت الهليوكوبتر بست صواريخ .. اليس كذلك ؟ ! ... إنهم صادقون يا رجل .. لقد نسفوا الهليوكوبتر بالفعل ، ولكن

من سوء حظهم اننى لم اكن داخلها ، لقد قدتها إلى قرب المنطقة التى انشدها ، ثم ثبَّتُ عصا القيادة ، بحيث تواصل انطلاقها فى خط مستقيم ، وقفزت منها إلى الجليد .

واتسعت ابتسامته الساخرة ، وهو يستطرد :

- هذا يعنى ان المقاتلين السوفيت الأبطال افرغوا كل قوتهم ومهارتهم فى هليوكوبتر خالية .

حدَّق (هال) فى وجهه بذهول وهو يغمغم مرتجفًا :

- وكيف ؟ .. كيف غادرت الاتحاد السوفيتى ، وعدت إلى هنا ؟ !

مال (ادهم) نحوه ، وهو يتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، مجيبًا :

- لدىَّ وسائلى .

انهار (هال) تمامًا ، وهو يغمغم بصوت اقرب إلى البكاء :

وكيف توصَّلت إلى ڤيلتى الثانية ؟

هزَّ (ادهم) كتفيه ، مجيبًا :

- استنتاج منطقى ايها الوغد .. كنت واثقًا من انك لن تحتفظ باسرارك ووثائقك بعيدًا عنك ، ولقد فتشت ڤيلتك كلها شبرًا شبرًا ، ولم اجد ادنى اثر للوثائق ، وهنا سالت نفسى .. اين يمكن ان يحتفظ محام خبيث مثلك باسرار ، يتحتم وجودها فى متناول يده دومًا ؟ ! .. وعندما قلَّبت الأمر على عدة وجوه ، برزت الفكرة بغتة فى راسى .. لماذا لا يكون (هال) الوغد قد استاجر الڤيلا المجاورة له ؛ خاصة وانه يوجد باب صغير يصل ما بين الڤيلتين .. ومن هذا المنطلق تسلَّلت إلى هنا ، ولم اكد ادلف إلى الردهة ، حتى كدت انفجر ساخرًا ؛ فانت تستاجر الڤيلا المجاورة ؛ لتخفى فيها اسرارك ، ثم تزين جدارها بصورة

كبيرة لك ، وكانك تعلن فى وضوح انك صاحب المكان ..
صمت (هال) بضع لحظات ، استعاد خلالها وجهه شيئًا من حيويته ، قبل ان يقول فى حزم :
- لكنك لم تعثر بعد على ما تريد .
اوما (ادهم) براسه إيجابًا فى هدوء ، وقال :
- هذا صحيح .. لقد فتشت المكان كله ، ولكننى لم اعثر على اية خزانات سرية ، او فتحات خفية بالجدران ، بل ولا توجد حتى خزانة تقليدية ، تختفى خلف لوحة او صورة .
تالقت عينا (هال) ، وهو يقول ، وقد استعاد صرامته كلها :
- لن تعثر على الوثائق قط .
مال (ادهم) نحوه ثانية ، وهو يقول :
- هل تراهن ؟ !
لم يكد ينطقها ، حتى انبعث صوت (شالوم) ، وهو يقول فى حزم (صارم) :
- إنه على حق يا سيِّد (ادهم) .. لن تعثر على الوثائق قط .
شهق (هال) من فرط الدهشة والانفعال ، واستدار مع (ادهم) فى سرعة إلى مصدر الصوت ..
وهناك ، عند مدخل الردهة ، كان يقف (مائير شالوم) ، الذئب الإسرائيلى ، عاقدًا ذراعيه امام صدره ، وحوله اربعة من رجاله ، يصوِّبون إلى (ادهم) و (هال) اربعة مدافع الية قوية ..
وكانت مفاجاة حقيقية ..

* * *

لثوان ، ران على ردهة الڤيلا الثانية صمت رهيب ، وكل العيون يحدِّق بعضها فى البعض ، ثم لم يلبث (ادهم) ان قطع

هذا الصمت ، عندما ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وصفَّق بكفيه فى بطء ، قائلاً :
- اهنئك ايها الذئب الأرقط .. ضربة بارعة بالفعل .
تالَّقت عينا (شالوم) فى ظفر ، وهو يقول :
- كنت واثقًا من انك على قيد الحياة يا سيِّد (ادهم) .
ساله (ادهم) ساخرًا :
- وهل احزنك هذا ؟
مطَّ (شالوم) شفتيه ، وهزَّ كتفيه ، مجيبًا :
- اكون كاذبًا لو ادعيت العكس ، ولكن عزائى الوحيد اننى توقَّعت هذا مسبقًا .
اندفع (هال) يقول بغتة فى حدة :
- كيف توصلتم جميعًا إلى ڤيلتى السرية هذه ؟
هزَّ (شالوم) كتفيه ، قائلاً :
- صحيح انك كنت بارعًا وحذرًا للغاية ، فى هذا الشان يا (هال) ، ولكنك لن تبلغ مثل براعتنا وذكائنا كمحترفين فى هذا المجال ، فالسيِّد (ادهم) توصَّل إلى الڤيلا من منطلق استنتاجى محض ، ولا ريب فى انه قد قرن استنتاجه هذا ببحث فى سجلات اصحاب الڤيلات فى المنطقة ، وادرك ان الڤيلا المجاورة لك تخصك .
قال (هال) فى دهشة :
- ولكنها لا تخصنى من الناحية الرسمية !
ابتسم (ادهم) فى سخرية ، وهو يقول :
- إنها مسجَّلة باسم الشركة الاسكندنافية للتصدير ، والفارق ليس ضخمًا .

انعقد حاجبا (هال) ومطَّ شفتيه فى حنق ساخط ، فى حين قال (شالوم) وهو يرمق (ادهم) بنظرة صارمة :

- ارايت يا (هال) .. السيِّد (ادهم) توصَّل إلى سرك بقليل من الجهد .. اما بالنسبة لنا ، فقد كان الأمر مختلفًا تمامًا .. لقد ادركت ما يرمى إليه (ادهم صبرى) ، عندما ارسلك إلىَّ بدعوة زائفة ، وهو يدرك انك ستكتشف هذا فور زيارتى .. فمن الطبيعى ، والحال هكذا ، ان ينتابك القلق ، وان يقفز إلى ذهنك على الفور انه يبعدك عن فيلتك ليعبث بشىء ما فيها ، وهذا سيدفعك إلى أن تهرع مباشرة إلى حيث اخفيت اسرارك .. ولهذا ارسلت احد رجالنا لمراقبتك ، وراك تتسلل إلى الفيلا المجاورة ، ففهم وفهمنا كل شىء .

قال (ادهم) ساخرًا :

- عجبًا ! .. لماذا اطلقوا عليك اسم الذئب الأرقط إذن ؟! .. إنك تمتلك ذكاء وخبث الثعالب .

قال (شالوم) فى صرامة :

- إطراء طريف يا سيِّد (ادهم) ، على الرغم من اللهجة الساخرة التى استخدمتها ، والتى ساتغاضى عنها مؤقتًا ، حتى تخبرنى اين يخفى (هال) اسراره ووثائقه .

هزَّ (أدهم) كتفيه و أجاب فى استهتار :

- الفيلا كلها امامك ، ولن يمنعك أحد من تفتيشها .

انعقد حاجبا (شالوم) ، وهو يتلفت إلى (هال) قائلاً :

- أين الوثائق يا (هال) ؟

لوَّح (هال) بقبضته ، هاتفًا :

- اذهب إلى الجحيم .

احتقن وجه (شالوم) فى شدة ، وهو يقول :

- لو انك لم تخبرنى بما اريد ، فلست انا من سيذهب إلى الجحيم هذه الليلة يا (هال) .

صاح (هال) فى حدة :

هل تهدِّدنى يا (شالوم) ؟! .. فلتعلم إذن أن التهديد لن يجدى معى مطلقًا .. انا أعلم انك لا تستطيع قتلى .. الوثائق هنا .. فى هذه الردهة ، ولكنك لن تحصل عليها قط .. هل تفهم .. لن تحصل على سر واحد من اسرارنا حتى لو دفعت لى اموال الدنيا كلها فى سبيل هذا .

انعقد حاجبا (شالوم) ، وهو يقول :

- هل تصرّ على العناد ؟

اجابه (هال) فى صرامة :

- تمام الإصرار .

ثم اضاف فى عصبية شديدة :

- لقد اقدمت على أكثر تصرفات حياتك حماقة يا (شالوم) ، فباقتحامك فيلتى أعلنت العداء الصريح لى ، وخسرت كل شىء ، ولن تربح من هذا نقطة واحدة .

ومال إلى الأمام ، ولوَّح بقبضته ثانية ، مستطردًا فى حدة ثائرة :

- لن تحصل على ادنى ربح يا (شالوم) .. بل وسادفع الجميع لنبذ صفقتك ، وعدم التعاون معك إلى الأبد .

التقى حاجبا (شالوم) فى صرامة اكثر ، وهو يغمغم :

- هكذا ؟!

اما (ادهم) ، فقد اشتم انفه رائحة الخطر ، وهو يقول لـ (هال) :

- ماذا فعلت بنفسك أيها التعيس ؟ !

شحب وجه (هال) بشدة ، وقد انتبه إلى ما يعنيه (ادهم) بعبارته ، فى حين تألقت ابتسامة وحشية على شفتى (شالوم) ، وهو يقول :

- انت على حق يا (هال) .. لقد تعقدت الأمور ، ولم يعد لها سوى مخرج واحد .

هتف (هال) فى توتر شديد :

- (شالوم) .. انا لم اقصد ان ..

ولكن (شالوم) قاطعه فى صرامة ، وهو يتراجع فى حركة سريعة إلى ما خلف رجاله الأربعة ، ويشير لهم بيده قائلاً :

اقتلوهما .

وقبل حتى ان تنتهى كلمته ، كانت رصاصات أربع مدافع آلية تدوى داخل ردهة الفيلا السرية ..

وسالت الدماء انهارًا .

* * *



١٩ - نهر الدم ..

فى نفس اللحظة تقريبًا ، التى بدا فيها (شالوم) هتافه ، تحرك (ادهم) ..

كان ، منذ الثانية التى لمح فيها الذئب الإسرائيلى ، قد درس موقفه ، وحدد تحركاته ، ووضع خطته للنجاة ، عندما يأمر زبانيته بإطلاق النار ..

ولكن ، عندما حانت لحظة التنفيذ ، كان هناك اختلاف جذرى بالخطة ..

اختلاف يكمن فى وجود (هال) ..

فعندما وضع (ادهم) خطته ، كان يتوقع ان (شالوم) سيأمر رجاله بإطلاق النار عليه وحده ، وليس على (هال) ايضًا ، ولم يضع فى اعتباره اية محاولة منه لإنقاذ هذا الأخير ايضًا ..

وربما يتصور البعض أن محاولة (ادهم) لإنقاذ احد اعدائه من موت محتم ، فى مثل هذه الظروف ، عمل ينطوى على الحماقة ، أو مبالغة غير منطقية ..

ولكن هذا هو (ادهم صبرى) ..

إنه على الرغم من عمله البالغ الخطورة والعنف ، يقيم وزنًا كبيرًا للحياة البشرية ، ولا يمكنه التفريط فيها بسهولة ..

حتى ولو كانت حياة الد اعدائه ..

لذا فقد تحرك (ادهم) باقصى سرعته ، وجذب (هال) معه إلى ما خلف الأريكة ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها الرصاصات ..

ولكن رجال (شالوم) كانوا من المحترفين بحق ...

وقبل أن يصل (أدهم) إلى الأريكة ، غاصت رصاصة فى كتفه ، واخترقت ثانية طرف ذراعه ، فى حين أطلق (هال) صرخة ألم رهيبة ، مع الرصاصات التى أصابت عنقه وصدره ..

وصرخ (شالوم) فى غضب ، عندما رأى (أدهم) و (هال) يختفيان خلف الأريكة :

- قلت اقتلوهما .. اقتلوهما على الفور .

انطلقت الرصاصات ثانية ، وخفض (أدهم) رأسه لتفاديها ، وهى تخترق الأريكة ، فى حين سعل (هال) ، وأغرق الدم وجهه ، وهو يغمغم فى ألم ساخط :

- (شالوم) الوغد .

اعتدل (أدهم) ليطلق رصاصتين من مسدس (هال) نحو الرجال الأربعة ، الذين تراجعوا فى سرعة ، دون أن تصيبهم رصاصة واحدة ، فأطلق (شالوم) ضحكة عصبية ساخرة ، وهو يصرخ :

- إنه مسدس (هال) ولا ريب ، فهذا الجبان يخشى حمل أسلحة نارية حقيقية ، ويكتفى دائمًا بحمل مسدسات صوت لإرهاب الآخرين .. هيا .. واصلوا إطلاق النار يا رجال .. سنظفر بهما حتمًا .

اطمأن الرجال الأربعة إلى أن خصومهم عزل من السلاح ، فاندفعوا فى جسارة زائفة نحو الأريكة ، و (هال) يسعل ثانية ، متمتمًا :

- لا فائدة .. سيظفرون بنا بالفعل .

ولكن (أدهم) لم يكن أبدًا بالشخص الذى يمكن أن يستسلم للهزيمة ..

لذا ، فقد نهض فجأة ، حاملاً الأريكة كلها وانقض بها على الرجال الأربعة ، الذى أخذتهم المفاجأة ، وحاولوا التراجع بالسرعة الكافية ، إلا أنه كان من العبث أن يحاول شخص ما التفوّق على رجل مثل (أدهم صبرى) فى سباق للسرعة .. ففى نفس اللحظة ، التى بدءوا فيها تراجعهم ، كانت الأريكة ترتطم باثنين منهم فى عنف ، وتلقى بهما أرضًا ، قبل أن يلقيها (أدهم) بكل قوته نحو الرجلين الآخرين ..

وقبل أن يسترجع الرجال الأربعة توازنهم ، وجدوا (أدهم) أمامهم مباشرة ، وهو يهتف فى صرامة :

- أمازلتم تصرون على القتال ؟!

كانت الدماء تنزف فى غزارة من إصابة كتفه وذراعه ، ولم تكن ساقه قد شفيت تمامًا من إصابتها السابقة ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، حطّم فكّ أحدهم بلكمة كالقنبلة ، ودفع قدمه السليمة فى معدة الثانى ، ثم أمسك المدفع الآلى من يد الثالث ، وأماله بحركة مدروسة ، ليرتطم كعب المدفع بفك الرجل ويلقيه أرضًا فى عنف ..

وتراجع (شالوم) فى ذعر ، أمام هذا التطور المباغت ، واستل مسدسه من غمده ، فى نفس اللحظة التى تعالى فيها وقع أقدام حرّاس الڤيلا الأولى ، وهم يهرعون إلى الڤيلا الثانية ، إثر الطلقات النارية ..

وعندما حطّم (أدهم) أنف الرجل الرابع بقبضته اليسرى ، أدرك (شالوم) أن رجال (هال) قد اقتربوا كثيرًا ، فصرخ وهو يطلق رصاصة من مسدسه نحو (أدهم) :

- قتلت (هال) أيها المصرى .. قتلته .

ادرك (ادهم) على الفور ما يحاول (شالوم) الإيحاء به ، فقفز جانبًا متفاديًا رصاصة (شالوم) ، وهو يلتقط أحد المدافع الآلية صارخًا :

- أيها الوغد الحقير .

انطلق (شالوم) يعدو خارج المكان ، عندما انطلقت رصاصات (ادهم) وراح يصرخ فى ارتياع :

- المصرى هنا .. لقد قتل (هال) .

غمغم (ادهم) ثانية :

- ياللوغد !

وانتبه إلى سعال (هال) العنيف ، وصوته المرتجف ، وهو يتمتم :

- الـ .. الوثائق كلها هـ ... هـ ...

التفت إليه (ادهم) ، وراه يلوِّح بسبَّابته نحو جدار يكتظ باللوحات الزيتية والصور الضوئية ، قبل ان تنطلق من حلقه شهقة عنيفة ، تدفَّقت معها الدماء من بين شفتيه فى غزارة ، وانتفض جسده فى قوة ، وجحظت عيناه فى شدة ، قبل أن يسترخى جسده تمامًا ..

وفى اللحظة نفسها ، كان (شالوم) يشير إلى الڤيلا ، صارخًا فى رجال (هال) الثلاثة :

- المصرى قتل رئيسكم .. أسرعوا للثار له .. أسرعوا .

اشتعل الرجال الثلاثة غضبًا وثورة ، وهم يندفعون نحو ردهة الڤيلا ، وسبَّاباتهم متحفزة لإطلاق النار على الرجل الذى قتل رئيسهم ، وحرمهم رواتبهم ومكافاتهم المستقبلية ..

ولكن ما إن وصلوا إلى الردهة ، حتى اتسعت عيونهم ، وتضاعف غضبهم ألف مرة ..



التفت إليه (ادهم) ، وراه يلوِّح بسبَّابته نحو جدار يكتظ باللوحات الزيتية والصور الضوئية ..

فهناك ، كان أثر القتال واضحًا ، وجثة رئيسهم تتوسط المكان ..

ولكن لم يكن هناك أثر لـ (أدهم) سوى بقع صغيرة متناثرة من الدماء ، وسط ذلك النهر الذى غمر المكان كله ..

نهر الدم ..

* * *

اتسعت عينا (انجريد) فى ارتياع ، وارتدت كمن أصابته صاعقة ، وهى تهتف فى وجه (شالوم) :

- (هال) لقى مصرعه ؟! .. مستحيل ! .. مستحيل !

انعقد حاجبا (شالوم) فى شدة ، وهو يقول :

- بل هى حقيقة يا سيدتى .. (أدهم صبرى) لم يلق مصرعه فوق الجليد السوفيتى ، وإنما عاد إلينا لينتقم ، وبدأ انتقامه بقتل (هال) فى ڤيلته الثانية .

غمغم (هانز) فى توتر شديد :

- (هال) كانت لديه ڤيلا ثانية ؟!

تمتم (ثوردال) :

- عجبًا ! .. لماذا أخفى عنا هذا ؟

احتقن وجه (شالوم) ، وهو يقول فى حدة :

- ماذا دهاكم أيها السادة ؟! .. رفيقكم لقى مصرعه على يد واحد من ألد أعدائكم ، وكل ما يشغلكم هو لماذا أخفى زميلكم عنكم أمر ڤيلته الثانية !!

أجابه (ثوردال) فى صرامة :

- بالطبع يا سيد (شالوم) ، فربما كانت الڤيلا السرية هى

السبب الرئيسى لمصرع (هال) .. إننى أتساءل .. ما الذى كان يخفيه محامينا الهمام هناك ؟! .

- ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يرمق (شالوم) بنظرة صارمة مضيفًا :

- ثم ما الذى جعلك تعرف أمر الڤيلا ، على الرغم من جهلنا به ؟ .. وكيف تصادف أنك تواجدت فيها ، عندما لقى (هال) مصرعه ؟

تدخل (هانز) بدوره ، قائلاً :

- نعم .. وما الذى يقنعنا بأنك لست المسئول عن مصرع زميلنا (هال) ؟

التقى حاجبا (شالوم) فى شدة ، وهو يقول :

- ما الذى تعنيه يا سيد (هانز) ؟

أجابه (هانز) فى صرامة محتدة :

- أعنى أن عميلنا السوفيتى أبلغنا أن السلطات هناك اعتبرت (أدهم صبرى) هذا ميتًا رسميًا ، والسوفيت لا يتسرعون قط بإصدار مثل هذا التصريح ، مالم يتأكدوا من مضمونه جيدًا ، وعلى الرغم من هذا ، تأتى أنت وتخبرنا أن (أدهم) مازال على قيد الحياة ، وأنه المسئول عن مصرع زميلنا (هال) ، ثم لا تمنحنا دليلاً واحدًا على هذا ، باستثناء أقوالك وشهادة رجالك .. قل لى يا سيد (شالوم) .. لو أنك فى موضعنا ، أكنت تقتنع بهذا ؟!

شعر (شالوم) بتوتر شديد فى أعماقه ، وخاصة عندما تطلعت إليه (انجريد) فى قلق ، وسألته :

- نعم يا (شالوم) .. ما دليلك على أن (أدهم) فعل هذا ؟!

ادار (شالوم) عينيه فى وجوههم ، وهو يقول فى عصبية :

- هل تتهموننى بقتل زميلكم أيها السادة ؟

اجابه (ثوردال) فى صرامة ، وهو يستلّ مسدسه :

- بل نطالبك بالدليل على انك لم تفعل يا (شالوم) .

لوّح (شالوم) بسبابته ، هاتفًا فى غضب :

- اعطونى انتم دليلاً واحدًا على اننى قتلته .. دليلاً واحدًا على اننى المسئول عن هذا .. بل اعطونى سببًا واحدًا لقتل (هال) .

انعقد حاجبا (هانز) وهو يقول :

- انا واثق من انه هناك علاقة خاصة بينك وبين (هال) ، وان كليكما يشارك الآخر بعض الأسرار ، التى نجهلها جميعًا ، وربما كانت هذه الأسرار هى التى دفعتك لقتله .

لوّح (شالوم) بذراعه كلها فى حنق ، وهو يقول :

- لم توجد قط اية اسرار ، بينى وبين (هال) ، ولن احاول تبرئة نفسى من قتله .. لابد أن تكون بيننا ثقة متبادلة ، مادمنا نعمل معًا .. وعندما اقول : إن (ادهم) قتله ، فينبغى ان تصدقوا ما اقوله على الفور .

ثم صاح فى وجه (ثوردال) :

- ومن العار ان تشهر مسدسك فى وجه حليفك .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة عصبية ، قبل ان يلوّح (ثوردال) بمسدسه ، قائلاً فى مزيج من الغضب والصرامة :

- فليكن يا (شالوم) .. سنتظاهر مؤقتًا باننا نصدّق قصتك ، ولكننى اقسم لك ، إنه لو ثبت لنا انك المسئول عن مصرع (هال) ، فإن المصير الذى ستلقاه على ايدينا ، سيجعلك تتمنى الموت الف مرة .

انعقد حاجبا (شالوم) ، دون ان ينبس ببنت شفة ، ولكنه فى اعماقه كان يشعر بغضب هادر ؛ لأن عودة (ادهم) ادت إلى ذلك التطور السخيف للأمور ، ووجد عقله كله ينطلق نحو سؤال واحد ..

تُرى اين اختفى (ادهم صبرى) ، بعد فراره من فيلا (هال) الثانية ؟! ..

اين ؟! ..

ولكنه ، وعلى الرغم من الجهد الشديد الذى بذله ، وهو يعتصر ذهنه حتى آخره ، لم يتوصّل إلى جواب لسؤاله هذا .. ابدًا ..

* * *

عندما اوقف مساعد الطيّار (فريدريك) سيّارته الصغيرة ، فى ذلك الشارع الهادى ، من شوارع (هلسنكى) ، كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا ببضع دقائق ، وكان الشارع خاليًا من المارة تمامًا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد غادر (فريدريك) سيارته ، وراح يتلفّت حوله فى لهفة واضحة ، ولم يكد يلمح سيارة تقترب ، حتى سرت فى جسده قشعريرة باردة ، لم تفارقه حتى وهى تتوقّف خلف سيارته تمامًا ، ويهبط منها رجل وقور هادىء الملامح ، بصحبته آخر يبدو عليه الانفعال ، واتجه الاثنان نحوه مباشرة ، وساله احدهما فى اهتمام :

- قل يا سيّدى : هل يمكنك ان ترشدنا إلى الشارع الشرقى ؟

ازدرد (فريدريك) لعابه فى توتر شديد ، وعجز لسانه عن النطق لحظات ، وهو يحدّق فى وجهيهما ، قبل ان يتمتم بصوت متحشرج :

- لا يوجد شارع شرقى فى هذه المنطقة الغربية .

ساله الرجل :

- وماذا عن الشارع الجنوبى ؟

ازدرد (فريدريك) لعابه مرة اخرى ، وهو يشير بيده إشارة مبهمة ، متمتمًا :

- ستجده فى الشمال .

اوما الرجلان براسيهما فى ارتياح ، ثم التقط المنفعل ذراع (فريدريك) ، وقاده إلى السيارة ، قائلاً :

- هيا بنا .

جلس (فريدريك) خلف عجلة قيادة سيارته ، وانتظر فى توتر شديد حتى استقر الرجلان على مقعديهما ، ثم انطلق بالسيارة ..

ولدقيقة او يزيد ، لم ينبس احدهم بحرف واحد ، فران على السيارة صمت مهيب ، خُيِّل لـ (فريدريك) انه يجثم على صدره ، فتمتم فى ارتباك :

- معذرة .. انا لم اعتد مثل هذه الأمور .. الواقع انها اول مرة .

اجابه الوقور فى هدوء :

- لا باس .. نحن نقدِّر هذا .

عاد الصمت يغمر السيارة لعشر دقائق اخرى ، و (فريدريك) ينطلق بها نحو منزله ، ثم لم يلبث ان قال :

- إنه فى حالة جيدة ، على الرغم من الدماء التى فقدها .

عقد احد الرجلين حاجبيه فى توتر ، فى حين اوما الوقور براسه متفهمًا ، وغمغم :

- (ادهم) قوى البنيان ، وجسده اعتاد مثل هذه الإصابات .

قال (فريدريك) فى لهفة :

- اسمه (ادهم) إذن .. رباه ! .. هل تعلمان ؟ .. لقد اصابنى الذعر عندما فوجئت به فى منزلى ، والدماء تنزف من كتفه وذراعه ، ولم اتعرَّفه بالطبع ، فملامحه هذه لا تشبه باى حال من الأحوال ملامحه السابقة ، عندما كان يحمل اسم الكابتن (زيلمان) .. ولكنه اخبرنى بحقيقته ، وبان منزلى هو افضل مكان يمكن ان يختبئ فيه ، ثم طلب منى الاتصال بكم .. وهاانذا قد فعلت كل ما اراده .

وهزَّ راسه ، وهو يضيف فى انبهار :

- وانا سعيد بكل ما افعله من اجله ، فايًا كان اسمه (زيلمان) او (ادهم) ، او حتى (شوارزنجر)(*) ، فهو كان ، ومازال ، وسيظلّ مثلى الأعلى ، والرجل الذى اطمع فى بلوغ نصف مهارته .

ابتسم الوقور فى هدوء ، فى حين غمغم الآخر فى شىء من العصبية :

- إنه المثل الأعلى لنا جميعًا .

هتف (فريدريك) فى حماس ، وهو يوقف سيارته امام منزله :

- بالتاكيد .

(*) (أرنولد شوارزنجر) : ممثل سينمائى امريكى شهير ، من مواليد ٣٠ يوليو ١٩٤٧ م ، كان والده رئيسًا للشرطة ، ولقد شجَّعه على الاهتمام بتنمية جسده ، ففاز ببطولة العالم لكمال الأجسام فى الثامنة عشرة من عمره ، وبعدها جذب اهتمام السينمائيين ، مما دفعه إلى خوض هذا المجال والتفوّق فيه .

هبط الثلاثة من السيارة ، ودلفوا إلى المنزل فى سرعة ، وما إن تجاوزوا ردهته ، حتى برز أمامهم (أدهم) ، وهو يبتسم فى إرهاق ، مغمغمًا :

– إذن فقد وصلتم أخيرًا .. عظيم .. مازالت عروقى تحتفظ بنصف لتر من الدم(*) .

أسرع إليه الوقور ، وهو يفتح حقيبته ، قائلاً :

– اطمئن يا بطل .. لقد أحضرت كل ما يلزم .

قالها ، وقاد (أدهم) إلى الأريكة ، وأرقده فوقها ، وراح يتعامل مع جروحه بكل مهارة كطبيب متخصِّص ، فى حين جذب الآخر مقعدًا ، وجلس إلى جوار (أدهم) ، وسأله فى اهتمام :

– هل توصلت إلى ما كنت تسعى إليه يا سيادة العقيد ؟

أجابه (أدهم) ، والطبيب يحقن كتفه وذراعه بمخدِّر موضعى :

– ليس تمامًا .. لقد هرع (هال) إلى الفيلا بالفعل ، ولكنه لم يفعل شيئًا هناك ، سوى التطلُّع إلى اللوحات والصور .

كانوا يتحدثون العربية ، فلم يفهم (فريدريك) حرفًا واحدًا مما يقولونه ، إلا أن هذا لم يغضبه ، وإنما ابتسم قائلاً :

– ساعدَ بعض القهوة .

وانسحب من المكان فى هدوء ، وزميل (أدهم) يسأله :

– وهل التقطت آلة تصوير (الفيديو) كل ما حدث ؟

أجابه (أدهم) ، وهو يشير إلى مقعد بعيد :

(*) يحوى جسم الإنسان البالغ ستة لترات من الدم .

بالطبع .. ستجدها هناك وبداخلها الشريط المسجَّل .

أسرع الرجل إلى آلة التصوير ، وراح يوصلها بجهاز (التليفزيون) فى اهتمام ، فى حين قال الطبيب :

– هذا المخدِّر الموضعى لن يمنع الألم تمامًا يا سيادة العقيد .. سيكون عليك أن تحتمل بعضه .

ابتسم (أدهم) فى شحوب ، وهو يقول :

– لا بأس .. لقد اعتدت هذا .

غرس الطبيب مشرطه فى كتف (أدهم) ، فعضَّ هذا الأخير شفته السفلى فى رفق ، وعيناه تتابعان ما تعرضه آلة (الفيديو) الصغيرة على شاشة (التليفزيون) ، فى حين هتف زميله :

– رباه ! .. ذلك الوغد (شالوم) أطلق النار بلا أدنى تردُّد .

أشار إليه (أدهم) ، قائلاً :

– دعك مما فعله (شالوم) ، وأعد عرض البداية .. أريد مراجعة ما فعله (هال) ، عندما دخل إلى ردهة الفيلا .

أعاد الرجل عرض اللقطات ، التى طلبها (أدهم) ، وراح يتابعها معه فى اهتمام ، فانعقد حاجبا (أدهم) ، وتجاهل ما يفعله الطبيب بكتفه وذراعه ، وهو يقول :

عجبًا ! .. إنه يتطلَّع إلى ذلك الجدار ، الذى يحوى اللوحات الزيتية والصور الضوئية ، فى اهتمام ولهفة .

قال زميله :

– ربما يخفى وثائقه فى خزانة سرية ، خلف إحدى اللوحات أو الصور .

وغمغم الطبيب ، دون أن يرفع عينيه عن عمله :

– أو فى إطار إحداها .

هزَّ (ادهم) راسه نفيًا ، وهو يقول :
- لا هذا ولا ذاك بالتاكيد .
ساله زميله فى حيرة :
- كيف يمكنك ان تجزم ؟ !
اشار (ادهم) إلى شاشة (التليفزيون) ، قائلاً :
- لانه لو كان يخفى وثائقه فى اى من المكانين ، لما اكتفى بإلقاء نظرة على الصور واللوحات من بعيد ، ولتقدّم ليفحص الإطار المنشود بمنتهى القلق ، ليتيقّن من ان اسراره فى موضعها ، ثم إننى فحصت المكان كله ، وتاكدت من انه لا توجد اية خزائن سرية ، خلف اى شىء .
قام زميله بتثبيت صورة (هال) ، وهو يتطلّع إلى الصور واللوحات ، وتطلّع إليها طويلاً ، قبل ان يغمغم :
- اين يحتفظ باسراره إذن ؟ !
ضغط (ادهم) اسنانه فى قوة ، والطبيب ينتزع الرصاصة من كتفه ، ولهث قليلاً ، وهو يواصل تطلّعه إلى الشاشة ، فابتسم الطبيب مشفقًا ، وغمغم :
- معذرة يا بطل .. اعلم ان هذا يؤلم ، ولكن الرصاصة كانت كامنة بين عظمتى الكتف واللوح ، و ...
انعقد حاجبا (ادهم) ، وهو يهتف فجاة :
- كامنة ؟ ! !
تطلّع إليه زميله والطبيب فى دهشة ، قبل ان يغمغم الأوّل :
- هل تعنى الكلمة شيئًا ما ؟
اجابه (ادهم) فى حزم :
- بالتاكيد .. إنها تعنى الكثير .

اطلّت الحيرة من عينى الرجلين ، وهمّ زميله بإلقاء سؤال آخر ، ولكن (ادهم) استطرد فى سرعة :
- المهم الآن ان نطبع نسخة من مفاجاة (شالوم) لنا ، وحتى اللحظة التى اطلق فيها رجاله النار نحونا .
ساله زميله فى دهشة :
- وفيم يمكن ان تستخدم هذه النسخة ؟
اطلّت من عينى (ادهم) ابتسامته ساخرة غامضة ، وهو يجيب :
- فى تطبيق المبدا الاستعمارى الشهير يا صديقى .
واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :
- فرّق تسد .
وعلى الرغم من إرهاقه وضعفه وآلامه ، تحولّت ابتسامته إلى ضحكة ..
ضحكة كبيرة ..
وواثقة ..

* * *

تهالكت اعين رجال (شالوم) ، فى منتصف النهار التالى ، وهم يقفون امام الذئب الإسرائيلى ، الذى احتقن وجهه من شدة الغضب ، ولوّح بذراعيه ، هاتفًا :
- ماذا تعنون بانكم لم تعثروا على ادنى اثر لـ (ادهم صبرى) فى المدينة كلها ؟ ! .. هل اختفى .. تبخّر ؟ ! .. الرجل مصاب برصاصتين ، ولابد ان يذهب لمداواة نفسه فى مكان ما حتمًا .
قال احد الرجال فى إرهاق واضح :

- لقد بذلنا قصارى جهدنا أيها الرئيس ، ولم يغمض لنا جفن منذ صباح أمس ، ولكننا لم نعثر على أدنى أثر له بالفعل .. بحثنا فى كل المستشفيات ، ومراكز الطوارئ ، وعيادات الأطباء الخاصة ، وراجعنا قائمة كل الشقق المستأجرة ، وزرنا سكانها جميعًا ، وهذا جهد رهيب للغاية .

صاح (شالوم) فى ثورة :

- ولكنه لم يسفر عن شىء .. مجرَّد جهد ضائع .

قال رجل آخر فى ضيق :

- مرنا بما ينبغى فعله ، وسنواصل عملنا يا سيِّد (شالوم) .

احتقن وجه (شالوم) أكثر ، ولوَّح بيده فى حدة هاتفًا :

- أغبياء ! .. كل ما أحصل عليه منكم هو الـ ..

قاطعه رنين هاتفه الخاص ، فالتفت إليه فى عصبية ، والتقط سمَّاعته ، قائلاً فى خشونة :

- من المتحدِّث ؟

أتاه صوت (ثوردال) ، وهو يقول فى اهتمام :

- إنه أنا يا سيِّد (شالوم) .. إننا نريدك لأمر هام للغاية .

التقى حاجبا الإسرائيلى ، وهو يغمغم فى حذر :

- تريدوننى ؟!

أجابه (ثوردال) :

- نعم يا سيِّد (شالوم) .. نريد أن نلتقى بك وحدك ، وبأقصى درجة من الاحتياط والسرية ، فى ڤيلتى الخاصة .

سأله (شالوم) ، وقد امتزج حذره بالكثير من الشك والقلق :

- ولماذا وحدى ، وبكل هذه السرية ؟!

أجابه (ثوردال) فى حزم :

- لأن الأمر بالغ الأهمية ..

وانخفض صوته ، وهو يضيف :

- سنلتقى بعميلنا السوفيتى .

اتسعت عينا (شالوم) ، على الرغم من انعقاد حاجبيه ، وقال فى توتر :

- عميلكم السوفيتى ؟! .. أهو هنا ؟!

أجاب (ثوردال) فى سرعة :

- لقد أرسله رؤساؤه إلى هنا ، لجمع المعلومات حول انطلاق طائرة (أدهم صبرى) من (هلسنكى) ، ولن يمكنه البقاء عندنا لأكثر من ساعة واحدة ، لذا فنحن نريدك هنا بأقصى سرعة .. وتذكَّر .. وحدك ، بكل ما يمكنك من السرية .

قالها ، وأنهى المحادثة على الفور ، ولكن (شالوم) ظلَّ يمسك السماعة لبضع لحظات ، على الرغم من الصفير المتقطِّع المنبعث منها ، ثم لم يلبث أن أعادها إلى موضعها فى بطء ، وعقله يحمل عشرات الأفكار ..

ولثوان ، بدا لرجاله أشبه بتمثال جامد من الرخام ، قبل أن يلتفت إليهم قائلاً فى صرامة شديدة :

- من الواضح أن الأمور قد تطوَّرت أسرع مما كنا نتصوَّر يا رجال .

ولم تمض ربع ساعة ، على نطقه لعبارته هذه ، حتى كانت سيارة (شالوم) تعبر بوَّابة ڤيلا (ثوردال) ، ورجال الحراسة بمدافعهم الآلية الصغيرة يفسحون له الطريق ، حيث استقبله (ثوردال) بنفسه ، قائلاً فى لهفة واضحة :

- مرحبًا يا سيِّد (شالوم) .. الجميع فى انتظارك بالداخل .

وقاده إلى ردهة كبيرة ، تطلّ على الحديقة مباشرة ، حيث جلس (هانز) و (انجريد) ، فتطلّع إليهما (شالوم) فى توتر حذر ، وهو يسأل :

- اين العميل السوفيتى ؟

نهض (هانز) قائلاً :

- سيصل بعد قليل .. اجلس يا سيد (شالوم) فلدينا ما نعرضه عليك .

وقاده إلى اريكة كبيرة ، فى مواجهة (التليفزيون) مباشرة ، فجلس (شالوم) والقلق يكاد يعصف بنفسه ، وبخاصة مع تلك الابتسامة شبه الساخرة ، التى ارتسمت علىَ شفتى (انجريد) التى تتابعه ببصرها فى شماتة واضحة ..

وفى حزم ، ضغط (ثوردال) ازرار جهاز التحكُّم من بُعد (الريموت كنترول) ، لتشغيل (التليفزيون) وجهاز (الفيديو) ، وهو يقول :

- واعتقد ان ما سنعرضه عليك سيثير اهتمامك بشدة يا سيِّد (شالوم) .

تابع (شالوم) الشاشة فى توتر قلق ، ثم لم يلبث حاجباه أن انعقدا فى شدة ، وخفق قلبه فى عنف ، وانقبضت اصابعه بكل قوتها على مسند الأريكة ، حتى كاد ينتزعه من مكانه ، عندما بدأ العرض الفعلى ..

فعلى الشاشة ، وامام عينيه مباشرة ، بدا مشهد اقتحامه لفيلا (هال) الثانية ، وحواره مع (ادهم) و (هال) ، ثم إصداره الأمر بقتلهما ، وتوالت الأحداث حتى نقلت مشهدًا واضحًا لجثة (هال) ، ورجاله يهرعون إلى المكان ..

وطوال العرض ، ران على المكان صمت رهيب ، وارتسم الغضب على وجهى (هانز) و (ثوردال) ، فى حين اطلّت نظرة ناقمة متشفية من عينى (انجريد) الجميلتين ، وعندما انتهى الأمر ، كان مسدسا الرجلين مصوبين إلى (شالوم) ، و (هانز) يقول فى غضب ثائر :

- إذن فليس (ادهم صبرى) هو المسئول عن مصرع (هال) يا سيِّد (شالوم) .. بل على العكس .. لقد حاول إنقاذه من رصاصات رجالك ، عندما امرتهم بقتله معه .

التقى حاجبا (شالوم) طويلاً ، قبل ان يقول فى عصبية :

- هذا الشريط مزيَّف .

ابتسم (ثوردال) فى سخرية غاضبة ، وهو يقول :

- كلاً يا سيِّد (شالوم) .. إنه ليس كذلك .. لقد أرسله إلينا شخص ما فى الثامنة صباحًا ، ولكننا لم نتخذ قرارنا بشأنه وشانك إلا فى منتصف النهار ، بعد ان استدعينا خبيرًا إلكترونيًا لفحص الشريط ، وتاكيد انه سليم تمامًا .

ومطّت (انجريد) شفتيها فى ازدراء قائلة :

- كنت واثقة من انك الشخص الذى يمكن أن يقدم على عمل حقير كهذا .

لوّح (شالوم) بذراعه ، قائلاً فى حدة :

- فليكن .. سنفترض اننى الشخص المسئول عن مقتل (هال) .. الم تسالوا انفسكم لماذا فعلت هذا ؟! .. لقد كنت احميكم ايضًا ايها الأغبياء .. (هال) كان يخونكم .

أشار (ثوردال) بيده ، قائلاً فى صرامة :

- لا داعى لمرافعتك هذه يا (شالوم) .. لقد اصدرنا الحكم بالفعل .

والتقى حاجبا (انجريد) ، وهى تقول :

- الإعدام .

صمت (شالوم) لحظة فى عصبية ، ثم لم يلبث أن ابتسم فى سخرية ، قائلاً :

- هكذا ؟ ! .. فليكن .. أنا أوافق على الحكم بالإعدام .

بدت الدهشة على وجهى (ثوردال) و (انجريد) ، فى حين تمتم (هانز) فى توتر :

- توافق !!

هبَّ (شالوم) من مجلسه ، صائحًا بكل قوته :

- نعم الإعدام لكم .

ومع آخر حروف كلماته ، اقتحم ثلاثة من رجاله الردهة ، مع كل طاقم حراسة فيلا (ثوردال) ، واشترك الجميع فى تصويب مدافعهم الآلية إلى هدف واحد ..

إلى ثلاثى الشبكة الاسكندنافية .





٢٠ - وسقطت الأقنعة ..

انهمك رجال الأدلة الجنائية فى عملهم ، فى ڤيلا (هال) الثانية ، وراحوا يجمعون الرصاصات الفارغة والشظايا الصغيرة ، ويرفعون البصمات من كل ركن ، وينتزعون المقذوفات من الجدران ، ويلتقطون الصور الضوئية للمكان ..

وفى أحد الأركان ، وقف اثنان من الرجال ، يتابعان عمل الآخرين ، ومطَّ أحدهما شفتيه فى تأثر ، وهو يهزّ رأسه قائلاً :

- ياللخسارة ! .. الرصاصات أتلفت عشرات اللوحات الثمينة .. هل تعلم .. الخبير قدَّر خسائر اللوحات وحدها بستة ملايين دولار .

هزَّ الثانى كتفيه ، وقال :

- يا لهؤلاء الأثرياء ، أينفقون الملايين فى سبيل الزينة والتباهى فحسب ! .. يا للسخافة ! .. لو أردت رأيى ، فهم يستحقون القتل .

ابتسم الأول ، وهو يقول :

- يا لك من حاقد !

همَّ الثانى بالتعليق على عبارته ، لولا أن تعلَّق بصره برجل أشقر الشعر ، كثّ الحاجبين والشارب ، دلف إلى المكان فى معطف أنيق ، وراح يدير بصره فيه بشىء من الصرامة ، فمال على زميله ، قائلاً :

- من هذا الرجل ؟

تطلَّع زميله إلى الأشقر لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه ، مغمغمًا :

- لست أدرى .. دعنا نسأله .

اتجه الاثنان نحو الأشقر ، وقبل أن يصلا إليه ، فوجئا به

يلتفت إليهما ، ويقول فى صرامة :

- ألم ينته هذا العمل بعد ؟

ارتبك الاثنان لهذه المبادرة غير المتوقَّعة ، واجاب احدهما :

- مازالت امامنا ساعة اخرى تقريبًا .

وساله الثانى فى حذر :

- معذرة يا سيِّدى ، ولكن .. من انت بالضبط ؟

انعقد حاجبا الأشقر ، وهو يقول فى غضب صارم :

- من أنا ؟! .. أى سؤال سخيف هذا ؟! .. الم تصلكما التعليمات الجديدة بعد ؟! .. من الغبى المسئول عن هذا الإهمال الجسيم ؟ .. من ؟!

ارتبك الرجلان اكثر ، وغمغم احدهما :

- للأسف ، لم تصلنا بعد اية تعلميات جديدة ، و ...

قاطعه الأشقر فى غضب :

- يا للسخافة ! .. ساصدر اوامرى بمعاقبة المسئول عن هذا الخطا فورًا ..

ثم اشار إلى المكان بيده ، مستطردًا فى حدة اكثر :

- ولكن يبدو انه ليس الوحيد الذى يتسم بالإهمال .. من الواضح انكم تشتركون معه فى السمة نفسها .. كيف لم ينته فحص هذا المكان حتى الآن ؟ .. اليس من المفترض ، طبقًا للوائح ، ان يتم هذا خلال الساعات الثلاث الأولى ؟!

تنحنح أحد الرجلين ، قبل أن يقول متوترًا .

- هذا نصٌ قديم فى اللائحة ، تقدمنا بطلب لتعديله و ..

صرخ الأشقر فى وجهه :

- لا أريد اية تبريرات .

ثم اتجه فى خطوات عصبية واسعة إلى الجدار الذى يحوى اللوحات والصور ، وتطلَّع إليه بحاجبين معقودين ، قبل أن يشير لأحد العاملين ، قائلاً فى صرامة :

- انتزع هذه الصورة .

أسرع الرجل ينفذ الأمر ، وانتزع الصورة الكبيرة للمحامى (هال) ، وهو يقف وسط ساحة التزلُّج ، فالتقطها منه (ادهم) ، وتطلَّع إليها لحظة ، ثم وضعها تحت إبطه . والتفت إلى الرجلين ، قائلاً فى صرامة شديدة :

- ومتى ينتهى العمل هنا ؟!

تبادل الاثنان نظرة متوترة ، قبل أن يجيب احدهما :

- ساعة واحدة على الأكثر يا سيِّدى ، و ...

قاطعه (ادهم) بصرخة صارمة :

- ساعة واحدة وليس اكثر .. هل يفهم الجميع ؟

اوما العاملون برءوسهم فى توتر ، فانعقد حاجباه فى صرامة اكثر ، وغادر المكان فى خطوات واسعة ، وهو يقول :

- ساعود بعد ساعة واحدة ، والويل كل الويل لمن يتقاعس فى عمله .

ازدرد الجميع لعابهم فى توتر ، وهم يتابعونه بابصارهم ، حتى غادر المكان ، ثم اطلق أحدهم زفرة حارة من اعماق صدره ، قبل أن يقول :

- اللعنة ! .. من هذا الرجل بالضبط ؟

ارتفع حاجبا الرجلين فى دهشة عنيفة ، وتبادلا نظرة صامتة مغمغمة بالتوتر ، قبل أن يلتفت الاثنان فى آن واحد إلى الباب الذى خرج منه (ادهم) منذ لحظات ، وقد تردَّد فى

رأسيهما السؤال نفسه ..
نعم .. من هذا الرجل ؟! ..
من ؟! ..

* * *

امتقع وجه (ثوردال) و (هانز) و (انجريد) بشدة ، عندما اقتحم الرجال المكان ، وهتف الأول مذعورًا :
- ما هذا ؟! .. ماذا اصابكم يا رجال ؟
أجابته ضحكة عالية ، ساخرة ، شامتة ، متشفية ، ظافرة ، انطلقت من حلق (شالوم) ، وجلجلت فى المكان كله ، قبل ان يقول صاحبها فى غلظة :
- لا تجعل هذا يدهشك أيها الفنلندى .. إنهم لم يطلقوا علىَّ لقب (الذئب الأرقط) ، عبثًا .. ولا تعتمد كثيرًا على طاقم حراستك ، فكلهم يعملون لحسابنا .
اتسعت عينا (انجريد) فى ارتياع ، وهى تهتف :
- كلهم .
التفت إليها (شالوم) بنظرة صارمة ، قائلاً :
- نعم .. كلهم يا أميرة الأغبياء .. ومنذ التحقوا بالعمل هنا .. انا ارسلتهم بنفسى ، وكنت أعلم انهم يناسبون صديقنا (ثوردال) تمامًا .. وكنت ادخرهم لمثل هذه اللحظة .
ثم صرخ بغتة فى وجه (هانز) :
- الق مسدسك أيها الحقير .
القى (هانز) و (ثوردال) مسدسيهما بسرعة ، فى حين هتفت (انجريد) فى توتر شديد :
- (شالوم) .. عزيزى (شالوم) .. إننا نعترف بالخطأ الذى

ارتكبناه فى حقك .. هيا .. دع رجالك ينصرفون ، وسنناقش هذه الأمور فيما بيننا .
رفع (شالوم) حاجبيه بدهشة مصطنعة ، وهو يقول :
- ينصرفون ؟! .. وماذا عن الحكم يا اميرتى ؟
سألته مرتجفة :
- اى حكم ؟!
اجابها فى صرامة :
- حكم الإعدام .
اتسعت عيون الثلاثة فى رعب ، وتعلقت بكواتم الصوت فى فوهات المدافع الآلية ، ثم هتف (هانز) :
- لا .. لا تفعلها يا سيِّد (شالوم) .
وصاح (ثوردال) ، وهو يلوِّح بذراعيه :
- إنك ترتكب خطأ فادحًا .
اما (انجريد) فقد انهارت من مقعدها على ركبتيها ، وتفجرت الدموع من عينيها فى غزارة ، وهى تهتف :
- لا تقتلنى يا (شالوم) .. أرجوك .. انا ثرية وجميلة ، ومازلت ارغب فى التمتع بالحياة لوقت اطول .. ارجوك .
ولكن (شالوم) اشار إلى رجاله ، وهو يقول فى قسوة :
- للأسف فات الأوان يا أميرتى .
وخفض يده بحركة حادة ، فصرخت (انجريد) فى رعب هائل :
- لا .. لا !!!!! ..
ومع صرختها ، انطلقت الرصاصات المكتومة ..
واخترقت الرءوس والأجساد ..

كل الرءوس والأجساد ..

وبلا أدنى رحمة أو شفقة ..

وبعد ثوان معدودة افترشت جثث ثلاثى الشبكة الاسكندنافية أرض ردهة ڤيلا (ثوردال) ، وسط بحر من الدم ..

وفى برود ، تطلّع (شالوم) إلى جثث الثلاثة ، ثم التقط جهاز التحكُّم عن بعد ، وعاد يجلس على الأريكة ، ويدير الشريط المسجَّل فى هدوء ، متطلّعًا إلى كل لقطة منه بإمعان شديد ..

ثم توقَّف عند اللقطة التى أشار فيها (هال) إلى الجدار ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

وأعاد عرض اللقطة مرة ..

ومرة ..

ومرة ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يفحص ببصره الجدار المكتظ باللوحات والصور ، والذى أشار إليه (هال) ، وراح يعتصر ذهنه بشدة ، و ...

وفجأة ، وثب من مقعده ، صائحًا :

- اللعنة ! .. إنها صورة كامنة .

التفت رجاله إليه فى دهشة ، وغمغم أحدهم :

- صورة كامنة ؟ ! .. وما هى الصورة الكامنة ؟ !

اندفع (شالوم) نحو شاشة التليفزيون ، وأشار إلى صورة (هال) الكبيرة ، وسط ساحة التزلُّج ، وهو يقول فى انفعال :

- كان ينبغى أن أنتبه إلى هذا منذ البداية ، فلماذا يحتفظ (هال) بصورة كبيرة فى ردهة الڤيلا ، على الرغم من أنه

لا يحتفظ بمثلها فى ڤيلته العلنية ؟ ! .. والجواب هو أنه يحتفظ بها لأنها تحوى كل أسراره ؛ ففيها صورة كامنة ، لا يمكن رؤيتها إلا بمعالجة خاصة (*) وهى فكرة عبقرية بحق .

ثم وثب إلى الهاتف ، وطلب رقمًا خاصًا ، ولم يكد يسمع صوت محدِّثه ، حتى قال فى انفعال :

- (موريس) .. هناك أمر بالغ الأهمية ، أريد منك القيام به على الفور .. هناك صورة كبيرة للوغد (هال) ، وهو يقف وسط ساحة التزلُّج ، ستجدها على جدار فى ردهة ڤيلا (هال) الثانية حيث لقى مصرعه .. أريد هذه الصورة بأى ثمن ، و ...

اتسعت عيناه فى ارتياع ، عندما قاطعه محدِّثه ، وكادت أصابعه تحطِّم سمّاعة الهاتف ، وهو يصرخ :

- ماذا ؟ ! .. أخذها ؟ .. رجل مجهول أتى وأخذها .. اللعنة ! اللعنة ! .. اللعنة !!

وعندما أعاد السمّاعة إلى موضعها كان جسده كله يرتجف فى عنف ..

لقد سبقه (أدهم صبرى) أيضًا هذه المرة ، وفاز بالغنيمة .. بل بالصفقة كلها ..

* * *

(*) فى الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٨م ، ألقت المخابرات العامة المصرية القبض على جاسوس يعمل كمحترف تصوير ، وهو (منير عبدالغنى) ، وكان (منير) يحمل عند وقوعه بعض الأفلام بالغة الخطورة ، وعددًا من الصور الكامنة ، وهى عبارة عن صورة يتم التقاطها ، وتترك فيها مساحات واسعة بيضاء ، وفى هذه المساحات يتم طبع صور أخرى لمنشآت أو وثائق ، بعد تحميض الصورة الأصلية ، وقبل تثبيتها ، ثم يتم تثبيت الصورتين الواضحة والمختفية معًا ، ولاستعادة الصورة الكامنة فى الفراغ الأبيض ، يتم تحميض الصورة ثانية .

التقط (أدهم) الصورة الكبيرة من حوض التحميض فى حرص ، وتطلّع إلى الثلوج البيضاء فيها ، والتى استحالت إلى مساحات سوداء ، من كثرة ما برز فوقها بالتحميض ، وغمغم فى ارتياح :

- خبيث للغاية (هال) هذا .. لقد استخدم فكرة الصورة الكامنة بمنتهى البراعة ، فطبع صورته وسط مساحة التزلّج ، وقام بإظهارها ، ثم طبع صورة الوثائق بمنتهى الدقة ، فى المساحات البيضاء ، دون أن يظهرها ، وإنما اكتفى بتثبيت الصورة كلها ، واحتفظ بها فى ردهة فيلته ، ولهذا لم يحاول فحص أية إطارات أو خزائن ، وإنما اكتفى بأن الصورة مازالت فى موضعها ، وهذا وحده دليل على أن أسراره فى أمان .

قال زميله فى توتر :

- يا للبراعة .

التقط (أدهم) عدسة مكبّرة ، وتطلّع بوساطتها إلى الثلوج التى اصطبغت بالسواد ، وراح يقرأ التفاصيل بمنتهى الاهتمام ، قبل أن يقول :

- آه .. إذن فهذا هو العميل السوفيتى .. كان ينبغى أن أتوقّع أنه هو .. ولكن هناك الأكثر أهمية .. فـ (هال) يحتفظ بعدد من الشرائط الصوتية والمرئية ، فى خزانة خاصة ، وها هو ذا رقمها السرى ، والمكان الذى يحتفظ فيه بمفتاحها فى (سويسرا) .

هتف زميله فى انفعال :

- رباه ! .. إنها معلومات بالغة الخطورة يا سيادة العقيد .

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وشرد ببصره بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :



وغمغم فى ارتياح :
- خبيث للغاية (هال) هذا .. لقد استخدم فكرة الصورة الكامنة ..

– إنها كذلك يا رجل .. ولكن ليست خطورتها وحدها المهمة ، ولكن الأكثر أهمية هو كيف يمكن استغلال هذه الخطورة ؟!

سأله زميله فى اهتمام :

– كيف يا سيادة العقيد ؟!

شرد بصر (أدهم) أكثر وهو يجيب :

– بأفضل وسيلة أيها الزميل .. بأفضل وسيلة ممكنة ..

وبدت عبارته واثقة قوية ، و ...

وغامضة ..

غامضة إلى أقصى حد ..

* * *

اتسعت عينا (فريدريك) فى ارتياع ، وهو يحدِّق فى وجه رجل المخابرات المصرى ، الذى نقل إليه خبر مصرع (ثوردال) و (هانز) و (أنجريد) ، قبل أن يهتف فى صوت مختنق :

– ولكن كيف ؟! .. ولماذا ؟! .. من ذا الذى يسعى لقتل ثلاثتهم فى مذبحة بشعة كهذه ؟!

أجابه رجل المخابرات ، وهو يلقى جسده المنهك على أقرب مقعد إليه :

– الإسرائيلى (مائير شالوم) بالتأكيد .

هتف (فريدريك) فى غضب :

– يا للوغد !

هزَّ رجل المخابرات رأسه ، قائلاً :

– الذئاب دائمًا يفترس بعضها البعض ، إذا ما تأزّمت الأمور .

سأله (فريدريك) فى اهتمام :

– وماذا سيفعل الكابتن (زيلمان) فى هذا الشأن ؟ .. أعنى السيِّد (أدهم) .

ارتسمت ابتسامة مرهقة على شفتى رجل المخابرات ، وهو يقول :

– الكثير .

كان جوابًا مقتضبًا ، ولكنه يحمل معانى شتى ، جعلت جسد (فريدريك) ينتفض انفعالاً ، وتأثرًا ، قبل أن يقول فى حماس :

– السيِّد (أدهم) هذا رجل مدهش بحق .. من يصدق أنه يتحرك بكل هذا النشاط ، وإصاباته لم تلتئم بعد ؟!

أجابه رجل المخابرات مبتسمًا :

– لو أنك تعرف (أدهم) مثلما نعرفه ، لما أدهشك هذا .

هزَّ (فريدريك) رأسه ، قائلاً فى انبهار :

– لا ريب عندى فى هذا .

ثم سأل فى شغف :

– لكن أين هو ؟! .. إننى لم ألمحه منذ الصباح الباكر .

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى رجل المخابرات ، وهو يجيب :

– إنه يقوم بعمل هام للغاية ، لا يمكن أن يقوم به سواه .

ارتفع حاجبا (فريدريك) فى انبهار ، وهو يتمتم :

– عمل هام للغاية ؟! .. أين ؟!

اتسعت ابتسامة رجل المخابرات ، وهو يجيب :

– فى مكان ما .

نطقها وابتسامته تحمل المزيد من الغموض .
والمزيد ..
والمزيد ..

* * *

« مرحبًا يا مسيو (هال) .. أية رياح طيبة شرفتنا بزيارتك المفاجئة لنا هذه المرة ؟ ! .. »

ألقى مدير بنك (كريدى سويس) فى العاصمة السويسرية هذه العبارة ، وهو ينهض لاستقبال (أدهم) فى مكتبه ، وقد تنكّر فى هيئة (هال) بدقة مدهشة كعادته ، وإن أحاط يده اليمنى برباط ضاغط ملحوظ ، وضمادة على الرسغ ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة تقليدية ، وهو يصافح مدير البنك بأطراف أصابعه ، قائلاً :

- معذرة .. يدى مازالت تعانى إصابة محدودة ، فى ملعب التنس .

تطلّع المدير إلى الرباط الضاغط والضمادة ، وهو يقول :

- آه .. ضربة خاطئة .. أليس كذلك ؟

ابتسم (أدهم) ولوّح بكفه اليسرى ، وهو يجيب :

- بل محاولة صدّ أعنف مما ينبغى .

أومأ المدير برأسه متفهمًا ، وهو يغمغم :

- تقبّل أسفى يا مسيو (هال) .

ثم استطرد يسأله فى اهتمام :

- إنها أول مرة تشرفنا فيها بزيارتك دون موعد سابق .. أليس كذلك ؟

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- بلى ، ولكنه أمر عاجل بحق .. قضية هامة ، أحتفظ بالوثائق الخاصة بها فى خزانتى هنا .

ابتسم المدير وهو يقول :

- أراهن على أنك لا تخسر قضاياك أبدًا يا مسيو (هال) .

منحه (أدهم) ابتسامة لزجة ، وهو يجيب :

- إلى حد ما .

ثم أخرج من جيبه مفتاح الخزانة ، الذى حصل عليه من المكان الذى أخفاه فيه (هال) ، وهو يستطرد :

- ها هو ذا مفتاحى .

أسرع مدير البنك يلتقط من درج مكتبه المفتاح الثانى ، وهو يقول :

- وها هو ذا المفتاح الآخر ، والآن لا ينقصنا سوى توقيعك ، و ...

وبتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يتطلّع إلى يد (أدهم) المحاطة بالرباط الضاغط والضمادات ، فلوّح بها هذا الأخير ، وقال فى شىء من المرح :

- لا تدع هذا يشغلك .. صحيح أننى لم أختبر فاعليتها بعد ، ولكننى أعتقد أنه مازال بإمكانى استخدامها للتوقيع .

والتقط قلمًا من فوق مكتب المدير ، وأمسك الإيصال الخاص ، ووضع فوقه توقيع (باتون هال) ، ثم تطلّع إليه فى شىء من عدم الرضا ، ومطّ شفتيه ، متمتمًا :

- إنه لا يبدو أنيقًا كالمعتاد ، ولكن ..

لم يتم عبارته ، وكأنما لا يجد ما يقوله ، ولكن المدير أومأ برأسه ، معلنًا تفهمه للموقف ، وهو يتطلّع إلى التوقيع ، الذى

لم يبد له مثاليًا ، إلا أن وجود (هال) أمامه بوجهه المألوف ، وصوته المميز ، ووجود المفتاح معه ، ومعرفته لرقم الخزانة ، والبنك ، كلها عوامل جعلته يبتسم قائلاً :

- لا بأس يا مسيو (هال) .. صحيح أن هذا يخالف لوائحنا ، ولكننا لسنا بالتأكيد جهة بيروقراطية متزمتة ، ولا يمكننا أن نتسبَّب فى خسارتك لقضيتك ، لمجرَّد أنك مصاب بما يمنعك من إجادة توقيعك موقتًا ... سنقوم بكل الإجراءات ، ونحصل على توقيعك فيما بعد .

ونهض مستطردًا فى حسم :

- اتبعنى يا مسيو (هال) .

ابتسم (أدهم) ، وهو يتبعه إلى حجرة الخزائن ، قائلاً بصوت ولهجة (هال) :

- هذا بالضبط ما جعلنى أتعامل مع بنككم يا رجل .

اصطحبه المدير إلى الحجرة ، وفتح الخزانة بمفتاحه ، وترك (أدهم) يستخدم مفتاحه ، ثم أخرج الحاوية ، ووضعها فوق منضدة جانبية ، وابتسم ، قائلاً :

- سأنتظرك فى مكتبى يا مسيو (هال) .

انتظر (أدهم) حتى أغلق المدير الباب خلفه ، ثم فتح الحاوية ، وتطلَّع إلى الشرائط المسجَّلة داخلها ، قبل أن يقول فى ارتياح :

- عظيم .. هذا كل ما نحتاج إليه .

ولم تمض دقائق عشر ، على قوله هذا ، حتى كان يغادر البنك ، وينطلق بسيَّارته مبتعدًا فى هدوء ، فتابعه المدير ببصره فى اهتمام ، وعاد يمارس عمله اليومى ، ولم تمض

نصف الساعة ، حتى اندفع أحد الموظفين إلى حجرته ، وهو يحمل جريدة الصباح ، هاتفًا :

- سيِّدى المدير ، هل قرأت هذا الخبر ؟

التقط المدير الجريدة فى اهتمام ، ولم يكد يلقى نظرة على الخبر المنشور فى الصفحة الأولى ، حتى قفز من مقعده ، صارخًا :

- مستحيل !

فقد كان الخبر يشير إلى حادثى مصرع (هال) ورفاقه الثلاثة فى (هلسنكى) ..

وفى ارتياع ، هتف المدير :

- لو أن مسيو (هال) قد لقى مصرعه هناك ، فمن ذلك الرجل ، الذى كان هنا اليوم ؟ !

هزَّ الموظف رأسه ، متمتمًا فى حذر :

- محتال ولا شك .

ترك المدير جسده يسقط على أقرب مقعد إليه ، واتسعت عيناه فى هلع ، وعقله يسترجع تفاصيل ما حدث ، إلا أنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وقال للموظف فى صرامة :

- فليكن .. ما دام مسيو (هال) الحقيقى قد لقى مصرعه ، فلن يوجد من يمكن أن يتقدَّم بشكوى ضدنا .

سأله الموظف فى دهشة :

- ماذا تعنى يا سيِّدى ؟ !

أجابه المدير فى حزم :

- مسيو (هال) لم يحضر إلى هنا اليوم ، وكلانا يمكنه أن يقسم على هذا .. مزق الإيصال وكل الأوراق الخاصة بزيارة ذلك

المحتال ، ولن يتمكّن شخص واحد من إثبات ما حدث ، اما عن
محتويات الخزانة فقد كنا ومازلنا نجهلها تمامًا ، والقانون
لا يمنع احتفاظ شخص ما بخزانته خاوية ، مادام يسدِّد اجرها
على نحو منتظم .. هل تفهم ؟

اوما الرجل برأسه ، مغمغمًا :

- افهم يا سيِّدى المدير ، واعتقد ان هذا افضل للجميع .

وفى نفس اللحظة ، التى دار فيها هذا الحوار ، كان (ادهم)
يستقلّ الطائرة العائدة إلى (هلسنكى) ، وقد استعدّ وتاهب
لجولته القادمة مع الذئب الإسرائيلى ..

جولته الحاسمة ..

والأخيرة .

* * *

انطلقت ضحكة ظافرة من بين شفتى رجل المخابرات
المصرى ، وتهلّلت اساريره ، وهو ينهى محادثة هاتفية ، قائلاً
بالعربية :

- عظيم .. عظيم .. هذا ما كنت اتوقّعه بالطبع .. انا فى
انتظاره .

ساله (فريدريك) فى لهفة ، عندما انهى المحادثة :

- ملامحك تقول : إن السيد (ادهم) قد ادى مهمته بنجاح ..
اليس كذلك ؟

ابتسم رجل المخابرات ، قائلاً :

- من الواضح انك تجيد قراءة الملامح يا (فريدريك) .

اجابه (فريدريك) فى حماس :

- بل قل : إننى اعرف من ينبغى ان امنحه ثقتى .

ثم اعتدل فى مجلسه ، وهو يسال فى لهفة :

- ولكن متى يعود إلينا ؟

هزَّ رجل المخابرات كتفيه ، وهو يقول :

- المفترض انه فى طريقه إلى هنا ، و ...

قبل ان يتم عبارته ، التقطت اذنه بغتة وقع اقدام تقترب من
باب الشقة فى حذر ، فاستلّ مسدسه بسرعة وهبَّ واقفًا ، وهو
يشير إلى (فريدريك) بالصمت ، ويتجه فى خفة نحو الباب ..

وحبس (فريدريك) انفاسه ، وهو يتابع حركته ، وراح قلبه
يخفق فى عنف متوتر ، و ...

وفجاة ، اقتحم رجلان النافذة ، ووثبا داخل الشقة ، وكلاهما
يحمل بندقية من طراز خاص ..

وبسرعة مدهشة ، استدار رجل المخابرات يوجه الرجلين ،
واطلق نحوهما رصاصات مسدسه ، التى ارتطمت بالسترات
الواقية من الرصاصات التى يرتدونها ، فى حين انطلقت من
بندقيتهما اسهم خاصة ، انغرست فى عنقه وصدره ، فى نفس
اللحظة التى اقتحم فيها رجلان آخران الباب ، وانقضا عليه من
الخلف ..

وصرخ (فريدريك) ، والأسهم المخدِّرة تنغرس فى جسده
ايضًا :

- رباه ! .. لقد كشفوا امرنا .

وفى نفس اللحظة التى سقط فيها ، مع رجل المخابرات
المصرى ، فاقدى الوعى ، ظهر على عتبة الباب ذلك الخصم
اللدود ..

(مائير شالوم) ..

الذئب الإسرائيلى الأرقط ..

وفى صرامة قاسية ، القى نظرة على الرجلين ، وغمغم :

- كان ينبغى ان تدركا أن (شالوم) ليس بالرجل السهل ، وانه سيكشف الأمر إن عاجلاً او آجلاً .

ساله احد رجاله ، وهو يشير إليهما :

- هل نتخلص منهما ايها الرئيس ؟

اجابه (شالوم) فى حزم :

- ليس بعد .. سنحملهما الآن فحسب إلى فيلتى الخاصة ، وسنصنع منهما طعمًا لاصطياد الفريسة الرئيسية .

ساله الرجل فى اهتمام :

- وهل تعتقد ان رجلاً مثل (ادهم صبرى) يمكن ان يقع بمثل هذه السهولة ؟

برقت عينا (شالوم) ببريق وحشى ، وهو يجيب :

- صدقنى يا رجل .. فى هذه الجولة بالتحديد ، لن يكون امام ذلك الشيطان المصرى سوى ان ينهزم .. ودون ادنى امل فى النصر .

قالها ، وبريق عينيه يتضاعف ، ويحمل المزيد من الوحشية والشراسة ، حتى بدا بالفعل اشبه بالذئب ..

ذئب لا يعرف الهزيمة ..

او الرحمة .

* * *



٢١ - الموت لا ياتى مرتين ..

هبط الظلام فى سرعة على العاصمة (هلسنكى) ، فى ذلك اليوم ، مع الغيوم الكثيفة التى حجبت السماء ، وبدا الجليد ينهمر مبكرًا ، فاكتست الشوارع ، واسطح المنازل بغلاف ابيض ناصع ، تطلّع إليه (شالوم) فى شىء من التوتر ، عبر نافذة حجرة مكتبه ، فى الطابق الثانى من الفيلا ، وتعلق بصره طويلاً ببوّابتها المعدنية ، التى وقف عندها خمسة من رجال الحراسة الأشدّاء ، بمدافعهم الآلية القصيرة ، فساله احد رجاله فى شىء من التردُّد :

- هل تعتقد انه سياتى يا سيِّدى ؟

صمت (شالوم) طويلاً ، وحاجباه ينعقدان فى شدة ، قبل ان يجيب فى صرامة :

لو انك درست شخصية (ادهم صبرى) ، كما درستها انا ، لادركت انه لن يتخلّى عن زميله ومساعده السابق قط .. إنه من ذلك الطراز الغبى ، الذى يقيم وزنًا كبيرًا للعواطف والمشاعر السخيفة .

هزّ الرجل كتفيه ، وهو يقول :

- لو اننى فى موضعه لما اتيت قط ، مهما كان الثمن ، خاصة وهو يعلم انك تطلب منه وضع نفسه بقدميه فى الفخ ، الذى صنعته له .

صمت (شالوم) لحظات اخرى ، ثم اجاب فى صرامة حازمة :

سياتى .

لم يكد ينطق الكلمة ، حتى ظهرت من بعيد اضواء سيارة تقترب ، فهتف الرجل فى دهشة عارمة :

- امن الممكن ان يكون ...
قاطعه (شالوم) فى انفعال :
- قلت لك : إنه سياتى .
وتعلق بصره بالسيارة ، التى واصلت طريقها ، حتى توقفت امام البوابة المعدنية مباشرة ، واطلّ منها وجه (ادهم صبرى) ، وهو يقول لحارس البوابة بلهجة ساخرة :
- افتح ايها الوغد .. رئيسك ينتظرنى على احرّ من الجمر .
فتح الرجل البوابة ، وهو يقول فى غلظة :
- انتبه لما تقول يا رجل ، وإلا ..
قاطعه (ادهم) ساخرًا :
- وإلا ماذا يا هذا ؟! .. هل ستطلق النار علىّ ، قبل ان التقى برئيسك ؟
افسح له الرجل الطريق ، وهو يقول فى غضب :
- ربما افعل ، بعد ان ينتهى من امرك .
عبر (ادهم) البوابة بسيارته ، وهو يقول :
- يمكنك ان تحلم بهذا على الأقل ، ولكن حذار ان تفعل هذا بدون غطاء .
عضّ الرجل شفتيه فى غيظ ، وهو يغلق البوابة خلف السيارة ، التى عبر بها (ادهم) حديقة الڤيلا ، ليتوقف امام بابها مباشرة ، فاندفع نحوه خمسة من الرجال بمدافعهم الآلية ، وصوّبوها إليه فى صرامة ، فى حين قال احدهم فى خشونة :
- اهبط يا رجل .
غادر (ادهم) السيارة فى هدوء ، وهو يرفع ياقة معطفه الأنيق ، ليتّقى الجليد المتساقط ، قائلاً فى سخرية :

- قل لى ايها الوغد : كم من زملائك الأوغاد ينبغى ان التقى بهم ، قبل ان اصل إلى رئيسك ؟
انعقد حاجبا الرجل فى غضب ، وهو يلكزه بمدفعه ، قائلاً :
- انت رجل محظوظ يا هذا ؛ فلولا اوامر رئيسى لأطلقت النار عليك بلا رحمة .. هيا ارفع يديك ، فالأوامر تحتم ايضًا تفتيشك جيدًا .
رفع (ادهم) ذراعيه فوق راسه ، وترك الرجل يفتشه فى سرعة ودقة ، وهو يقول :
- اطمئن ايها العبقرى .. لست احمل اية اسلحة .
قال الرجل فى صرامة :
- لن يضيرنا ان نتاكد .
تركه (ادهم) يواصل عمله ، حتى انتهى منه ، ثم خفض ذراعيه ، قائلاً :
- حسن .. هل سنذهب الآن إلى (شالوم) ، ام انه من الضرورى ان نمر بنقاط تفتيش اخرى ؟ ؟
دفعه الرجل امامه فى غلظة قائلاً :
- اصمت .
احاط به اربعة من الرجال بمدافعهم الآلية ، وقادوه إلى حجرة مكتب (شالوم) ، حيث استقبله هذا الأخير بنظرة صارمة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً :
- مرحبًا بك فى ڤيلتى يا سيد (ادهم) .. من الواضح انك قد تلقيت الرسالة ، التى تركتها لك فى منزل (فريدريك) ، وانك ادركت حتمية مجيئك إلى هنا .
قال (ادهم) فى برود :

- لديك ما اريده يا (شالوم) .
قال (شالوم) فى عصبية :
- انت ايضًا لديك ما اريده يا سيِّد (ادهم) .
تجاهل (ادهم) العبارة ، وكانه لم يسمعها قط ، وقال فى حزم :
- قبل ان نناقش اية امور بيننا ، احب ان اتاكَّد من ان زميلى و (فريدريك) بخير .
قال (شالوم) :
- اطمئن .. إنهما على خير ما يرام .
ابتسم (ادهم) فى سخرية ، قائلاً :
- هل تتوقَّع منى الاقتناع بكلمتك ؟!
حَدَجَه (شالوم) بنظرة غاضبة ، قبل ان يقول :
- ما الذى تسعى إليه بالضبط يا سيد (ادهم) ؟
شدَّ (ادهم) قامته ، وهو يجيب فى حزم :
- اطلق سراح زميلى و (فريدريك) ، وبعدها نناقش امورنا .
التقى حاجبا (شالوم) فى شدة ، وهو يقول :
- هل تسخر منى يا سيِّد (ادهم) ؟
هزَّ (ادهم) راسه نفيًا ، وقال :
- مطلقًا .. إننى فقط اتخذ ما يلزم من الحيطة والحذر ، استنادًا إلى خبرتى السابقة فى التعامل مع الأوغاد امثالك .. من ادرانى انك لن تحصل على ما تريد ، ثم تقتلهما ابشع قتلة ؟
قال (شالوم) فى حدة :
- ومن ادرانى انك لن تخدعنى ، بعد ان اطلق سراحهما ؟

هزَّ (ادهم) كتفيه هذه المرة ، وهو يجيب :
- إننى بين يديك .. ستظفر بى على الأقل .
صمت (شالوم) طويلاً ، وهو يتطلَّع إليه فى شك حذر متوتر ، قبل ان يقول فى بطء :
- سيِّد (ادهم) .. انت تعرف جيدًا من انا ، وتعرف ان احدًا لم يسخر منى قط ، وبقى على قيد الحياة .
اجابه (ادهم) فى هدوء :
- اعلم هذا .
عاد (شالوم) إلى صمته لدقيقة اخرى ، ثم قال فى صرامة :
فليكن يا سيِّد (ادهم) .. ساثبت لك ان احدًا لن يبلغ قط مقدار ما يتمتع به (مائير شالوم) من حنكة وذكاء وبراعة .. ساطلق سراح زميلك ومساعدك السابق .
قال (ادهم) بسرعة :
- فليوصلهما رجالك إلى السفارة المصرية ، وعندما يتصل زميلى بى من هناك ، سنبدا مفاوضاتنا على الفور .
تصاعدت نبرة الشك فى اعماق (شالوم) ، وانطلق ناقوس الخطر يقرع فى راسه ، وهو يتطلَّع إلى عينى (ادهم) فى توتر ، قبل ان يميل نحوه ، قائلاً :
- هل تتصوَّر ان وصول الرجلين إلى سفارتك ، يمكنه ان ينقذك من بين يدىَّ ؟!
ابتسم (ادهم) فى سخرية ، قائلاً :
- لست ساذجًا إلى هذا الحد يا رجل .. انا اعلم انك لن تتردَّد فى قتلى ، لو لم تسر الأمور على النحو الذى تنشده وتسعى إليه .

قال (شالوم) فى حدة :

- بالضبط .

ثم اتجه إلى باب حجرته فى خطوات واسعة ، وفتح الباب ، قائلاً فى صرامة :

- (بنحاس) .. تعال مع رجلين من رجالك إلى حجرتى ، وصوِّبوا مدافعكم الآلية إلى السيِّد (ادهم) طوال الوقت ، واطلقوا النار عليه عند ادنى شك فى موقفه ، وليقف خمسة رجال هنا امام الباب ، وليطلقوا النار عليه فورًا ، لو حاول الخروج دون إذن واضح وصريح منى .. ومر خمسة آخرين بالوقوف اسفل النافذة ، مع الأوامر ذاتها .. هل تفهم ؟

اجابه (بنحاس) فى حزم :

- بالتأكيد يا سيِّدى .

جلس (ادهم) على اقرب مقعد إليه فى استرخاء ، وهو يقول :

- نسيت اهمَّ نقطة يا رجل .

مطَّ (شالوم) شفتيه ، وانعقد حاجباه قائلاً :

- فليكن .. اطلق سراح الأسيرين يا (بنحاس) ، وارسلهما مع اثنين من رجالنا إلى السفارة المصرية .

ثم التفت إلى (ادهم) مستطردًا :

- وسنرى يا سيِّد (ادهم) .. سنرى من منا الأكثر ذكاء وبراعة .

قالها ، ثم انعقد حاجباه فى شدة اكثر ، وعاد ناقوس الخطر يقرع فى اعماقه بكل قوة وهو يتطلع إلى ابتسامة (ادهم) المسترخية ، التى لم ترق له هذه المرة .. لم ترق له ابدًا ..

* * *

ارتفع حاجبا (يورى جلجانوف) فى دهشة ، عندما رأى العقيد (كوزيريف) يدلف إلى مكتبه فى هذه الساعة ، ونهض فى بطء يقول :

- مرحبًا ايها الرفيق العقيد .. كم تدهشنى زيارتك المفاجئة هذه ، فقد كنت فى طريقى إليك الآن .

اشار (كوزيريف) بيده ، قائلاً :

- اجلس ايها الرفيق الرائد .. اريد التحدُّث إليك .

عاد (جلجانوف) يجلس ، وشبك اصابع كفيه على سطح مكتبه وهو يقول :

- خيرًا .

رمقه (كوزيريف) بنظرة صارمة ، قبل ان يتحرك داخل الحجرة ، قائلاً :

- كلانا يعرف الكثير عن قصة الجاسوس الخفى ، الذى يعمل فى صفوفنا منذ فترة طويلة ، والذى بذلت الإدارة جهدًا حقيقيًا لكشف شخصيته دون طائل .

تحركت يد (جلجانوف) فى حذر نحو درج مكتبه ، وهو يقول :

- بالتأكيد ايها الرفيق .

اومأ (كوزيريف) برأسه مرتين متتاليتين ، ثم قال :

- ولكن الظروف فى الآونة الأخيرة ، اضافت معلومات وإحداثيات جديدة ، وخصوصًا بعد نجاح الجاسوس المصرى فى الفرار .

فتح (جلجانوف) درج مكتبه فى حذر شديد ، واختلس نظرة إلى المسدس الراقد داخله ، وهو يقول :

- هل توصلّت الإدارة إلى معلومات جديدة أيها الرفيق العقيد ؟

استدار (كوزيريف) يتطلّع إليه مباشرة ، قبل أن يجيب في حزم :

- بالتأكيد .

أمسك (جلجانوف) مقبض المسدس في توتر ، و (كوزيريف) يكمل :

- لقد توصلنا إلى شخصية الجاسوس .

انقبضت أصابع (جلجانوف) على مقبض المسدس في قوة ، وهو يسأل في شيء من الانفعال :

- ومن هو ؟!

تطلّع إليه (كوزيريف) لحظات في صمت مطبق ، قبل أن يجيب :

- (هيلجا) .. (هيلجا مارونسكي) .

انعقد حاجبا (جلجانوف) ، وهو يسحب يده عن المسدس ، مغمغمًا في دهشة :

- (هيلجا) ؟!

أجابه (كوزيريف) بسرعة :

- نعم أيها الرفيق الرائد .. لقد أدهشنا هذا أيضًا ، ولكن مراجعة ملف زميلتك السابقة أرشدنا إلى بضع ثغرات ، لم ننتبه إليها في حينها ، جعلتنا ندرك أنها تعمل لحساب جهة أخرى ، ومنذ فترة طويلة .

كان هذا الخبر مفاجأة حقيقية لـ (جلجانوف) ، حتى أنه هتف دون أن يدري :

- عجبًا ! .. اثنان في جهاز واحد .

حدّق (كوزيريف) في وجهه بدهشة متوترة ، وهو يقول :

- اثنان ؟! .. ماذا تقصد بهذا القول أيها الرفيق الرائد ؟!

قفزت يد (جلجانوف) تختطف مسدسه بسرعة هذه المرة ، ورفعه في وجه (كوزيريف) ، وهو يقول في صرامة :

- هذا ما أقصده أيها الرفيق العقيد .

وكانت مفاجأة للعقيد (فيدور كوزيريف) :

مفاجأة عنيفة ..

للغاية ..

* * *

« اسمح لي بتهنئتك يا سيّد (أدهم) .. »

نطق (شالوم) العبارة في بطء ، وهو يتطلّع إلى (أدهم) ، الذي استرخى في مقعده في هدوء ، داخل معطف المطر الأنيق ، وكأنما يجلس في متنزّه عام ، وتابع في حزم واضح :

- لقد أدرت اللعبة في براعة حقيقية ، حتى الآن .

تطلّع إليه (أدهم) في سخرية ، وهو يقول :

- ما هذا بالضبط يا (شالوم) .. تواضع المنتصر ، أم مرارة المنهزم ؟

مال (شالوم) نحوه ، قائلاً :

- إنك لم تنتصر بعد يا سيّد (أدهم) .. من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

قال (أدهم) في سرعة :

- وعاليًا .. هذا صحيح يا (شالوم) ، وأعدك أن أضحك بأعلى صوتي ، عندما ينتهي هذا الأمر .

رمقه (شالوم) بنظرة صارمة ، وهو يقول :
- اعلم ان لك سجلاً حافلاً بالانتصارات يا سيِّد (ادهم) ، ولكن من العسير جدًا ، أن تنتصر عليَّ .
كادت ابتسامة (ادهم) الساخرة تتحولَ إلى ضحكة عالية ، وهو يقول :
- حقًا ؟ !
التقى حاجبا (شالوم) ، وهمَّ بقول شيء ما ، عندما ارتفع رنين جرس الهاتف المجاور له ، فاختطف سمَّاعته ، قائلاً :
- من المتحدِّث ؟ !
ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يستمع إلى محدِّثه ، ثم ناول (ادهم) السمَّاعة ، قائلاً فى شيء من الحنق :
- إنه زميلك .
التقط (أدهم) السمَّاعة ، واستمع إلى صوت زميله فى ارتياح ، ثم قال بالعربية .
- حمدًا لله على سلامتك يا رجل .. بلِّغ (فريدريك) تحياتى ، واخبره اننى سعيد بنجاته .. كلاً .. لا تقلق بشانى .. اعرف كيف اتدبَّر امورى جيدًا .. إلى اللقاء .. وبالمناسبة .. اخبر طاهى السفارة أننى احب تناول حساء الدجاج فى العشاء ؟ ! ..
رمقه (شالوم) بنظرة غاضبة ، عندما سمع عبارته الأخيرة ، وقال له عندما انهى المحادثة :
- تحب تناول حساء الدجاج فى العشاء ؟ ! اتفاؤل هذا أم حماقة يا سيِّد (أدهم) .
هزَّ (ادهم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :
- لا هذا ولا ذاك .. انا احب تناول حساء الدجاج بالفعل فى عشائى ..

بدا الغضب على وجه (شالوم) ، وهو يقول :
- فليكن .. دعنا من هذا العبث ، واخبرنى : اين التسجيلات التى حصلت عليها من خزانة (هال) ؟
ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وهو يقول :
- فى أماكن شتى يا (شالوم) ، فبعضها تم إرساله إلى وكالات الأنباء العالمية ؛ لأنه يحوى ما يثبت أنك المسئول عن تدبير عملية طائرة التجسُّس ، وأن (مصر) بريئة من هذا تمامًا .. ولو أنك تشك فى قولى هذا ، فيكفى أن تشاهد محطة (C . N . N) بعد ساعة واحدة ، وستجد صورتك على شاشتها ، وأنت تعدُّ خطتك الحقيرة ، مع (هال) وزملائه .. لقد كان ذلك المحامى الفنلندى داهية حقًا ، حتى يحتفظ بتسجيلات لكل هذا .
احتقن وجه (شالوم) فى شدة ، واحمرَت عيناه فى غضب ، فى حين تابع (ادهم) بنفس الهدوء الساخر :
- أما بعض الشرائط الأخرى ، فقد أهديناها إلى المخابرات السوفيتية ، لتكشف أمر العميل السوفيتى ، الذى بذلت قصارى جهدك لتجنيده لحساب (الموساد) .
واتسعت ابتسامته الساخرة ، وهو يضيف :
- معذرة إذن يا عزيزى الوغد (شالوم) .. لقد خسرت اللعبة هذه المرة .. خسرتها عن جدارة .
هبَّ (شالوم) من مقعده ، وانتفض جسده كله بغضب هادر ، وهو يصرخ :
- هل تظن هذا ؟ ! .. ستدفع الثمن يا رجل .. ستدفعه فادحًا .
ثم أشار إلى رجاله ، صارخًا :

- اقتلوا هذا الرجل .
ولم تكن عبارته الآمرة قد اكتملت بعد ، عندما رفع (بنحاس) وزميلاه مدافعهم الآلية ، وانطلقت رصاصاتهم بلا تردّد ، لتصيب الهدف مباشرة ..

وصرخ (شالوم) فى انفعال :

- انت خسرت هذه المرة .. انت .

قالها ، وهو يشاهد الرصاصات بعينيه تضرب جسد (ادهم) وجبهته ..

تضربه فى مقتل ..

* * *

حدّق العقيد (كوزيريف) فى وجه (جلجانوف) ومسدسه فى دهشة ، قبل ان يهتف غاضبًا مستنكرًا :

- ما هذا بالضبط ايها الرفيق (جلجانوف) ؟! .. هل جننت حتى تصوّب مسدسك إلى رئيسك .

ابتسم (جلجانوف) ساخرًا ، وهو يقول :

- لا تقلق نفسك بهذا ايها الرفيق ، فمن الناحية الرسمية ، لم تعد رئيسى .

مال وجه (كوزيريف) إلى الأمام ، وهو يقول فى ذهول منزعج :

- ماذا ؟!

اجابة (جلجانوف) ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ويلتقط شريطًا من اشرطة الفيديو :

- لقد اصدر القائد هذا الأمر منذ قليل ، بعد ان وصلته نسخة من هذا الشريط ، التى يحوى تسجيلات لك ، مع محامٍ

فنلندى ، وانت تنقل إليه بعض ادق اسرارنا ، خلال واحدة من زياراتك إلى (هلسنكى) ..

ارتجفت شفتا (كوزيريف) وامتقع وجهه بشدة ، وهو يتطلّع إلى (جلجانوف) ، الذى مال يضغط زرًا على مكتبه ، مستطردًا :

- عندما دخلت إلى مكتبى ، تصوّرت أنك ستحاول التخلّص منى ، بعد أن انكشف أمرك ، ولكننى فوجئت بأن الأخبار لم تبلغك بعد ، ومن دواعى سرورى أننى الشخص الذى أبلغك بها .

ومع آخر حروف كلماته ، اندفع رجال الأمن داخل الحجرة ، وصوّبوا أسلحتهم إلى (كوزيريف) المنهار ، فالتقط (جلجانوف) نفسًا عميقًا من الهواء البارد ، قبل أن يقول فى صرامة :

- لقد انتهى أمرك هذه المرة أيها الرفيق العقيد .. انتهى تمامًا .

وحمل صوته رنة تجمع ما بين السخرية والتشفى والشماتة ..

رنة تعنى أن العميل السوفيتى صار مجرّد ماضٍ ..

أو رقم فى سجلات المعتقل ..

معتقل (سيبيريا) ..

* * *

انطلقت رصاصات المدافع الآلية الثلاثة نحو جسد (أدهم) ورأسه ، فانتزعته من مكانه ، وألقته مترًا ونصف المتر إلى الخلف ، قبل أن يرتطم بأحد المقاعد ، ويسقط معه أرضًا فى عنف ..

وفى نفس اللحظة التى استقر فيها جسده أرضًا ، اقتحم الرجال الخمسة الذين يحرسون المكان الحجرة ، وسبّاباتهم متحفزة على أزندة مدافعهم ، فهتف بهم (شالوم) فى سرعة :

- لا بأس يا رجال .. عودوا إلى مواقعكم .. كل شىء تحت السيطرة .

ألقى الرجال نظرة على جسد (أدهم) ، الملقى مع المقعد أرضًا ، ثم تراجعوا قائلين فى توتر :

- فليكن أيها الرئيس .. فليكن .. تصوّرنا مع انطلاق الرصاصات ، أنكم فى مأزق ما .

لوّح (شالوم) بيده قائلاً :

- كلاً .. لا توجد أية مشكلات .. عودوا إلى مواقعكم .

غادر الرجال الحجرة فى سرعة ، فى حين حدّق (بنحاس) فى جسد (أدهم) ، قائلاً فى دهشة :

- لقد انتهى الأمر بسرعة أيها الرئيس .. مع كثرة حديثك عن هذا الرجل ، لم أتصوّر قط أن ينتهى أمره على هذا النحو .

كاد (شالوم) يقول : إنه أيضًا لم يكن يتصوّر هذا قط ، إلا أن الكلمات احتبست فى أعماقه ، وهو يتطلّع إلى جسد (أدهم) ، حتى أنه بذل جهدًا حقيقيًا ليغمغم :

- كل شخص له نهاية ، مهما بلغت قوته .

قالها ، واتجه فى حذر نحو جسد (أدهم) ، وانحنى يفحصه فى اهتمام ، وهو يقول فى حيرة متوترة ، ويده تمتد لتتحسّس إصابة الرأس :

- عجبًا ! .. الرصاصات أصابته فى صدره ورأسه ، ولكن لا توجد دماء أو ...

بتر عبارته ، وانتفض جسده كله فى عنف ، عندما فتح (أدهم) عينيه بغتة ، وارتفعت يده تقبض على معصمه بأصابع من الفولاذ ، وصوته الساخر يقول :

- لأن موتى لم يحن بعد أيها الوغد .

شهق (شالوم) ، وأراد أن يتراجع مذعورًا ، ولكن قدم (أدهم) أصابته فى مؤخرته ، وألقته خلفه فى عنف ، فى نفس اللحظة التى ضغط فيها (أدهم) زر جهاز تحكُّم لاسلكى صغير فى جيب معطفه ، فالتقط إشارة جهاز استقبال صغير فى حقيبة السيارة ، التى أوقفها أمام باب الفيلا ، وأشعل فتيل صاروخين وقنبلة ..

ودوت ثلاث انفجارات هائلة .

ففى ثانية واحدة انطلق صاروخ من مقدِّمة السيارة ، أصاب مدخل الڤيلا وانفجر بعنف ،وانطلق آخر من الحقيبة ، وعبر الحديقة كلها لينفجر عند البوّابة المعدنية ، ويطيح بها مع طاقم حراستها ، ثم انفجرت السيارة نفسها ، وأطاحت بكل من حولها من رجال (شالوم) ..

وفى نفس الثانية تقريبًا ، كان (أدهم) ينقضّ على (بنحاس) وزميليه ، مستغلاً عامل الدهشة والمفاجأة ، فيحطِّم فك أحدهم بلكمة كالقنبلة ، ويغوص فى معدة الثانى بضربة كالمطرقة من قدمه ، ويهوى بقبضته الأخرى على مؤخرة عنق الثالث ..

وقفز (شالوم) يحاول بلوغ مسدسه عل المكتب ، ولكن أصابع (أدهم) قبضت على عنقه ، وهذا الأخير يقول ساخرًا :

- إلى أين أيها الوغد ؟ .. ألن تعترف بالهزيمة ؟!



ولكن قدم (أدهم) أصابته فى مؤخرته ، والقته خلفه فى عنف ..

حاول (شالوم) أن يستدير لمهاجمته ، ولكن (أدهم) لكمه فى معدته بكل قوته ، ثم أصاب فكه بلكمة ثانية القته أرضًا ، قبل أن يقول ساخرًا :

– والآن ما قولك أيها الوغد الأرقط ؟ ! .. أما زلت تصرّ على أنك أكثر الجميع براعة ودهاءً ؟

بدا صوت (شالوم) أقرب إلى البكاء ، وهو يقول :

– إنك ترتدى معطفًا واقيًا من الرصاصات ، ولكن ماذا عن إصابات رأسك وجبهتك ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية قائلاً :

– إنه ليس وجهى هذا الذى تراه أيها العبقرى .. إنه مجرّد قناع متقن لوجهى ، مبطّن بمادة (الكيفلار) .. هل تعرفها ؟ إنها تلك المادة الحديثة التى تستخدم لصنع الدروع المضادة للرصاص ، وهى تتميّز عن الدروع القديمة فى أنها أكثر قوة ، وأخف وزنًا ، وأقل سمكًا(*) .

هزّ (شالوم) رأسه فى مرارة ، وبصق بعض الدم من فمه ، قبل أن يقول :

– قناع إضافى ! ! .. لقد تفوّقت على نفسك بالفعل هذه المرة يا (أدهم) ، ولكن هل تتصوّر أن قنابلك هذه قد قضت على كل رجالى ؟ ! .. أم أنك تظن أنك قادر على الخروج من هنا حيًا ، لمجرّد أنك ضربت ثلاثة من الرجال وأفقدتهم الوعى ؟ !

مال (أدهم) نحوه ، قائلاً :

– لست أتصوّر هذا أو ذاك يا رجل ، ولكننى ورجالك نعلم أن الموت لا يأتى مرتين ، ومادامو قد رأونى صريعًا هنا ، فكيف

(*) حقيقة .

يفكرون فى قتلى مرة أخرى .. خاصة وان من سيخرج من هنا ، وسط الفوضى التى سادت المكان مع الانفجارات ، لن يكون انا .

ثم انتزع القناع الإضافى عن نفسه ، متابعًا :

- بل انت .

اتسعت عينا (شالوم) فى ذهول ، وهو يحدِّق فى وجه (ادهم) ، الذى تحوَّل إلى نسخة طبق الأصل منه ، وهتف محاولاً النهوض :

- أيها الـ ...

اخرسته قبضة (ادهم) بلكمة مباشرة فى فكه ، اسقطته فاقد الوعى ، ثم وضع قناع الوجه المصاب فوق وجهه ، والبسه معطفه ، ونهض قائلاً :

- إلى اللقاء أيها الذئب الإسرائيلى الخاسر .. لا تنس ابدًا انك ذقت هزيمتك الأولى على يد من هم اكثر براعة منكم .. المصريين .

قالها ، وشد قامته ، والتقط معطف (شالوم) من المشجب ، وارتداه فى هدوء ، وغادر الحجرة ، وهو يقول بصوت ولهجة الإسرائيلى ، وبصرامة شديدة :

- احضروا سيارتى على الفور .. لابد أن ابتعد عن هنا ، قبل وصول الشرطة .

وفى الوقت الذى ساد فيه الاضطراب فى ڤيلا (شالوم) ، والجميع يحاولون السيطرة على النيران ، التى اشتعلت من جراء الانفجارات ، كانت ابتسامة ساخرة كبيرة تملأ وجه (ادهم) ، وهو ينطلق بسيارة الإسرائيلى نحو المطار ، معلنة انتصاره فى جولته الأخيرة مع الخطر .. ومع الموت ..

* * *

انهمرت الأمطار فى غزارة على (القاهرة) ، على نحو لم يسبق له مثيل منذ بداية فصل الشتاء ، ووقف (ادهم) صامتًا فى مكتبه ، يراقب الأمطار من خلف زجاج النافذة ، وقد شرد بافكاره طويلاً ، حتى سمع صوت زميله من خلفه يقول :

- طقس ردىء .. اليس كذلك ؟

التفت إليه (ادهم) فى هدوء قائلاً :

- إنه يبدو لى رائعًا ، بعد ما شاهدته فى (سيبيريا) .

ابتسم زميله ، وربَت على كتفه فى امتنان ، قائلاً :

- إننى ادين لك بحياتى يا صديقى ، فلولاك لافترسنا (شامير) انا و (فريدريك) .

هزَّ (ادهم) راسه قائلاً :

- ولولاى ماسعى لاختطافكما ايضًا .

قال زميله :

- هذا لا يمنع انك انقذت حياتنا ، وانك تصرَّفت ببراعة مدهشة ، منذ بداية المهمة .. لقد قرات تقريرك كله .

ثم ساله فى اهتمام :

- ولكن اخبرنى : لماذا رفضت قيادة المعتقلين ، فى ثورتهم ضد طغاة معتقل (سيبيريا) ؟

اجابه (ادهم) فى شرود :

- كان الأمر سيتحوَّل إلى مذبحة رهيبة ، فالقواعد فى (سيبيريا) تحتم إطلاق النار على الجميع بلا رحمة او هوادة ، فى حالة التمرُّد او الثورة ، والمعتقلون كانوا منهكين متهالكين ، ولم يكن باستطاعتهم قط التصدِّى لكتيبة مسلَّحة شرسة .

اوما زميله براسه متفهِّمًا ، وهو يغمغم :

- هذا صحيح .
ثم عاد يربّت على كتف (أدهم) ، مستطردًا :
- لقد انتهى الكابوس على أية حال ، وحقّقت انتصارًا كالمعتاد يا رجل ، وهزمت الموت نفسه هذه المرة .
ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :
- لا أحد يهزم الموت يا رجل .. إنه المنتصر حتمًا فى كل معاركه ، مهما طال الزمن .
ضحك زميله قائلاً :
- ولكنك فعلتها مرتين يا صديقى .. ألم يعدمك (فينوفيتشى) فى (سيبيريا) ، ويقتلك (شالوم) فى فيلته فى (هلسنكى) ؟ وعلى الرغم من هذا ، فهانتذا حىّ ترزق بيننا .
هزّ (أدهم) رأسه ، وتنهّد فى عمق ، قبل أن يقول :
- إنه موت فى الأوراق الرسمية وحدها يا رجل ، وهذا أمر يسهل تزييفه والعبث به ، أما الموت الحقيقى فلا يفشل أو ينهزم .
ثم شرد بصره مرة ثانية ، وهو يعاود التطلّع إلى الأمطار المنهمرة ، وذهنه يستعيد كل ما حدث ، قبل أن يضيف فى صوت عميق خاشع :
- ولا يأتى أبدًا مرتين .
وعاد إلى صمته ، والمطر ينهمر ..
وينهمر ..
وينهمر ..

* * *

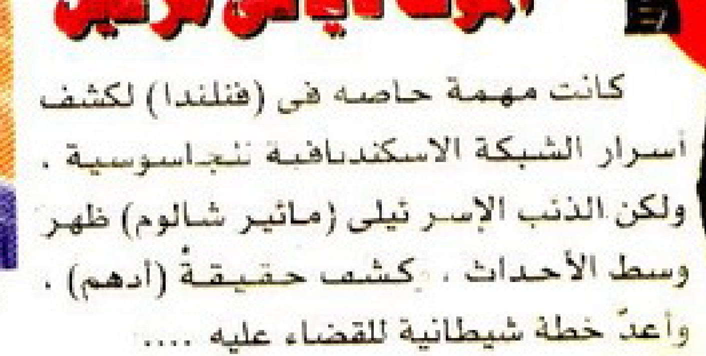
[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

الموت لا يأتى مرتين

سلسلة الأعداد الخاصة

الموت لا يأتى مرتين



د. نبيل فاروق

كانت مهمة خاصة فى (فنلندا) لكشف أسرار الشبكة الاسكندنافية للجاسوسية، ولكن الذئب الإسرائيلى (مائير شالوم) ظهر وسط الأحداث، وكشف حقيقة (أدهم)، وأعدّ خطة شيطانية للقضاء عليه ....

وبخدعة رهيبة، وجد (أدهم صبرى) نفسه وسط جليد (الاتحاد السوفيتى)، يقاتل ويقاتل للنجاة والفرار، من أبشع معتقل عرفته السنوات الأربعين الأخيرة ...

معتقل (سيبيريا) ..

وكان على (رجل المستحيل) أن يتصدّى للخطر، وأن يقاتل بكل قوته، وهو يدرك حقيقة واحدة ..

أن الموت لا يأتى أبدا مرتين ....

الثمن فى مصر ٣٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع